عمر السلامي

الإعجاز الفني في القرآن

نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله

مقدمة

القرآن كلام الله ، أبدعته القدرة الالهية ، وعجزت عن محاكاته عقول البشر وأقلامهم قديما وحديثا . و بالإضافة إلى كونه الكتاب المقدس عند العرب والمسلمين ، وكتاب عقيدة وشريعة وحكمة وأخلاق وعلم وبيان فهو نص أدبي رفيع ، يحتل مكانة مرموقة في الأدب العربي ، ويعتلي ذروة النثر الفني ، في أسمى صيغة تعبيرية محكمة، يسمعه الانسان العربي ، ويتلوه ويجد فيه فطرة لغته في ثرائها اللغوي والفكري وفي مدى تفاوتها ، وطبيعة خصبها، ويقدر أن يعيش في نفسه — وهو في أحضان القرآن — في ذروة النضج الفكري ، والعقلي والنفسي ، للانسان العربي الأول ولغته.

ولم يحتل القرآن هذه المكانة إلا لقداسته الدينية ، وكونه النبع الحي للبلاغة العربية وبيانها فهو يمثل المحور الأساسيّ للدراسات الدينية والفكرية والعلمية عند العرب ، وهو ينقل لهذا الفكر زاده الروحي ويبصره بمعالم الطريق السوي ، ليستقي الأصالة — وهي تمثل أساس مقومات الشخصية ، والخصائص — وهي السمة الجوهرية لكل عرق — وذلك لينضج الفكر العربي بشخصيته، ويركز منطلقات حضارته، ويطبعها بميزاته الخاصة به والعامة ، فلا يحيد ويتيه في خضم التيارات الفكرية والحضارية بل يدخلها وسلاحه في روحه وقلبه وشخصيته .

انه لا جدال في ان القرآن « كتاب العربية الأكبر ، ومعجزتها البيانية الخالدة ، مثلها الأعلى الذي يجب أن يتصل به كل ذي عروبة أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها ، ويستشف أسرارها في التعبير والأداء مسلما كان أو غير مسلم . (1) »

ان تراث الأمم يعتمد على روحها وخصائصها ومثلها وأخلاقها. وتراث الأمة العربية يعتمد على انتاجها الفكري منذ الجاهلية الذي تنعكس فيه الخصائص والمثل والأخلاق ، ولكن القرآن يمثل روحها ، والروح جوهر وأصالة وتشاركها في ذلك الأمة الاسلامية ، اذ أنها تنصهر في تعاليم القرآن .

---

1) التفسير البياني للقرآن الكريم ص 9

وتلتقي بذلك مع الأمة العربية ، وذلك لأن القرآن « مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التي اتخذت العربية لسانا لها ، مهما تعدد لهجاتها المحلية ، وتختلف امزجتها الاقليمية ، وتتباين أساليبها الخاصة في الفن القولي ، إذ يبقى القرآن الكريم في نقاء أصالته ، النص الجليل الأمين الذي تلتقي عنده هذه الشعوب العربية اللسان على اختلاف لهجاتها وأديانها وأقطارها وتفاوت تأثرها بالعوامل الإقليمية (2) ». وما كان القرآن هكذا إلا لأنه مارس التجارب البشرية قبل أن تمارسها الإنسانية ذاتها، وعندما حدث ذلك كان القرآن عصارة تلك التجارب في خضم واقعها ، وكان حصيلة خبرة عميقة لجوهر الإنسان حيثما كان ، وصيغت فلسفة حياته في تراكيب خالدة ، مثيرة ومؤثرة ، قال عنها الأستاذ الرافعي : «أوجد العرب اللغة مفردات فانية ، وأوجدها القرآن تراكيب خالدة ، فهو معجم تركيبي». (3) فالعرب بحكم أصالة القرآن ودعوته ، أصحاب رسالة مقدسة ، حيثما انتقلوا حملوا في قلوبهم وعقولهم وسلوكهم معالم القرآن وجوهره ، وكانوا أبصر من غيرهم بمواطن بيانه وجماله وفنه .

ان الأسلوب الذي اعتمده القرآن في صياغة تعاليمه وفلسفته يستند إلى المنطق النفسي في التعبير الفني ، أي انه يصوغ تعابيره في أرقى أسلوب كلام العرب فنيا ، ويستوحي محتواه من النفس البشرية وتجاربها ، ويدمج الصورة الفنية والنفسية شيئين متلاحمين ، وكأنهما خلقا خلْقاً ، لا مجال لانفصال احداهما عن الأخرى ، ولذلك ملك نفوس العرب ، وسحر عقولهم

إن نظرة سريعة في تاريخ الفكر العربي قديما وحديثا تجعل المرء يجد بحق أن القرآن مشعل فكري لانتاجهم ، وانه النبع الذي يستقي منه في شتى الميادين : سواء أدبية كانت أم شرعية ، علمية أم فلسفية ، مذهبية أم غيرها من الفنون والعلوم والاتجاهات .

وعلى الرغم من ان الدراسات الفنية ـ للكلام العربي عامة والقرآن خاصة لم تأخذ حظها الأكبر على أيدي القدامى الأفاضل تجد لقطات فنية ، ولفتات تثير الذوق والحس الفني عند كثيرين من امثال الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والرماني ، والخطابي والباقلاني ، وعلي ابن عبد العزيز الجرجاني ، وأبي هلال العسكري ، والزمخشري ، وابن الأثير ، وغيرهم ... وتجدها واضحة أكثر عند عبد القاهر الذي يملك ذوقا رفيعا ، وحسا فنيا مرهفا بروح البيان

2) التفسير البياني للقرآن الكريم ص 11 ، 13
3) تاريخ آداب العرب 195/2

العربي ... ولكن الدارس الذي يبحث من خلال المصادر القديمة عن الجوانب الفنية في القرآن يشعر بأن ما ذكر منها لا يمثل الصورة الفنية المطلوبة للقرآن ؛ نصا أدبيا رفيعا ، حيث تحكمت في جلها المصطلحات البلاغية واللغوية والنحوية ، وخضعت للاتجاهات المذهبية والطائفية والأعجمية. وأن القدامى لم يدرسوا القرآن على أساس من الموضوع أو الوحدة الفنية ، الأمر الذي أفقد دراساتهم إلى حدما عنصر البيان الفني للقرآن الكريم ومع ذلك فإن اللفتات التي نلمسها في كتبهم ، تهدينا إلى مواطن أخرى كلما امعنا النظر ، ورجعنا إلى القرآن نفسه .

ان ما قدمه لنا القدامى من دراسات للقرآن ، وخاصة منها ما يمس اعجازه وفنه وبيانه وبلاغته وجمال اسلوبه ، يعد الاساس الأول لدراسة الجانب الفني في القرآن وان أهمية كتب التفاسير ترجع إلى انها تمثل في مجموعها شرحا للقرآن ، اتخذ بعضها طريقة التحليل ، وفي التحليل تكمن الجوانب الفنية، ونلمس هذا جليا عند الزمخشري في كشافه، والرازي في التفسير الكبير ، إلا أن الزمخشري ـ الذي اعتمدت عليه ـ استطاع بعقله البياني ومنطقه الإعتزالي ، وحسه الفني ، وأصالة تذوقه أن يقدم لنا شيئا مرضيا عن الظاهرة الفنية للقرآن . فهو في الغالب يعتمد في تحليله على الدلالة الحسية لمفردات القرآن ، وهو بذلك يشير ـ كما أشار من قبله أبو عبيدة في مجاز القرآن وابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ـ إلى أهمية صلة لغة القرآن ببيئة العرب ويستشهد على ذلك أيضا بالشعر ، ويقدم لفتات فنية ، ينص عليها تارة ، ويلمس الدارس بعضها طورا آخر ، ويتجلى هذا بوضوح في تحليله للصيغة التعبيرية لآي القرآن، حيث ينص على أهمية التقديم والتاخير ، واهمية احلال اللفظة في موضعها دون ما يرادفها وعلى ما في الوحدة التعبيرية من لفت نظر وايجاز وايحاء وتصوير ودلالات عميقة وغيرها ... فكتب الإعجاز والبلاغة والتفسير واللغة عمدة دارسي القرآن فنيا ، والدارس في ذلك لا يستغني عن كتب الأدب ، نثرا وشعرا ، فان الدارسات القرآنية واكبت الدراسات الأدبية ، حيث أنها كانت سلاحا للرد على الاتجاهات الفكرية المعارضة ، وفي هذه المواجهة يحصل التلاقح والانفتاح؛ كما أن الفكر العربي يتنبه إلى الخط الطبيعي لدراسة القرآن والبيان العربي دراسة فنية تعتمد الذوق والأصالة ، ولذلك بدت مثل هذه الدراسات على يد عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن الأثير . وان ما نلمسه في العصر الحديث من كتب مهمة في هذا الميدان كدراسات الأستاذ الرافعي للقرآن واعجازه وكتاب التفسير البياني للقرآن

للدكتورة بنت الشاطىء، والدراسات الثمينة للأستاذ سيد قطب في كتبه «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» و «في ظلال القرآن» — يرجع إلى ادراكهم العميق لنظرية النظم، ظاهرة لإعجاز القرآن، وان دراسة القرآن لاظهار وجهه البياني والأدبي ضرورة حضارية تؤكدها النهضة الأدبية الحديثة لتراثنا العربي على أن لايتقيد الدارس إلى حد كبير بطرق القدامى، وعليه أن يستنير بدراساتهم ومعارفهم. وقد تنبه الكثير من مفكرينا في العصر الحديث إلى اتباع هذا النوع من الدراسات للبيان العربي والقرآن الكريم، وأخص بالذكر منهم الأستاذ أمين الخولي.

انه عندما استقر رأيي على موضوع الرسالة «الاعجاز الفني في القرآن» بدأت أول الأمر بمطالعة كتب الاعجاز للخطابي والرماني والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني، واعقبتها ببعض الكتب في البلاغة والأدب، وبعد مدة شعرت بغموض الموضوع، برغم وضوح فكرة الاعجاز واذا بي أترك المصادر القديمة لآخذ حظي من الدراسات الحديثة في بعض كتب علم النفس والفن والنقد والأدب، وعندئذ شعرت بانفراج الأزمة، ووضحت أمامي الصورة الفنية، وهذا يشير إلى أن القرآن استوعب في محتواه مظاهر الحياة، ولمعرفة كنهه وصوره الفنية، لا بد من معرفة الحياة، ولمعرفة الحياة جانبان: الأول شخصي، والثاني ما نستقيه من الدراسات التي أشرنا إليها والتي استقلت في عصرنا الحديث بظاهرة علم أو فن قائم بذاته، خضعت لتجارب عديدة لا تحصى، وكانت أساسا للنهضة الحديثة للعلم الحديث.

واستطعت بعد مطالعة جزء من تلك الدراسات الحديثة التي تمثل في مجموعها تجارب عديدة للحياة البشرية، أن أجمع بين المصادر القديمة والحديثة، وعندئذ تجلت صلة الحاضر بالماضي، وأهمية الماضي بالنسبة للحاضر والمستقبل.

وبعد اجتياز مرحلة تمكنت من خلالها أن ارسم خطوط الرسالة، طالعت خاصة الكتب الثلاثة لسيد قطب: «التصوير الفني في القرآن»، «مشاهد القيامة في القرآن»، و «في ظلال القرآن»، وعندئذ ازدادت الصورة الذهنية للجانب الفني وضوحا.

وفي ختام جولتي في رحاب المصادر والمراجع، رجعت إلى القرآن نصًا لا تفسيرا، وعشت في أحضانه، وشتان بين حياة القرآن من خلال المصادر والمراجع، وحياته في ذاته واحضانه واعماقه. في الاولى هامش الحياة، وفي الثانية قلب الحياة، وشرايينها. وبقيت معه مدة، استطعت أن أجمع ما يفيء لي الطريق بعد أن طويته من أوله إلى آخره ... وكنت في خلال الدراسة، أجمع ما يعن لي، دون التقيد بالمعلومات التي جمعتها من المصادر والمراجع، والتي كنت أحسبها في أول الأمر الضوء الكاشف لعناصر الرسالة، وإذا بي في الأخير أجد ما جمعته من خلال دراستي للقرآن قد رسم لي الطريق الأكثر وضوحا، ووجهني إلى المزج بين ما أخذته من الكتب التي تحدثت عن القرآن وما في القرآن مما لم ينبه عليه.

إن النص الحي، نبع وحياة لكل دارس، وان دارسيه يختلفون، وفي هذا الاختلاف يبدو المجال مفتوحا أمام العقل أولا، والنفس ثانية. والنص القرآني خصب وثري، وعلى دارسه أن يمنح عقله ونفسه الشجاعة والقوة في حدود الأمانة العلمية وما تستلزمه من تواضع صادق، لان هذه الشجاعة تستمدان معالمهما من فكر القدامى والمحدثين وتجاربهم، فالفضل يرجع إلى جهودهم وعملهم.

لقد عقدت بالرسالة تمهيدا للاعجاز الفني في القرآن، أوضحت فيه ظاهرة الدراسة الفنية للقرآن وأهميتها، وانها امتداد طبيعي لفكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وذكرت الاسس التي تقوم عليها دراسة القرآن، وسايرت في تحقيقها ما ذكرته الدكتورة بنت الشاطىء من أنه لا بُدَّ من محاولات جدية لتلاقي الفكر العربي في الميراث الحضاري والفني، وان هذا لا يتحقق الا بدرس القرآن «وفهمه وتذوقه على منهج سليم، ينفذ من وراء الحجب التي أسدلتها التأويلات المذهبية والطائفية والأذواق الاعجمية، ليصل إلى الجوهر المشترك الواحد في نقائه وجلال أصالته(4)». ويمكن ايجاز هذه الأسس التي توخيتها، وهي مبنية على طبيعة القرآن وفطرة بيانه ولغته في الأمور التالية:

1 — تجنب التحجر الفكري، والاعتماد على الفكر المستقل السليم، بتحقيق مبدإ فرنسيس بيكون: «اقرأ لا لتعارض وتفند، ولا لتؤمن وتسلم، بل لتزن وتفكر». كذلك لا بد أن يحمل القارىء في نفسه براءة الأطفال، ونضج العقول المدركة، وأن يقف أمام القرآن وقفة الإنسان بين واقع الطبيعة.

2 — الانصهار في جو القرآن، والتروي العميق في آياته لفظا وتركيبا ومعنى وإيحاء وتصويرا.

3 — أن تمر قراءتنا بمراحل ثلاث: قراءة متذوقة، وقراءة ناقدة،

---

4) التفسير البياني للقرآن الكريم. ص 13

وقراءة حاكمة .

إنه لا بد لدارس القرآن فنيا من القاء نظرة عاجلة على عقلية ابناء صحراء الجزيرة العربية التي قصف نفسها ويصفها التاريخ بانها عقلية بيانية ، تعتمد على براعة التعبير ، وقوة العارضة وسرعة البداهة، وتمتاز بالحس المرهف ، والاستجابة التلقائية لتطور الحياة ، وتمدها الصحراء بذكاء حاد ، ونبوغ شعري . كذلك لا بد من عرض موجز لنفسية الرسول واستعداده لتحمل الرسالة من خلال حديث الوحي ، وذكر ما يتمتع به من عقلية سليمة ، وبيان وفصاحة وصفات سامية. وما دام القرآن قد صيغ باسلوب كلام العرب فلا بد من التعرض إلى ما وصلت إليه اللغة العربية من نضج وثراء فكري ولغوي وحال النثر الفني في الجاهلية ، وأثر القرآن في الدراسات العربية والاسلامية وعن ظاهرة الإعجاز القرآني عند العرب وكل هذا تحدثت عنه في الفصل الأول وهو : القرآن : شخصيته ، تأثيره إعجازه .

وإعجاز القرآن يتناول أسلوبه ومظاهره ومعالم جماله وفنه ، وذلك يتمثل في ألفاظه وعباراته ، وتناسقه الفني وايقاعه الموسيقي . فكان الفصل الثاني « لفظة القرآن » الذي أوضحت فيه مكانة الألفاظ في العمل الأدبي واهتمام العرب بها ، بتخصيص دراسات في فقهها وغريبها ودخيلها وأضدادها وحروفها ، والشروط التي وضعت لحسنها ، ثم عرضت خصائص لفظة القرآن التي تجاوزت الخصائص العامة للكلام العربي عامة وانها تتميز بميزتين: الاولى هي الدقة، وهذه تتفرع إلى خمسة امور: الدقة في الوضع ، الدقة في الإختيار، الدقة في الوصف، الدقة في التناسق. والثانية لفظة القرآن وهي تشع بالحياة بحكم ان القرآن يمثل أعظم تجربة إنسانية في التاريخ البشري. فهي قادرة على بعث الحياة بحركتها وصخبها وأحداثها ومعاركها وصورها ومشاهدها ، فكانت بذلك مصورة وناطقة ومعبرة وموحية، وهي أحيانا تجمع بين بعض هذه الصفات وأحيانا بين جميعها .

وفي الفصل الثالث وهو « عبارة القرآن » أوضحت أهمية العبارة والشروط التي ذكرها ابن سنان الخفاجي ، وما تتميز به من خصائص ، أوجزتها في خمسة أمور : الدقة ، والاحكام في العبارة وقوتها ، والتفنن في التعبير ودقة التصوير وقوته، والإيحاء، وخصصت لكل منها موضوعا ، أبرزت فيه معالمه الخاصة.

وفي الفصل الرابع وهو « التناسق الفني » تحدثت عن اهتمام العرب

بالتناسق وعما يسود القرآن من تناسق فني في عباراته وآياته وسوره، وعقدت فيه خمس موضوعات تناولت فيها التناسق بين مفردات العبارة ، ومعانيها وصورها ، وعن طريق حسن التذييل ، وفي الصيغة التعبيرية.

وفي الفصل الخامس وهو « الإيقاع الموسيقي » عرضت موسيقية اللغة العربية ، وأنها عبارة عن نماذج موسيقية لا مثيل لها في غزارتها وخصبها بين سائر اللغات الأخرى ، وأبنتُ معالم الاعجاز الموسيقي الذي يقول به الأستاذ مصطفى الرافعي ورأي القدامى والمحدثين فيهما، وأكدت السجع بالقرآن. ثم أوضحت مظاهر الإيقاع الموسيقي في القرآن ومقوماته. فكان الإيقاع بالتكرار والصيغة التعبيرية ، وأسلوب العرض ، والجرس والحركة ، والتلون والتنوع في الإيقاع ، ثم التناسق الإيقاعي في القرآن .
أما الطريقة التي توخيتها، فهي التحليل الفني لآي القرآن ، بحيث تتداعى فيه الخصائص الواحدة تلو الأخرى تبعا للوحدة الفنية للموضوع ، وفي خلال التحليل أعمد إلى إبراز مظاهر الجوانب الفنية التي يعتمد عليها أسلوب اللغة العربية ، وتباين مقومات اثرها في النفس ، وقيمة الصيغة وحروفها وجرسها وحركتها ونطقها وما تحمله من قوة في الدلالة والإيحاء .

هذا عرض موجز للرسالة والخطة التي اقتفيت خطواتها ، وسرت على دربها.
وفي ختامها أقدم جزيل شكري، وكامل تقديري واعتزازي إلى جامعة بغداد التي أحمل منها شرف الانتماء ومن إحدى كلياتها : كلية الآداب شرف التخرج ، ومن أساتذتها الأعزاء سمو اللطف الأبوي والعلمي وحسن الرعاية والتوجيه .

والله ولي التوفيق

تمهيد

الإعجاز الفني

الفن لغة :

جاء في لسان العرب ما يأتي: فننت الإبل إذا طردتها، وفن الإبل ، يفنها فنا إذا طردها. افتن الحمار بأتنه واشتق بها اذا اخذ في طردها وسوقها يمينا وشمالا، على استقامة وعلى غير استقامة: فهو يفتن في طردها أفانين الطرد . والفنن الغصن ، والفرع من الشجر ، وما تشعب منه (1)

وجاء في القاموس المحيط : والفنان، الحمار الوحشي ، له فنـون من العدو(2) يبدو أن المفهوم الحسي آت من استعمال العربي الكلمة في طرده للابل، والعربي — بحكم بيئته الصحراوية — يألف الحيوانات ، ولا سيما التي هي أقرب لتحقيق مصالحه. وان صلة الحيوانات ببني جنسه أقرب من صلة الإنسان به ، وهذه الحقيقة بصورة عامة ، يمكن أن تفترض — في ظلالها — ما لهذه اللفظة ومشتقاتها من معان حسية، استمدها العربي لتعبر عن معالم محدودة، تتوفر فيها خصائص بارزة معينة يجمعها التنوع والاختلاط ، ولذلك جاء في لسان العرب ما يؤيد هذا : والرجل يفن الكلام أي يشتق في فن بعد فن وافتن الرجل في حديثه وفي خطبته إذا جاء بالأفانين ، وافتن : أخذ في فنون من القول (1) ومن هنا تفيد لفظة الفن المهارة والابداع والبراعة .

وقبل أن نعرض المفهوم الاصطلاحي ، يجدر بنا أن نعرض رأي الدكتور عبد الحميد يونس الذي نختلف معه في المفهوم الحسي لهذه اللفظة . يقول الدكتور يونس : « ومن المقطوع به أن المدلول الحسي لهذه الكلمة اسبق من المدلول المعنوي والاصطلاحي . فالأصل في الفن والفنن» الغصن والفرع ، ومن هنا كانت دلالته على الاهتداء والتفرع فصار الفن : الخط والطريق . والفنان: حمار الوحش وبخاصة المخطط منه وهذا هو السبب الذي يدعو بعض الكاتبين إلى التحرج من إطلاق هذه

---

1) لسان العرب . مادة فنن

2) القاموس المحيط . مادة فن ... فصل الفاء باب النون

اللفظة على المتفنن ، المبدع للفن (3) ... الخ » .

إن معرفة أصول الدلالة الحسية للالفاظ يحكمها التخمين والافتراض وذلك لخلو معاجمنا العربية من التحديد المضبوط للتسلسل التاريخي للغة العربية .

الفـن اصطـلاحا:

إن المفهوم الاصطلاحي أدبيا للفظة الفن هو المهارة في التحليل والصياغة والسبك ، لتثير لدى القارىء صورا خيالية ، وانفعالات شعورية ، واحساسات عميقة ، وادراكات فنية ، واهتزازات نفسية ، واستجابات في ذوقه ، بحيث « كلما كانت الاستجابات اعمق واوفر كنا أقل استعداد الان تنفصل انفسنا عن ذلك المؤلف الادبي (4) ».

والاعجاز الفني: هو المقدرة الفائقة والمعجزة في الأسلوب ، والبراعة المدهشة في عرض الأفكار والموضوعات ، بألفاظ حية موحية ، وتعابير رشيقة خلابة تسحر العقول ، وتثير منبهات النفس. ويبدو أن الأستاذ سيد قطب هو أول من قال بالاعجاز الفني بصريح اللفظ (5) .

إن الدراسات الفنية الحديثة للقرآن ، تعد امتدادا طبيعيا لفكرة النظم ، التي ركز دعائمها عبد القاهر الجرجاني . وقد سبقها تحسس فني عند العرب يلمس معالمه عند كثير من الكتاب والنقاد ، امثال الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وعلي بن عبد العزيز الجرجاني والآمدي . ان هؤلاء نزعوا « إلى طريقة التوضيح دون كشف التأثير (6) » في أغلب الأحيان، وكشف التأثير يعتمد على الذوق والعمق في تحليل النصوص .

إن القيمة الفنية وأصالتها ، لم تتوفر بشكل منتظم ، حتى تعطي للعبارة ونظمها الصورة الكاملة الحية ، لاسلوب التعبير الفني الرفيع وخصائصه ... لم يتجل ذلك حتى عند عبد القاهر ، إذ نلمس في كتبه « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » و « الرسالة الشافية » لقطات فنية أصيلة، تدل على عمق في الذوق ، وادراك أصيل للبيان العربي ، لكنها لم تكن منظمة فنيا ، بشكل كامل، ويعده الاستاذ محمد خلف الله: « صاحب نظرية في النقد الادبي (7) » «وانها ذات طابع سيكولوجي وذوقي واضح (7)» وانها «تصلح أن تكون أساسا

3) الأسس الفنية للنقد الأدبي : ص : 11
4) منهج البحث في الأدب واللغة (ضمن كتاب النقد المنهجي عند العرب ص 403) .
5) التصوير الفني في القرآن . ص 32
6) الصورة الأدبية . ص : 83
7) النقد الأدبي . ص : 237

لنظرية حديثة في النقد العربي أوسع وأدق، تسير في المنهج التجريبي التحليلي والذوق العلمي (8) » ، أي أن نظرة عبد القاهر تجمع بين الذوق العلمي والمنهج النفسي الذي يعرف طريقه إلى مسارب النفس البشرية .

وكان لنظرية النظم عند عبد القاهر صدى كبير في نفوس الذين أتوا بعده ، امثال الزمخشري وابن الأثير ، حيث اعتمد كل منهما على الذوق في دراساته .

والقرآن ، نصا أدبيا ، اهتم ببراعة وحذق بتداول المعاني — وان قدرة الكاتب على تداول المعاني هي التي تحدد مستوى الفن الذي يعمل في اطاره (9) — وأعطى للصيغة التعبيرية اهمية فائقة، شأن الأدب الحي الخالد الذي تتوفر فيه الاسس الفنية ، والاصول الجمالية ، والقيم النفسية . ان « ..من خصائص الادب الحي أن يمنحنا القدرة على الانفعال به ، ولو كان اسمى من مشاعرنا الخاصة ، لانه يستطيع أن يرفعنا إليه لحظات ، وان يخرجنا من قيد اللحظة الحاضرة في حياتنا كذلك. ويصلنا بنبع الحياة الساري وراء اللحظات المفردة ، والاحداث المحدودة . ويضيف إلى أعمارنا وإلى أرصدتنا الخاصة من الحيـاة آمادا وآفاقا أكبر وأوسع من حياة الأفراد في جيل من الزمن (10) » .

ولكن القرآن وهو يحتوي على خصائص الادب الخالد ، يطبعها بسماته فتسري فيه روحه ، ليحتل سمو اعجازه ... انه ارتاد جوانب الذات البشرية فكشفها أصدق كشف ، بأسلوب فني رائع ، ونفسي شائق ، تنعكس على حياة الفرد بتجاربه وملاحظاته ، وتنقله إلى عالم متحرك ، يلمس على مسرحه مشاهد ونماذج بشرية ، تحمل طابع التكرار ، وصفة الديمومة ، في كل آن من الزمن. انه يستوعب تجارب ناضجة، خصبة ، حية ، ومعاني عميقة سامية ، وتعاليم موجهة ، موحية .

ومحور القرآن هو الانسان، والكشف عن حقيقته ، وبيان خفاياه ، وعرض خيره وشره . إن صورة الإنسان — في أعمق معانيه وأغزرها ، وفي سمو مثله وقيمه — لترتسم في أذهاننا ، وتظل تتسع آفاقها كلما جسمنا حقيقتها في ذواتنا وحياتنا العملية ، وربطناها بالوجود . لان الإنسان — في حقيقة أمره — يمثل نمو العالم وعمرانه وازدهاره ، ودماره وانحطاطه وانهياره

8) المصدر نفسه . ص : 238
9) الأسس المعنوية للادب . ص : 96
10) النقد الأدبي . ص : 28

في الوقت نفسه .

ان مهمة القرآن هي وضعنا امام حقائق نفوسنا، واضحة جلية ، لتبعث فينا التأمل، فنعيش مع حقيقة الوجود، ونصل كياننا بسر روحاني، متجل في تماسك أطراف الكون ، وحيوية الطبيعة وآفاقها . إنه إن خلا الوجود من الإنسان المثالي ، فإنه في القرآن حي خالد.

يقول الحكيم الصيني « لاوتسي» : «ان من يمت دون أن يفنى هو صاحب الحياة الأبدية (11) » . وهكذا صورة الإنسان في القرآن .

والعمل الأدبي في أسمى تعاريفه : «هو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية (12) ». وغرض الفن الأدبي هو «التعبير والتصوير والتوصيل (13)». وجماله هو تحقيق اغراضه ، « وليس الغرض من تأليف الأدب وانشائه ان يكون جميلا ، وانما تقضي له بالجمال اذا نجح في غرضه الذي يرمي اليه (13)». والجمال — كما هو في نظر كروتشه — هو «التعبير الناجح(14)».

وتجارب النفوس البشرية ، هي زاد القرآن ، ملك به حس الانسان ، وحمله على الانصياع طواعية إلى سمو موضوعاته وإعجاز أسلوبه .

لقد صدق « آبر كرمبي » حين قال : « إنه كلما عظم الإلهام ، تطلب قوة فنية اعظم ، لكي تعبر عنه ، لأن التجربة اذا كبرت وسمت ، فلا بد لها من مقدرة على التعبير اسمى وأكبر ، لكي تحيلها إلى عمل أدبي يمثلها تمثيلا صادقا (15) » وهكذا القرآن ، ومدى ما تطلبه قوة الوحي وعظم التجربة.

ولا بد من لغة تنقل هذه التجربة الضخمة ، التي تعم الانسانية جمعاء، وتتفق معها في فطرتها وخصبها ، كذلك لا بد لهذه اللغة أن تملك الإنسان فتنعكس على سلوكه — فعلا وعملا — وتسري في كيانه البشري ، لتأخذ محلها في محتواها الحضاري ، وتختلف عن اللغة العادية ، وينطبق على حقيقتها مفهومها السليم ، وهو أن اللغة : « ليست للافهام والابانة فحسب ، ولكنها اتجاه سلوكي عند الطفل وعند الرشيد وعند البدائي وعند المتحضر جميعا (16)».

11) فلسفة وفن . ص : 289
12) النقد الأدبي ص : 46
13) قواعد النقد الأدبي ص : 46
14) الأسس الجمالية في النقد العربي . ص : 59
15) قواعد النقد الأدبي . ص : 49
16) الأسس الفنية للنقد الأدبي . ص : 118

إن تجارب القرآن التي استطاعت اللغة العربية أن تنقلها بأمانة لتعرض علينا عظمة فن التعبير القرآني ، في أسلوبه المعجز ، وموضوعاته الإنسانية ، التي تهدف إلى سعادة الإنسان في دنياه وآخرته . ان من اسرار نجاح القرآن انه مس المصالح البشرية ، وهي العصب الحساس في حياته ، و « إنما تنجح التجربة في الانتقال حين تخاطب مصالحنا ، فتكون برغم غرابتها ، داخلة في المحيط المعهود للنشاط البشري (17) » ، ولذلك تلوح لنا التجربة الإنسانية من خلال القرآن ، وهي تمس مباشرة واقع نفوسنا وحياتنا ، فتدع عقولنا — بمعونة الخيال — تعرض في لحظات التأمل كنه البشرية في خضم هذه الحياة ، وتبقى في النفس خالدة ، تفيض بالخبرة والمعرفة . ولقد صدق الدكتور جونسون حين قال: « لا شيء يمكن أن يسر الكثيرين ويسر طويلا ، إلا التمثيل الصادق للطبيعة الانسانية ان الصور التي يبتدعها الخيال قد تبعث على السرور فترة ما بسبب الطرافة التي تدعو اليها حياتنا ، غير أن مسرات الدهشة المفاجئة سرعان ما تتلاشى ، إذ أن العقل انما يسكن فقط إلى استقرار الحقيقة وثباتها (18)» إذا كان القرآن معجزا في أسلوبه وروحه الفنية الرفيعة ، وساميا في معانيه وتعاليمه الإنسانية العميقة ، فكيف يمكن أن نفهمه وندرك أسراره ؟ هل يكفي أن نحقق ما يقوله غوير : «لكي نفهم منظرا طبيعيا ، يجب أن نتحد به ، فنهتز مع شعاع الشمس ، ونرتعش مع شعاع القمر في ظل السماء (19) » هل يكفي الانصهار التام في القرآن ، لنضمن به فهم حقائقه وإذا كان الانصهار هو الوسيلة الوحيدة ، فانه لا بد من قاعدة لتحقيق هذا الانصهار ، فقد ننصهر تكلفا وقد ننصهر طواعية ، وانصهارنا في القرآن يجب أن يكون طواعية فهو ينطق بلغة فطرية ، ابتعدنا نحن اليوم عنها ، ولاستعادتها ، لا بد من تجديد في أذواقنا وفهمنا ، بتجديد في مقومات تلك الفطرة الطبيعية في القرآن ، يبعث الحياة في لغته وروحه ، وجوه وطبيعته .

ونقل هذه الصورة يستدعي عملا فنيا ، فالفن وسيلة أدبية لتنقلنا من حالة إلى أخرى ، ولتضعنا أمام حقيقة الواقع بكل ظروفه وملابساته .

هل نملك نحن اليوم ذوق العربي الأصيل ؟ هل ندرك عبقرية لغة العرب الجاهلية ؟ هل نقدر أن نعيش في تجربة القرآن وكأنه في فترة وحيه ؟ هل

17) محاضرات في طبيعة الفن ومسؤولية الفنان . ص : 58
18) الشعر : كيف نفهمه ونتذوقه . ص 125 ، 126
19) النقد الجمالي . ص : 40

يستطيع القرآن ذاته أن ينقلنا إلى لحظات وحيه ، وفطرة لغته ، وحيوية موضوعاته ، وسمو أسلوبه ؟

يقول الأستاذ الديدي : « فان أهم ما يميز الأدب والفن هو انهما مناجاة الضمير للضمير ، وحديث الخاطر للخاطر (20) » ، والقرآن لا تختلف حقيقته عن هذا الكلام ، فهو أدب وفن . فهل يمكن تطبيق هذا المبدإ لنجيب على التساؤلات السالفة الذكر ؟ يضاف إلى هذا ، إن هناك أصولا لا بد من اقرارها مبدئيا وهي القراءة الناقدة لنصوص القرآن ، وتجنب التحجر الفكري ، والاحتفاظ بالتفكير المستقل ، بتطبيق مبدإ فرنسيس بيكون : « اقرأ لا لتعارض وتفند ، ولا لتؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفكر (21) » ولكي تحصل الفائدة من ذلك ، علينا بتطبيق ما نعرفه ، نتيجة تلك القراءة الناقدة ، والتفكير المستقل ، لانه كما يقول كلو برنار الفرنسي : «إن ما نعرفه ــ لا ما نجهله ــ هو أكبر عائق لدراستنا (22) » وقد طبقت هذه القاعدة في الزمن الاول. يقول ابن مسعود: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (23) »ولذلك كانت القراءة الناقدة ، والتروي فيها والعمل بمقتضاها ، هي الأساس للتقدم الفكري غير المتحجر.

إن عظمة القرآن تستوجب منا أن نجلس بين يديه ، وكلنا رغبة في المعرفة ، ونحمل في نفوسنا فطرة الأطفال وبراءتهم ، وصفاء عقول المدركين ونضجها ، لكي نقترب من أولئك الأول الذين واكبوا نزول القرآن، وينطبق في ذلك ما قاله توماس هكسلي في حق الإنسان الذي يجلس امام الواقع والطبيعة : « ... وعلى الإنسان أن يجلس بين يدي الواقع كطفل صغير ، وأن يكون على استعداد للتخلي عن جميع الأفكار السابقة، وأن يتبع الطبيعة بتواضع حيثما تقوده ، والا فلن يتعلم شيئا (24) » إنه لا بد من جرد للعقل ، واشباع التفكير بالمعرفة من خلال الحياة والقرآن ، وأهداف الكائن الحي فيهما . إن التفكير من أجل التفكير نفسه انحراف طبيعي للعقل البشري ، ولا بد للتفكير من هدف « فان جعل التفكير نفسه هدفا للتفكير ليس إلا ضربا من الانحراف العقلي (25) » .

20) الأسس المعنوية للأدب . ص : 86
21) فن البحث العلمي . ص : 17
22) فن البحث العلمي . ص 17
23) في ظلال القرآن . 72/15
24) فن البحث العلمي . ص : 89
25) تأملات في سلوك الإنسان . ص : 19

ان الانسان لتملكه الطبيعة في هذه الحياة ، وعليه أن يملكها بتحقيق رغباته وحاجاته، وان يقر في داخل نفسه ، أنه لا يملك حقوقا في هذه الحياة وان الحياة عمل مستمر لاشباع هذه الرغبات ، « والحقيقة ان الإنسان ليس له حقوق بل له حاجات ، وهذه الحاجات امر يمكن ملاحظته وقياسه . ونجاح الحياة رهن باشباعها. فالحق مبدأ فلسفي ، والحاجة فكرة علمية (26) » إن هذا الإيمان شرط عملي لتنمية ضروب النشاط العضوي والعقلي والروحي للانسان ، وهذا نفسه يسهم في ادراك ما في القرآن من سمو واعجاز لان القرآن في أوسع معانيه يمثل الحياة ، ولا بد ــ كما يقول سيد قطب : « ان ننظر إلى الحياة من زاوية أوسع ، وننظر إليها في محيطها الشامل العام (27)» لنصل رويدا رويدا إلى بعض أسرار القرآن.

وفي أثناء القراءة الناقدة ، يجب أن نعرف وان نفهم وان نتذوق، وأن يغزو فكرنا عالم القراءة في اطار النصوص، « فالمعرفة الدقيقة والفهم الصحيح قاعدتا كل حظ سعيد (28) »

ان القراءة الأدبية، تحتم المرور بمراحل ذات الوان ثلاثة: « قراءة متذوقة، وقراءة ناقدة، وقراءة حاكمة (29) » .

إن هذه المبادئ اصول ثابتة تطبق في حق كل نص أدبي ، وهي في القرآن تحتاج إلى أداة ، اشترط فيها العرب القدماء ما يكاد يكون تحقيقه عسيرا علينا الآن ، لأن دراساتنا الحديثة بعيدة عن روح القرآن ، وان عقولنا تحمل ترسبات تراكمت في فترات الانحطاط الفكري والعلمي وغزاها الطابع العلمي (الاكاديمي) الحديث ، وهي بعد لا تدرك من تراث أمتها وحضارتها شيئا، فانفصلت بذلك ــ وإلى حد ما ــ عن الخط الطبيعي للتطور الفكري ، وابتعدت عن مصدر مهم رئيسي في تراثها وهو القرآن وأصبح يسود الدراسات الحديثة فكر الغرب وحداثة حضارته ...

ان في التقدم العلمي الحديث من الأسس العلمية ما ترشدنا إلى الطرائق السليمة لدراسة القرآن ، وربط الدراسات الحديثة بطابعه الأصيل المميز ، بمفهوم حضاري ، علمي ، هادئ رزين ، وأن يستوحي من الماضي ليكون له عونا وتوفيقا، لأن الماضي غني بالمعرفة والخبرة: « واحترامنا

26) المصدر نفسه . ص : 11
27) في ظلال القرآن 12/12
28) دائرة المعارف السيكولوجية : 348/1
29) من بلاغة القرآن ص : 24

الماضي لا يكون من أجل الماضي لذاته ، ولا من أجل الاحترام لذاته ، ولكن من أجل حاضر آمن غني بالخبرات يفضي إلى مستقبل افضل (30)».
إن المعرفة الكاملة تحتاج إلى حلقات متواصلة من العمل في الحياة: « والذي لا ريب فيه انه لا يمكن أن تكفي حياة واحدة للمعرفة الكاملة ، ولكن ما يعجز عنه عمر ، تستطيع اعمار أن تعمله(31) ». ومن هنا تأتي أهمية ما نص عليه القدماء ، لمعرفة القرآن ودراسته. لقد اشترط الجاحظ في ذلك: معرفة الكلام العـربي بأبنيته واشتقاقاته ومواضعه ودقته ومعانيه وأمثاله ، وان من جهلها جهل تأويل الكتاب والسنة ، وانه إذا « . . . نظر في الكلام ، وفي ضروب من العلم ، وليس هو من أهل الشأن ، هلك وأهلك (32)» .
كما نص ابن قتيبة على الإكثار من النظر والاتساع في العلم وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وخصائص اللغة العربية (33) .

إن في اشتراط الجاحظ وابن قتيبة هذه الشروط تأكيد لسنة التطور في الحياة : صفاء فتعقيد ، وقد مرّ بها تراثنا ، فأهل قرن القرآن وما بعده بقليل ، ذوو فطرة وصفاء ، وأهل القرون التالية اتسمت الحياة الفكرية فيها بالتعقيد ، نتيجة تعقد الحياة ، ودخول العجم في الإسلام ، وهم لا يعرفون من لغة العرب شيئا ويؤكد هذا التطور المنطقي الطبيعي ما قاله الدكتور مصطفى ناصف : « والأدب وحقائق النقد طوران أشبه بطوري الاعتقاد : الأول طور الصفاء والمقاييس الفطرية. والثاني طور التعقيد والتزييف والبعد عن الطبـع (34) » .

اذن لا بد من ثقافة لغوية وأدبية وعلمية وروحية ، ومعرفة بفقه اللغة وأصولها وخصائصها وأساليبها . ولا بد من فهم جديد للبلاغة العربية ، لتخرج من حدود المصطلحات ، والقيود اللغوية الجافة ، ومنطق المتكلمين وألغازهم ومذاهبهم . وأن يكون مفهوم البلاغة هو « فنّ القول والبحث عن الجمال

---

30) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني . ص : 46
31) منهج البحث في الأدب واللغة (ضمن كتاب النقد المنهجي عند العرب) ص : 422
32) الحيوان . 153/1 ، 154
33) تأويل مشكل القرآن . ص : 10
34) حوليات كلية الآداب . جامعة عين شمس . المجلد الثالث . يناير 1955 عنوان المقال: النظم في دلائل الإعجاز للدكتور : مصطفى ناصف . ص : 43

فيه كيف وبِمَ يكون ؟ (35) » وذلك كما نص عليه الأستاذ أمين الخولي ، وأن يكون خاضعا للدراسات الأدبية ، ويصطبغ بالصفة الأدبية للنص ، وأن يكون التفسير الأدبي هو الإطار لمفهوم البلاغة والدراسات القرآنية ، والذي أعنيه بالتفسير الأدبي هو ما أشار إليه الدكتور مصطفى ناصف من أنه « نشاط روحي ؛ بمعنى أن الروح تشترك في تلقي الحياة وفهمها ؛ ليس موقفا عاطفيا بحتا ، ولا موقفا عقليا بسيطا ؛ وانما الموقف الأدبي موقف شامل ، أو هو موقف الروح بأكملها (36) » ، وكذلك أن يكون موضوع البلاغة : « الأسلوب والفنون الأدبية (37) » ، ويوضح ذلك الأستاذ الشائب بقوله : «تنحصر البلاغة في الإجابة عن هذين السؤالين : ماذا تقول ؟ وكيف تقول ؟ (38)» لأن الاهتمام بالأسلوب هو اهتمام بالجمال الذي هو « اخص صفات الأسلوب الأدبي (39) » .

إن أقرب تعريف شامل للاسلوب هو أنه « طريقة التفكير والتصوير والتعبير (40)» ، ويلخصه لنجينوس في قولته المشهورة: «الأسلوب هو الرجل(41)»

فما هي معالم أسلوب القرآن اذن ؟

القرآن نصا أدبيا لا بد أن تتوفر فيه عناصر الأدب وهي العاطفة والفكرة والخيال والأسلوب(42)، وأن تتحقق فيه الغاية الأدبية التي يشير اليها الدكتور جونسون : « الغاية الوحيدة للادب هي أن تجعل القارىء يحسن الاستمتاع بالحياة أو يحسن تحملها(43) » ، وأن يقوم بتبليغ تجاربه الإنسانية وتوصيلها عن طريق عناصره .

إن لكل عنصر من هذه العناصر مظاهر خاصة به في القرآن ، تتميز

---

35) مجلة كلية الاداب بالجامعة المصرية . المجلد الرابع الجزء الثاني . ديسمبر 1936 عنوان المقال : البلاغة وعلم النفس . للأستاذ أمين الخولي ص : 138
36) حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس . المجلد الثامن 1963 . عنوان المقال : ملاحظات عن معنى الفهم الأدبي للدكتور مصطفى ناصف. ص : 69
37) الأسلوب . ص 37
38) المصدر نفسه . ص : 38
39) المصدر نفسه ص : 24
40) المصدر نفسه . ص : 45
41) قواعد النقد الأدبي . ص : 160
42) الأسلوب . ص : 12
43) الشعر : كيف نفهمه ونتذوقه . ص : 12

من حيث المحتوى عن غيرها من النصوص الأدبية العامة ، وتضع نفسها لخدمة الغرض الأسمى للقرآن ، وتسخر لتوضيح هذه المعالم وتقبلها في النفس. إنها تخلق الذوق ليتهيأ المرء في مرآة القرآن، فيستسلم لحقائقه. إنها لم توجد للترف الفكري ، والزركشة الأدبية ، والزخرفة الفنية ، بل وجدت وسيلة مرتبطة بالهدف ، توفر بموجبها عنصر الصدق في المحتوى ومهارة الأداء في نغمة فنية ونفسية صادقة . وليست العبرة فقط بالجمال في العمل الأدبي ، بل لا بد لهذا الجمال من تجاوب صادق في النفس ينتهي بها إلى الإنصهار الكلي ، ويتحول من منطقة الشعور والاحساس ، إلى منطق الإيمان والعقيدة ، فيصاغ في عمل حقيقي .

إن معالم أسلوب القرآن هي موضوع هذا البحث بفصوله الخمسة التي سأتناولها واحدة واحدة بالتفصيل ، وبمجموعها يتمثل الاعجاز الفني للقرآن .

ولا بد أن أقول كلمة عامة عن أسلوب القرآن ، اذ أنه ليس كل أسلوب أدبي معجزا، وان تميز بخصائص فنية بديعةواحتل مكانة في الادب الخالد لان الأسلوب المعجز هو الذي يعجز عن محاكاته البشر، وهو في الوقت نفسه طابع لغتهم ، وظاهرة حية لافكارهم وعقولهم.

وان دارسي الأساليب ليقرون بذلك عندما يدرسون اسلوب القرآن ، لانه أسلوب فطري ، للغة فطرية ، وعقيدة فطرية ، وما كان فطريا فهو بسيط بساطة الطبيعة، وبالبساطة احتلت الطبيعة عظمة الكون، واعجاب ساكنيه، وبالفطرة وبالبساطة انفسهما تحلي القرآن واسلوبه بصفة الاعجاز، فحير عقول خيرى فن العقول ، فابرزوا معالم اعجازه بشكل فني رائع ، فيعجب به كل قارىء ، لكن الدارس – وهو يطالع تلك اللقطات الفنية المعجزة في اسلوب القرآن من خلال الكتب – عندما يرجع الى القران ، يلمس أن ما بدا من جهود ، ومن أسس فنية لمعالم الإعجاز القرآني – محاولات بسيطة ، وظل باهت لعمق يقصر العقل عن التعبير عنه ، وان لم يقصر عن ادراكه و تذوقه .

إن الأستاذ سيد قطب الذي يعد اكثر الدارسين لاسلوب القرآن المعجز يقر بهذا القصور علانية ، رغم ما تشهد به كتبه من روعة في الابداع ، ومقدرة فائقة في تذوق النصوص القرآنية ، وما فيها من عمق مثير.« والعمق

لفظ يصف لنا درجة وعمق كمال الاستجابة المطلوبة (44)». يقول الأستاذ سيد قطب : « كثيرا ما أقف امام النصوص القرآنية ، وقفة المتهيب أن أمسها باسلوبي البشري القاصر ، المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشرى الفاني (45)». انه جال في أعماق القرآن ، وشعر بالقصور ازاء عمق النص القرآني ، وعاش لحظات ، تصور فيها معاصري القرآن وتلقيهم اياه بالقلوب والعقول والارواح والمشاعر ، فمثلوامعجزة العقيدة والمبدإ.

فالنصوص القرآنية أوسع من أن يقف عندها عقل بشري ، باسلوبه البشري في عصر تفصله عن عصر الوحي مسافة أربعة عشر قرنا. ولكن مع هذا ، يستطيع هذا العقل البشري ، باسلوبه البشري ، أن يدرك إلى حد ما – تصورات القرآن ، وقيمته وحقائقه ، وينقلها بلغة البشر ، لتقريب صورة القرآن في فترات نزوله .. انه الإعجاز الفني . ووظيفة الفن في القرآن – التي احاول في هذه الرسالة توضيحها – « هي اثارة الإنفعالات الوجدانية ، واشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه . وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل(46) » .

هذا تمهيد توخيت فيه توضيح ما يتصل بلفظة الفن لغة واصطلاحا ، وصلة الدراسات الفنية الحديثة بفكرة النظم ، وأسس العمل الأدبي وعناصره ومعالم أسلوبه ، ووظيفة الفن فيه ، وصلته بالقرآن ، والطريقة الضرورية التي يجب اعتمادها لدراسة النصوص القرآنية ، وأهمية كشف الجوانب الفنية فيه ، لان الفن حياة قائم بذاته، ولمعرفة مظاهره لا بد من عرض تجاريب الحياة البشرية ، وزاد القرآن هو هذه التجاريب ، وقد صاغها باسلوب فني رفيع معجز .

44) مبادىء النقد الأدبي . ص : 237

45) في ظلال القرآن . 39/13

46) التصوير الفني في القرآن ص : 195 ، 196

الفصل الأول

القرآن : شخصيته ، تأثيره ، اعجازه

للقرآن شخصية واضحة ، ثابتة خالدة ، تخضع في بعض جوانبها إلى مقومات أساسية ، بحكم أن القرآن عربي ، نزل على إنسان عربي ، وفي قوم عرب ، وبأسلوب لغة العرب وخصائصها ، ولا بد — منطقيا وواقعيا — أن يحمل في جوهره السمات العامة لهاته المظاهر ، وينطلق منها ليلتقي بالروح الإنسانية في فطرتها وصفاتها وتفاوتها ومعطياتها ، ثم ينفرد بخصائص إعجازه في روحه ومعانيه وأسلوبه ونظمه وتأثيره .

إن من معالم هاته المقومات الأساسية :

أ — مغزى قصة الوحي من خلال نص الحديث:

قبل نزول القرآن ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعبد بغار حراء وهي الخطوة الأولى التي كان عليه السلام لا يدرك ابعادها الواضحة ، والتي كانت في حقيقة الأمر ترويضا نفسيا ، واستعدادا عقليا لتلقي الوحي وتحمل المسؤولية الالهية ، لتنفيذ أوامره ومنهاجه لحياة البشر ، ليحقق صلة الإنسان بالأرض والسماء ، ولتستمد الروح البشرية من ملكوت السماء والأرض ، قوة الدفع على الحياة ، وتباشير الأمل ، ليوم كان وعده حقا وصدقا .

يروي البخاري في صحيحه قصة الوحي ، وأثبتها هنا كاملة ، لنضع نفوسنا أمام حقيقة نفسية الرسول وهو في خطواته الأولى لتلقي الوحي ونسجل من خلالها ملاحظات ولقطات نفسية ، هي بداية لاهتزازات متنوعة : حيرة واطمئنان وأمل ...

جاء في صحيح البخاري: «حدثنا يحيى ،حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب حدثني سعيد بن مروان ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي زرمه اخبرنا أبو صالح سلمويه قال حدثني عبد الله عن يونس بن يزيد قال أخبرني ابن شهاب أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت. «كان أوّلُ ما بُدِئَ به رَسُول الله صلىّ اللهُ عليْه وَسلّمَ الرّؤْيا الصّادقةَ في

النَّوم، فكانَ لا يرى رُؤْيا إلا جاءَتْ مثلَ فلقِ الصُّبحِ، ثمّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، فكانَ يلحقُ بغارِ حراء، فيتحنَّثُ فيه – قال: والتحنُّثُ: التعبُّدُ الليالي ذواتِ العددِ قبلَ أنْ يرجعَ إلى أهلِه، ويتزوَّدُ لذلكَ، ثمّ يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلِها حتّى فجئَه الحقُّ وهوَ في غارِ حراء، فجاءَه الملَكُ، فقالَ: إقرأْ: فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ما أنا بقارىء. قالَ: فأخذَني وغطَّني حتّى بلغَ منّي الجهدَ، ثمّ أرسلَني، فقالَ: إقرأْ قلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني الثانيةَ حتّى بلغَ منّي الجهدَ ثمّ أرسلَني، فقالَ: إقرأْ قلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني الثالثةَ حتّى بلغَ منّي الجهدَ، ثمّ أرسلَني، فقالَ: إقرأْ باسمِ ربِّكَ الّذي خلقَ، خلقَ الإنسانَ من علقٍ، إقرأْ وربُّكَ الأكرمُ، الّذي علَّمَ بالقلمِ... الآيات إلى قوله: علَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ. فرجعَ بها رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ترجفُ بوادرُه (1)، حتّى دخلَ على خديجةَ، فقالَ: زمِّلوني، زمِّلوني، فزمَّلوه حتّى ذهبَ عنه الرَّوعُ. قالَ لخديجةَ: أيْ خديجةُ ما لي: لقدْ خشيتُ على نفسي. فأخبرَها الخبرَ. قالتْ له خديجةُ: كلّا أبشِرْ، فواللهِ لا يُخزيكَ اللهُ أبداً، فواللهِ إنَّكَ لتصلُ الرَّحمَ، وتصدُقُ الحديثَ، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدومَ، وتقري الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ. فانطلقتْ به خديجةُ حتّى أتتْ به ورقةَ بنَ نوفلٍ، وهوَ ابنُ عمِّ خديجةَ أخي أبيها، وكانَ امرأً تنصَّرَ في الجاهليّةِ، وكانَ يكتبُ الكتابَ العربيَّ ويكتبُ منَ الإنجيلِ بالعربيّةِ ما شاءَ اللهُ أنْ يكتبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قدْ عميَ. فقالتْ خديجةُ: يا عمِّ، اسمعْ منَ ابنِ أخيكَ!. قالَ ورقةُ: يا ابنَ أخي، ما ترى؟ فأخبرَه النبيُّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خبرَ ما رأى، فقالَ ورقةُ: هذا النّاموسُ الّذي أُنزلَ على موسى، ليتَني فيها جذَعاً، ليتَني أكونُ حيّاً إذْ يُخرجُكَ قومُكَ، فقالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أوَ مُخرجيَّ هُمْ؟ قالَ ورقةُ: نعمْ، لمْ يأتِ رجلٌ بما جئتَ

---

1) بوادره: فؤاده

به إلّا أوذيَ، وإنْ يُدركْني يومُكَ حيّاً أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً. ثمّ لمْ ينشبْ ورقةُ أنْ توفّيَ، وفترَ الوحيُ فترةً حتّى حزنَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (2).

إن غط جبريل لمحمد (ص) بعد كل مرة يطالبه فيها بالقراءة، واجابة الرسول على طلب جبريل بقوله «ما أنا بقارىء» – والرسول في تلك اللحظات يهتز نفسيا – تعكس لنا حقائق ذات أهمية كبرى، ذلك أن الرسول – على الرغم من الارتجاف والارتباك – استطاع أن يرد على سؤال جبريل في كل مرة بقوله: ما أنا بقارىء. ان قوة الرجفة لم تبكت الرسول، ولم تطرحه أرضا مغمى عليه، كعادة الانسان في هذه الحالة، بل وقف مجيبا امام مشيئة الله، تسانده في ذلك قوة خفية تملك أعصابه، هي القوة الالهية. فالرسول مفعم بقوة الإيمان، يؤازره في ذلك الامل الذي سبق أن لمس تباشيره في رؤياه الصادقة التي وصفتها عائشة رضي الله عنها بانها: «كفلق الصبح وضوحا»، في ايام تعبده وتحنثه بغار حراء قبل نزول جبريل عليه السلام.

وفي اجابته نفسها بقوله صلى الله عليه وسلم: «ما أنا بقارىء» حقيقة ثانية، هي أن الرسول أمي، يقر بذلك أمام جبريل عليه السلام في أخطر اللحظات، وكأني بالرسول – وهو اجتهاد شخصي – يعرض على جبريل حقيقة نفسه البسيطة المتواضعة في أنه رجل «أمي»، وقد تكون الأمية نقيصة في نظر الرسول امام الامانة الكبرى، ومسؤولية الدعوة، واصطفاء الله إياه ...وان مثل هذا الشعور يقوم دليلا قاطعا على سر عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم. كذلك فان اتباع جبريل طريقة ضم الرسول بشدة وحرارة – ولم يقف عنه بعيدا مخاطبا – ليشعر النفس بحنان الضم وعطفه، وبابعاده السامية، في أنه ضُمّ ليشعر بأنه في أحضان عطف الاله وحمايته ورعايته، وأنه من المصطفين والمقربين الأخيار.

إن المغزى من تكرار جبريل السؤال على الرسول ثلاثا، وضمه اياه ثلاثا، واجابة الرسول ثلاثا أيضا، تفيد وتؤكد كلها للرسول، ان ما يسمعه من كلام، وما يشعر به من ضم، ليسا خاطرة خيال، واضغاث أحلام يقظة، بل حقيقة صادقة.

إن هذه الملاحظات الأربع تعبر عن عظمة محمد في انسانيته وتواضعه،

---

2) صحيح البخاري214/6، 215 صحيح مسلم بشرح النووي197/2 وما بعدها

وان الله اختاره لسبب ما ، قد تقصر عقولنا عن ادراكه ، في أن يكون رسول هداية وحق .

أما اللقطات النفسية ، فتبدو معالمها من خلال قوله عليه السلام « زملوني زملوني » و « أي خديجة ، مالي ؟ لقد خشيت على نفسي » .وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أو مخرجيّ هم ؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي ... » كلها تعكس حال النفس الحائرة والمطمئنة في الوقت نفسه ، وان مسؤولية الهية القيت على عاتقه ، وانه مقبل — وهو يحمل لواء الدعوة — على أيام قاسية ، تؤازره في ذلك قوة الهيه ، وترعاه عناية الله سبحانه وتعالى .

و « الكلمة صوت النفس (3) » ، والرسول لا يقول إلا صدقا ، فلا بد أن تكون كلمته نابعة من القلب ومعبرة عن مشاعره وانفعالاته النفسية الحقيقية وغير المفتعلة امام حقيقة ما يرى وما يشعر به .

يؤكد هذا تخفيف خديجة لروعه صلى الله عليه وسلم ، وهي تقسم « بالله » لتبعث في نفسه البشرى . تقول خديجة رضي الله عنها : «كلا ، أبشر ! فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم ... الخ » ، وتعدد خديجة بعض فضائله ، كلها تشهد بمستقبل عظيم لكل متحلّ بها . ان تبشير خديجة للرسول لمجرد سماعها الخبر ، تحمل فرحة الاطمئنان على الرسول وتعكس حدس خديجة وانطباعها السليم على الرسول محمد ، وهي زوج يقدرها زوجها محمد (ص) أيما تقدير . ولذلك سرعان ما ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وهو من الحنفاء . قال ورقة للرسول (ص) وهو ينبئه بالنبوة ، بتذكيره ناموس موسى وان من أتى — قبلك — بما جئت به أوذي . يقول: ... « وإن يدركني يومك حيا أنصرك نصرا مؤزرا ...» إنها لحظات مهولة من الخوف والأمل : الخوف من عظمة الرسالة وما سيلاقيه في سبيلها من تعب ، والأمل في تحمل الرسالة ، اكراما له من الخالق .

إن هذه اللقطات النفسية خليط من المشاعر تنتاب الرسول ، فيفصح عن صدق ما رأى وما شعر به ، ويفزع إلى خديجة ، وهذه تذهب به إلى ورقة ، وهي حال غير عادية ، تثبت بقوة أن كتاب الله الذي أنزل على الرسول محمد (ص) ... « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم

---

3) تاريخ آداب العرب 230/2

خبير (4) » .

ثم كان الوحي ، وكان ينزل على الرسول — من القرآن — الآية والآيتان والثلاث والأربع واكثر من ذلك كما قال النكزاوى في كتاب الوقف(5)، وقيل ان سورة الأنعام أنزلت جملة واحدة(6). وعلى أية حال نزل (غالب القرآن) مفرقا وقليله جمعا (7) .. « وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه وتذكيرا به عند حدوث سببه خوف نسيانه(8)». وهذا قليل جدا في القرآن كقولهم بأن سورة الفاتحة نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة ... وكان كلما نزل شيء من القرآن أشار الرسول على كتّاب الوحي بالتسجيل ، ووضعه في المكان المقرر له بين سائر الآيات ، وكان ينص على الموضع : « ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا (9) . واستغرق نزوله ثلاثا وعشرين سنة ، لان الرسول أقام بالمدينة عشر سنين ، وبمكة ثلاث عشرة ، وأوحي اليه وهو ابن أربعين ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين . وهذا هو القول المشهور(10)»

« ولم يكن القرآن مجموعا في حياة النبيء وان ثبت أن القرآن مجموعه محفوظ كله في صدور الرجال أيام حياة النبيء صلى الله عليه وسلم ، مؤلفا على هذا التأليف إلا سورة براءة (11) » . والسبب في عدم جمعه في مصحف واحد ، «لان النسْخ كان يرد على بعض ، فحفْظه بالقلوب في هذه الحالة يجنب الناس من الاختلاط والاختلاف (12) . وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، ووقوع حرب اليمامة التي استشهد فيها معظم حفظة القرآن - وهم أصحاب الرسول (ص) - «دخل عمر على أبي بكر ، وقال له: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تهافتوا تهافت الفراش في النار ، واني أخشى أن لا يشهدوا موطنا إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا — وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن وينسى .

---

4) سورة هود . 11 : 1
5) الإتقان في علوم القرآن 43/1
6) المصدر نفسه 37/1
7) المصدر نفسه 37/1
8) البرهان في علوم القرآن 29/1
9) فضائل القرآن . ص /22 البرهان في علوم القرآن 234/1
10) المصدر نفسه ص : 6
11) البرهان في علوم القرآن 234/1
12) المصدر نفسه 235/1

فلو جمعته وكتبه (13)» . لم يجد هذا الكلام صدى في نفس أبي بكر ذلك ان الرسول لم يقم بهذا العمل في حياته ، فكيف به هو ! . وبعد تردد أبي بكروزيد بن ثابت ، وحرص عمر على مراجعة أبي بكر ، واشعاره بضرورة الجمع – ويشهد أبو بكر نفسه ، حيث قال: «فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، وقد رأيت في ذلك الذي رأى عمر (14) » . التفت عمر في خاتمة المطاف إلى أبي بكر وزيد بن ثابت قائلا : «وما عليكما لو فعلتما ذلك (15) » . وكانت هداية الله، فبدأ زيد بن ثابت الانصاري يجمع القرآن ، وبقيت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم نقلت إلى عمر فحفصة ... وعندما تولى عثمان الخلافة ، ووقع بين المسلمين اختلاف شديد في قراءته، أدى إلى تكفير بعضهم البعض (16) وسمع بذلك الخليفة عثمان أمر بكتابة مصحف موحد ، وعورض على الصحيفة التي تملكها حفصة ، فلم يختلفا في شيء . ووزع مصحف عثمان على المراكز الإسلامية .
قال أبو عمرو الداني في «المقنع» : «أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعله على أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدا : الكوفة والبصرة والشام وترك واحدا عنده ، وقد قيل انه سبع نسخ وزاد : إلى مكة وإلى اليمن وإلى البحرين . قال والأول اصح وعليه الأمة (17)» .
وعندما ماتت حفصة ، أرسل إلى عبد الله بن عمر في الصحيفة بعزمة ، فاعطاهم إياها، فغسلت غسلا(18)». وبذلك وصلنا القرآن متواترا، لاشك في ذلك ولا اختلاف، وصدق قوله تعالى : «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (19)» .

والقرآن وان تواتر ، ففي تفسيره وتأويله على أربعة أوجه كما يقول ابن عباس : «وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر احد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، تعالى ذكره (20) » .

---

13) جامع البيان عن تأويل القرآن 59/1
14) البرهان في علوم القرآن 233/1
15) جامع البيان عن تأويل القرآن 59/1
16) المصدر نفسه 60/1
17) البرهان في علوم القرآن 240/1
18) جامع البيان عن تأويل القرآن 61/1
19) سورة الحجر 15 : 9
20) جامع البيان عن تأويل القرآن 75/1

ب – فصاحة الرسول:

وكان الرسول أفصح العرب على الإطلاق ، قال عليه السلام : «أنا أفصح من نطق بالضاد (21)»، وقال أيضا: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر (22) » . ويشهد على ذلك ما قاله محمد بن سلام ، قال يونس بن حبيب : «ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(23)». وقد جمع الرسول لغة صحراء الجزيرة العربية وزاد عليها . «روي عن أمير المؤمنين علي رضوان عليه ، انه قال ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسمعته يقول: «مات حتف أنفه» . وما سمعتها من عربي قط (23)».
والرسول مع ذلك رجل أمي ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة . والأمية نقيصة إلا أنها في الرسول اكتمال لشخصيته ومهمته . قال العتبي: «الأمية في رسول الله صلى الله عليه فضيلة وفي غيره نقيصة (24)» ويعلل ذلك بقوله: «لان الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكن الانسان بها من الحيلة في تأليف الكلام ، واستنباط المعاني، فيتوسل الكفار إلى أن يقولوا: «اقتدر بها على ما جاء به(24)»

وقد أورد الأستاذ احمد امين مغزى أمية الرسول بقوله : «ولأمر ما بعث الله رسوله محمد أميا حتى لا ينحبس نظره في الحروف والكلمات ، ولا ينحبس عقله في الفلسفة والمنطق . وأن رسالته لاحياء القلب أكثر منها لاحياء العقل (25) » .

وما كانت أمية محمد المتشبعة بروح الفطرة والطبيعة إلا رمزا لقوته ، ونقاوة قلبه ، وصفاء عقله ، وإن القرآن صدى لهذا الجوهر ، حيث يساير الحياة الطبيعية حيثما وكلما وجد الإنسان في أحضان هذه الطبيعة ، فالقرآن نبع فطري خالص للغة العرب وكيان الانسان، كالطبيعة ذاتها في براءتها وصفائها.

وكان الرسول يتكلم لغة قريش ، وقريش أفصح العرب وأصفاهم لغة (26). وكان يحسن مخاطبة القبائل بلغتهم ، وقال القلقشندي : «وكانت

---

21) المثل السائر 412/2 التبيان في علم البيان ص 29
22) الفائق 123/1
23) دلائل الاعجاز ص : 263
24) صبح الأعشى 278/1
25) يوم الإسلام ص : 222
26) المزهر 211/1 و 221

لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يتكلم بها على الدوام ، ويخاطب بها الخاص والعام لغة قريش ، «وحاضرة الحجاز ، إلا انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم ، وجمع إلى سهولة الحاضرة جزالة البداوة ، فكان يخاطب أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن بلغتهم (27) ».

وما كان محمد الا عربيا على أرض الجزيرة العربية ، يفرق العرب ذكاء وبديهة وتجربة ودراية واخلاقا وبيانا . لقد فضله الله بفضائل يفصح الرسول عنها بقوله : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : كان كل نبي يبعث في قومه ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طيبة وطهورا ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم (28) » . وفي رواية المسند: «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي ولا أقولهن فخرا ، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد من قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة ، فأخرتها لأمتي ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئا (29) ». وما اختاره الله وفضله إلا لانه أهل لهذا الاختيار . وهنا تكتمل شخصية الرسول الإنسانية . ويعلل الأستاذ الغزالي سبب اكتمالها بقوله : « ان سر العظمة في حياة محمد يرجع إلى أنه انسان كامل بلغ ذروة الإرتقاء البشري عن طريق العبودية الصحيحة لله (30) » . ان كتابه قبل ابتعاثه هو الطبيعة والحياة، اشبع — عليه السلام — نفسه بالتأمل الهادف، فكان رجلا بسيطا ، يحمل عقل انسان سام في التفكير ، مثالي في الهدف وراق ذروة الرقي البشري . وهذه قاعدة تربوية نفسية ، قال روسو : « ان التعليم الحق هو تعليم النفس بالنفس(31) » ، وقد طبقها الرسول على نفسه ، بوحي من عقله ونبوغه . انه عمل راعيا وتاجرا ، وفكر كفيلسوف، وهي النصيحة التي قدمها روسو لـ (إميل): « يجب أن يعمل كفلاح ويفكر كفيلسوف (32) ».

ج — عقليـة العـرب :

إن صحراء الجزيرة العربية أمدت ابناءها بحدة في الذكاء ، وصفاء

27) صبح الأعشى . المطبعة الأميرية 1913 : 233/2
28) المثل السائر 412/2
29) المسند 261/4
30) الجانب العاطفي من الإسلام ص : 58
31) أصول التربية المثالية لاميل ص 58
32) المصدر نفسه ص 170

في الفطرة ، وقدرة على البيان ، وبراعة في التعبير ، حتى قال فيهم الأستاذ الألوسي : « قد وصل العرب في الفطنة والذكاء وحسن الفهم إلى ما كاد أن يصل إلى حد الاعجاز (33)». ولم تكن العرب أمة جاهلة، ولم تكن بداوتها إلا كتلك المرحلة الطبيعية التي تمر بها كل أمة : « ان طور البداوة طور اجتماعي تمر به الأمم أثناء سيرها إلى الحضارة ، وان هذا الطور الطبيعي له مظاهر عقلية طبيعية (34) » .. هي أقرب إلى الصفاء والنقاوة لفطرة الانسان. يقول الأستاذ محمد مبارك : «... وجدت صورة واضحة كل الوضوح لتلك الصلة المتينة العميقة بين خصائص العرب العقلية والنفسية وتكوينهم وتركيب مجتمعهم واتصال تاريخهم من جهة ، وخصائص اللغة العربية في تكوينها وتركيب الفاظها ومعانيها ومبانيها من جهة اخرى، كما اني وجدت من وراء ذلك تقابلا عجيبا وتشابها واضحا بين اللغة العربية والطبيعة(35) »

وما كانت عقلية العرب إلا نسخة للمظهر العام لصحراء الجزيرة العربية والتي لم تبخل في تزويدها ذكاء ، ونبوغا ، وبيانا ، وان العرب ابدعوا في ميدان الشعر ، والبيان وتصاريف الكلام، ووسموا بأنهم (أمة بيان) : « العرب جيل لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام ، والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان، ولهذا سموا بهذا الإسم (36) » .. وتميزوا بالبداهة والارتجال دون اجهاد أو تكلف : « وكل شيء للعرب فإنما هو عن بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ، ولامكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة وإنما هو أن يعرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة، أو المناقلة، أو عند صراع ، أو في حرب، فما هو الا أن يصرف وهمه إلى جمله المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ... (37) » . هكذا العرب الأول ينابيع من البيان والفطرة ، والبداهة. وليس بغريب أن يؤلف علي بن ظافر كتابا في بديهة العرب أسماه : «بدائع البدائه (38) » .

33) بلوغ الأرب 27/1
34) فجر الإسلام ص : 39
35) خصائص العربية ص : 1
36) بلوغ الأرب 8/1
37) البيان والتبيين 28/3
38) معجم الادباء 266/13

إن العرب أميون ، وبيانهم عن طبع لا تكلف فيه، وهم يختلفون عن بقية الأمم حيث انهم لا يملكون الا عقولهم وقلوبهم وحافظتهم وذكاءهم « وليس هم (أي العرب) كمن حفظ على غيره ، واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا تحفظ ولا طلب (39) » .

ما أروع كلام الجاحظ هذا وهو يعبر عن فطرة العرب ، وكأنها نبع فياض . ولقد من الله على هذه الأمة بذاكرة حفظ قوية ، وإدراك مرهف لما تسمع : « والعرب أوعى لما تسمع وأحفظ لما تأتي (40) » .

إن صفة الحفظ خصيصة عربية، أكدها ابن الجزري بقوله: « ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة (41)». ولعل قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس (42)» تعبر عما تتميز به هذه الأمة من نقاوة في فطرتها ، وفضائل في سجيتها . ويعد ابن سنان الخفاجي فضائل العرب منة من الله ، وطبعا ركبه الله فيهم لغاية «لا يتعلق بشأوها رتبة يقصر الطالبون عن بلوغها (43)»، كما «أن الخصال المحمودة توجد فيهم أكثر، وفي غيرهم أقل ... (43) »

ويتساءل المرء هنا: هل هذه الصفات الطبيعية التي من الله بها على العرب ورسوله هي صفات عفوية ؟ أو صفات أملتها البيئة ؟ أو هكذا أرادها الله لهذه الأمة ، ليبعث فيها ومنها رسولا ، وتكون معجزته بيانية ؟ ! !.. ان مناقشة الآراء في تعليل هذه الظواهر قد لا تنتهي بنا إلى رأي حاسم ، إلا أننا مع ذلك ـ سنعرض بعض الأقوال باختصار ثم نتبعها بتعقيب موجز .

يقول ابن قتيبة: «فانه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ، ما أوتيته العرب خصيصي من الله لما أرهصه في الرسول وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور في زمان المبعوث فيه (44) ».

39) البيان والتبيين 28/3
40) المصدر نفسه : 266/3
41) النشر في القراءات العشر 6/1
42) سورة البقرة 2 : 11
43) سر الفصاحة . ص : 51
44) تأويل مشكل القرآن ص : 10

ان عبارة ابن قتيبة : «... ما أوتيته العرب خصيصي من الله » تدل على أن الأمر إلهي ، فهو الذي حباهم بهذه الصفات ، والرسول في طليعة هؤلاء العرب .

وقد ذكرت سابقا نصا لابن الجزري(45) يثبت فيه أن صفة الحفظ هي خصيصة للعرب من الله سبحانه وتعالى ، ونصا لابن سنان الخفاجي (46) بان فضائل العرب منة من الله وطبع ركب فيهم ، وهما بهذا يشاركان ابن قتيبة في أن الله هو الذي من على العرب . وعندما نعرض المسألة على علم الميثولوجيا، نرى أن البيئة هي الأثر الفعال، ولو كان في مكان العرب امة غيرهم ، لكانوا نسخة لطبيعة وخصائص العرب ذاتهم (47).

ويذكر الأستاذ أحمد أمين في كتابه « يوم الإسلام» رأيا يعتبره هو «سخيفا» ، وهو الادعاء بأن بيئة العرب حادة تدعو إلى الخمول والكسل ويرد على هذا الرأي بقوله: « وهو قول سخيف ، إن البيئة هي البيئة ، والإسلام نشأ فيها ونهض وارتقى ، ثم أتى المسلمون مع أن البيئة واحدة ، والأوروبيون في بيئتهم كانوا في القرون الوسطى أقل حالا من المسلمين، ثم ارتقوا والبيئة هي البيئة . ولو كانت لها كل هذا العمل، ما تخلفت النتائج ؛ لأن ما بالطبع لا يتخلف ، فهو قول وان ارتآه المقريزي وابن سعيد المغربي وابن خلدون واحزابهم، لا يستقيم مع البرهان الصحيح (48)» .

وهذا النص يعكس أمرين :

الأول أن البيئة تؤثر أيما تأثير ، وهي عند العرب عامل خمول وكسل .

الثاني يستخرج من رد الأستاذ أحمد أمين على هذا الادعاء ، وهو أن البيئة لا تملك قوة التأثير ، بدليل رقي العرب في فترة وانحطاطهم بعد ذلك ، وهم يعيشون في بيئة واحدة ، يظللها مناخ واحد ، أي أن هناك عوامل أخرى غير البيئة ، أسهمت في الرقي تارة ، والإنحطاط تارة أخرى ، ولعل الأستاذ أحمد أمين يشير إلى عامل التربية الإسلامية ، التي أحيت وذكت المواهب الفطرية عند العرب في فترة الإزدهار ، فابدعت وأعطت ثمارها ، ثم جفت أرضها يوم فقد العامل التربوي .

45) النشر في القراءات العشر . 6/1
46) سر الفصاحة ص : 51
47) أطوار الثقافة والفكر . 7/1
48) يوم الإسلام ص 228

وتجد دفاعا – لاحمد أمين – عن العرب ، وما تميزوا به – بشيء من الاعتدال العلمي إن صح التعبير – في كتابه « فجر الإسلام »، رد فيه على ابن خلدون ، وبعض المستشرقين امثال « اوليري » وأوضح رأي الجاحظ ورده على الشعوبية ، واتفق معه في أن للعرب ميزتين : طلاقة اللسان ، وحضور البديهة (49) .

إن هذه الآراء التي سبق ذكرها لم تنته – في حقيقة الأمر – إلى رأي حاسم ، و في ظني أن المسألة تنحصر في ذاتية الإنسان العربي ، وأصالة شخصيته ، وما تحمله من جذور أولية . يقول غوستاف لوبون: « ولكل عرق مزاج نفسي ثابت ثبات بنيته التشريحية (50)».

وهذا لا يبطل تأثير البيئة ، والعوامل التربوية ، ولكنه يحدد الأثر . لذلك ساعدت الصحراء بفطرتها الطبيعية ، ونقاوة مناخها أن تكسب أبناءها مزاجا نفسيا معينا ، يحمل خصائص ومميزات . وهنا يكمن السر في اختيار القدر محمدا العربي رسولا للعالمين ، وأن يكون أبناء الضاد مادة الاسلام . ولعل رأيا – يحضرني – وأنا أسجل هذه الملاحظات ، أعرضه وأنا أشعر أن فيه شيئا من الصواب ، يعلل إلى حد ما اختيار العرب في أن يكونوا موطن رسالة محمد. هذا الرأي يرجع إلى صفة اشتهر بها العرب قديما وحديثا وهي حفظهم للنسب. إن خصائص الأمة ترمز إلى طبيعة نفسيتها، ومدى قابليتها واستعدادها وحرصها في المحافظة على متحدرها. والعرب كأمة ذات خصائص ومميزات اشتهروا بحفظ النسب ضمن مجموعة كبيرة من الصفات ، واعتنوا بشجرتها وعابوا من انتسب لغير أبيه ، وبنوا احسابهم على درجة أنسابهم . يقول ابن فارس : «وللعرب حفظ الأنساب وما يعلم أحد من الأمم عني بحفظ النسب عناية العرب (51) »، ويؤكد هذا ما قاله ابن سنان الخفاجي : « وأما مراعاة النسب وحفظها ، وذكر الأصول والبحث عنها ، فباب تفردت به العرب فلم يشاركها فيه مشارك ولا ماثلها فيه مماثل (52) » .

ألا تؤكد هذه العناية ، أن العرب جبلوا على حفظ النسب ، وان لحفظ النسب مغزى نفسيا كبيرا ، إذ يدفع العربي على الحفاظ ، والحرص الشديد على مواطن الفخر، ولا سيما إذا كان هذا الفخر مأتاه النسب أو ما يعادله؟

---

49) فجر الإسلام ص : 30 – 38

50) السنن النفسية لتطور الأمم ص : 30.

51) المزهر 328/1

52) سر الفصاحة ص : 55

ألا تكون هذه الصفة مدعاة لان يكون العرب أوعية لحفظ القرآن كمفخرة تفوق مفخرة النسب ؟ ان هذا الحرص على الحفاظ مستوحى من خاصتهم المشهورين بها ، وهي الاستماتة في العناية بحفظ الانساب . اذا اضفنا إلى هذه الخاصية عامل البيئة ، وبيانية العقلية العربيـــة ، أفلا يمكننا بعد هذا أن نقول في حذر علمي ، انه بمجموع هذه العوامل توفرت الارض والأفراد لتلقي وحي الله ومناهجه ؟

لقد اهتممت بموضوع خصوصية العرب برسالة محمد ، لأنها تفسر أهمية هذه الأمة ، في مواهبها وانسانيتها ، وتحملها مشاق الرسائل السماوية وفي أنها آخر الأمم التي يبعث فيها خاتم الرسل ، وقد أشار الرسول إلى فضيلة القرن الذي يعيش فيه . فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بُعِثْتُ من خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَم ، قَرْناً فَقَرْناً ، حتَّى كُنْتُ مِن القَرْنِ الذي كُنْتُ فيهِ (53) » .

لذلك لا بد لهذه الأمة أن تختلف بعض الإختلاف عن بقية الأمم الأخرى التي نزلت عليها الكتب السماوية ، وأذاقت الويل والعذاب لانبيائها .. لابد أن يكون هنالك سر ، قد تقصر عقولنا عن ادراكه ، ولكنها لا تقصر عن التخمين والافتراض ، هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، لا بد أن تنعكس في القرآن صورة حية لطبيعة هذه الأمة وفي طليعتها الرسول محمد ، وتنطبع أداة التعبير باسلوب مميزات لغة هذه الأمة ، وقد سبق أن ذكرت هذه الخصائص ويمكن حصرها في الأسلوب البياني والفني ، إضافة إلى الأسس النفسية والطبيعية التي سار عليها القرآن ، وطبقت على أمة ما زالت في نقاوة فطرتها وصفاء عقولها وقلوبها .. ومع كل ما سبق – ضمن عقلية العرب البيانية – نجد علماءنا القدامى محقين في اعتبار العرب واللغة العربية والقرآن لا مثيل لها – وان لم يعتمد هذا الإعتبار على أساس علمي مبني على منطق عقلية العلم الحديث. وذلك لأنهم لمسوا عن قرب– إن لم أقل في نفوسهم وفي غيرهم من الأحياء – صدق الفطرة وطبيعة اللغة في ذروة النضج والثراء اللغوي والفكري ووصول عقلية العربي إلى أوج درجة الفطنة والبداهة ، وتمثل القرآن كمعجم تركيبي لفطرة لغة العرب . يقول الجاحظ : « وأنا أقول أن ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الاعراب

---

53) صحيح البخاري 4/ 22 المنتخب من السنة . المجلد الثاني . ص :303

العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء (54) » . والجاحظ صاحب ذوق وبيان ، يدرك جيدا جودة البيان العربي ، ويحس فنيا بمواطن الفن والجمال والابداع.

إن اللغة العربية في العصر *الجاهلي وفي إبان فجر الإسلام وصلت إلى درجة الاكتمال ، وعبرت حدود العصرين (الجاهلي والإسلامي) دون أن يطرأ عليها أي تغيير ، بل أسهمت — بحكم العهد الجديد — في إضافة ثروة لغوية وفكرية .

إن انتقال اللغة العربية — طفرة — من جاهلية اعتادت الشعر في الغالب اطارا وموضوعا لها ، إلى لغة تواجه مشكلات غيبية وشرعية واجتماعية وعلمية ، دون أن يحدث لها تطور تدريجي ، ان هذا الإنتقال يشبه الإنفجار الثوري المباغت داخل اللغة العربية وعقلية العربي البدوي.

انها استحالت إلى لغة منظمة فنيا ، كي تنقل فكرة الثقافة الجديدة والحضارة الجديدة، « ان ظاهرة لغوية كهذه فريدة في تاريخ اللغات (55)».

ويعزو الأستاذ مالك بن عبد النبي عبقرية اللغة العربية إلى الأرض التي نشأت فيها ، والتربة الخاصة التي ترعرعت في احضانها ، والتي أكسبتها طابعها الخاص ، « إن عبقرية لغة ما مرتبطة بما تهبه الأرض لبلاغتها الخاصة ، فطبيعة المكان والسماء والمناخ والحيوان والنبات ، هذه كلها خلاقة للافكار والصور التي تعتبر تراثا خاصا بلغة دون أخرى . وهكذا تضع الأرض طابعها على أدوات البلاغة التي يستخدمها شعب ما كيما يعبر عن عبقريته (56) ».

إن طابع اللغة العربية نشأ بحكم التربية اللغوية التي نشأ عليها العرب ، يقول الأستاذ الرافعي : « وليس في الأرض امة كانت في تربيتها لغوية غير اهل هذه الجزيرة (57) ». ويشهد المستشرق «نولدكه» بثروة اللغة العربية حيث يقول : « إنا ليتملكنا الاعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ، اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها وتوحد مناظر بلادهم واطرادها اطرادا يدعو إلى السآمة والملل ، ويستتبع حتما ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة ، وضعوا لكل تغيير — وان قل — كلمة تدل عليه ، ويجب أن نقربان معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيرا بكلمات استعملها الشعراء وصفا لاشياء ، فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء

54) البيان والتبيين 145/2
55) للظاهرة القرآنية ص : 177
56) المصدر نفسه ص : 293
57) اعجاز القرآن للرافعي ص 177

... الخ ، ولكن رغما عن هذا كله يجب أن نعترف بان معجم اللغة العربية غني غنى رائعا ، وسيبقى دائما مرجعا عاما لتوضيح ما غمض من التعبيرات في جميع اللغات السامية الأخرى .. الخ (58) » يؤكد هذا النص على بعض خصائص اللغة العربية ، وهي انها تجاري التطور بالسرعة الهائلة ، وانها تضع اسما لكل ما يحدث ويجد — وان قل وصغر شأنه — ، وانها تملك ثروة لغوية ضخمة اذا قيست بعقلية العربي وهو في صحرائه ، فراشه الأرض وغطاؤه السماء . وانها مرجع اللغات السامية . وقد سبق « نولدكه » علماءُ العرب في ذلك . يقول ابن سنان الخفاجي : « .. ومن تتبع جميع اللغات ، ولم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد (59) » ، « وقد تُصُرِّفَ في هذه اللغة (أي العربية) بما لم أظنه تُصُرِّفَ في غيرها من اللغات فلم توجد الا طيعة عذبة في كل ما استعمل فيه نظما ونثرا ، وهي إلى الآن لا تقف على غاية في ذلك ، ولا تصل إلى نهاية ... (60) » .

وقد بالغ العرب في اعتبار لغتهم أحسن وأدق لغات العالم ، وأقول (بالغ) اعتمادا على ما تحتمه الدارسات العلمية ، وان سبق أن نوهت ان للعرب الحق في مثل هذه المبالغة . لان ما ذكره العرب حول لغتهم قد يصدق جله إذا خضعت اللغة العربية إلى دراسات علمية حديثة ، وان ما يوجه إليها من عقم في التطور ، هو في حقيقة الأمر يخص أبناءها ولا يخصها هي كلغة حية متطورة ، أثبتت في القديم صحة هذا الكلام ، وهي تسير الان في هذا الخط نفسه ، وان تراكمت امام أعيننا أكداس من الضباب ، هي في طريقها إلى الزوال إن تفرغ العقل العربي لخدمتها والإستفادة من الدراسات اللغوية الحديثة ، والتسلح بالعلم مع ادراك واع ويقظ .

إن الأستاذ أحمد أمين ينوه برقي اللغة العربية بقوله : « ...إن اللغة العربية هي أرقى اللغات السامية كما يقرر دارسو تلك اللغة ، فلا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية ولا غيرها من هذا الفرع السامي . وهي كذلك من أرقى لغات العالم فهي تمتاز — حتى عن اللغات الآرية — بكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها (61)».

فلقد انصهر في اللغة العربية كثير من اللغات ، ولم تستطع أن تقف أمامها أو بجانبها . فاللغة العربية جمعت من المرونة والطاقة على التطور ، ومن

58 فجر الإسلام ص 54
59) سر الفصاحة ص : 45
60) سر الفصاحة ص : 49
61) ضحى الإسلام 305/1

خصائص لغوية وتركيبية – بالإضافة إلى محتوى الفكر والثقافة والحياة الجديدة التي تشعها دعوة الإسلام – مما مكنها من أن تكون لغة طاغية سارية ، واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة . فاللغة السريانية التي ترجمت إليهاالكتب اليونانية ، أخذت تتدهور بعد أن تقل ما فيها إلى اللغة العربية . والفرس في ذلك العصر ، أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هي اللغة العربية وحياة اللغة الفارسية إنما كانت عند التكلم العادي أو في أوساط الديانة المجوسية . وكذلك اللغات الأخرى من رومانية وقبطية في الشام ومصر ، وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها اصبحت في تآليفها وعلومها نتاج كل هذه الأمم التي تلبس كل أفكارهم وتعبر عن قرائحهم ، وكسبواهم منها ما بها من ثقافة إسلامية وأدبية (62) ... » وهكذا كان للاسلام الفضل الكبير على اللغة العربية ، فقد وسع آفاقها وفسح لها المجال لتغزو الأفكار والعقول ، وتحل في القلوب ، فهي لغة الدين والعلم والفلسفة والأدب ، وغيرها من العلوم .

ان مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية تبدو في اللغة : بثرائها اللغوي والفكري ، وفي الشعر : الذي نبغ فيه العرب ، وأبدعوا في نظمه ، واحتل الشاعر مكانة اجتماعية مرموقة ، اذ تحتفل القبيلة بنبوغ الشاعر فيها ، وتقيم له الولائم والأفراح . قال ابن رشيق : « وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذبٌ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج (63) » .

والنبوغ الشعري عند العرب ، يكاد يكون حسا فطريا فيهم ، وقد قصر الجاحظ فضيلة الشعر على العرب وعلى من تكلم بلسانهم (64) .

وكان في الجاهلية أسواق عديدة ، منها ما هو تجاري ومنها ما هو موسمي ، ومنها ما هو شعري كسوق عكاظ المشهور عند العرب . ويسمي الدكتور ابراهيم أنيس هذه الأسواق والمنتديات التي تقع فيها المساجلات والمفاخرات بين الشعراء والخطباء – المؤتمرات الثقافية للعرب القدماء (65)

62) ضحى الإسلام /1 /310
63) العمدة 65/1 – المزهر 473/2
64) الحيوان 74/1
65) دلالة الألفاظ ص 192

فالأسواق عند العرب كانت أداة وصل مستمر ، وهي محط مفاخرهم ورزقهم في الوقت نفسه . ولم يكن الشعر الجاهلي – على ضخامته – إلا دليلا عمليا على النبوغ الشعري عند العرب وان نعته أحمد أمين بأنه : « لا يدلنا على خيال واسع متنوع ، ولا عن غزارة في وصف المشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة في التعبير وحسن في القول (66) » . والمعلقات الجاهلية واهتمام العرب بها ، لتدل على أهمية الشعر عندهم أيضا .

لقد استوعب الشعر الجاهلي اغزر معاني العرب (67) ، فهو أداة تعبير عن المشاعر والمفاخر والحاجات . وهو « ديوان العرب وخزانة حكمتها ، ومستنبط آدابها ومستودع علومها (68) » . والشعر بمثابة كتاب للعرب : « وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها (69) » .

ولذلك كان من مهام الشعر أن اعتمده ابن عباس في تفسيره لغريب القرآن ، حيث ورد في المزهر ما يثبت ذلك : « وأخرج أبو بكر بن الانباري في كتاب الوقف عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال : اذا سئلتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب (70) » وورد في العمدة بصورة أشمل : « وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فان الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن ، انشد فيه شعرا (71) » .

ومن مظاهر عقلية العرب الجاهلية القصص والأمثال والخطب . واشتهر العرب بالخطابة وذلاقة اللسان ، وقوة البيان والعارضة وسرعة البديهة ، فالكلام ينثال على لسانهم انثيالا دون تكلف أو معاناة ، ويشهد الجاحظ على أنه لا يعرف الخطابة إلا للعرب والفرس (72) وخطباء الفرس يختلفون عن خطباء العرب ، فالعرب عن بديهة وارتجال ، والفرس عكس ذلك(73) وخطب الجاهلية لم تقيد وتدون ، لذلك لم يصل منها إلا النزر القليل. وكان في الجاهلية خطباء كثيرون ، وخطباء العرب أيام الجاهلية كثيرون

66) فجر الإسلام ص 60
67) المثل السائر 83/1
68) الصناعتين ص 138
69) تأويل مشكل القرآن ص 14
70) المزهر 302/2
71) العمدة 30/1
72) البيان والتبيين 27/3
73) المصدر نفسه 28/3

كثرة شعرائهم (74) ... وقد وردت أسماؤهم متفرقة في الكتب التاريخية والأدبية ، وكتب التراجم ، « وكان الخطيب يفتن في كلامه فيختصره تارة ارادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الافهام ، ويكرر تارة إرادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه الأعجميون ، ويشير إلى الشيء ويكنى عن الشيء ، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد وجلالة المقام (75) .. الخ » . والخطيب إذا وصل درجة الافتنان في كلامه ، فقد أجاد حسن تصريف الكلام وتهذيبه وصقله ، وهي ظاهرة عامة لعقلية خطباء العرب.

بعد أن تحدثت عن مظاهر عقلية العرب المتمثلة في اللغة والشعر والأمثال والقصص والخطب بصورة موجزة ، أصل هنا إلى الحديث عن النثر في العصر الجاهلي، وهل لهذا العصر نثر فني ؟

ان مظاهر النثر في هذا العصر هي القصص والأمثال والخطب والوصايا ، وهي كثيرة ، إلا أنها لم تدون فتسجل وتحفظ . ولم يتوفر التدوين بالصورة المطلوبة ، ولم تشع الكتابة — وهي عنصر مهم للتدوين — بالقدر الذي يضمن تسجيل التراث الجاهلي ، وحتى الذي كتب لم يصل ، إذ كان العرب يهتمون بتسجيل المنثور وحفظه بقدر اهتمامهم بالشعر وحفظه ، ولعل صياغة الشعر في قوالب موزونة مقفاة ، ساعدت على هذا الاهتمام به وحفظه . لقد كان النثر أكثر من الشعر ، قال صاحب الريحان والريعان : « ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره (76) » .

هناك — اذن — نثر ، فهل النثر أسبق من الشعر ؟

النثر ككلام اعتيادي يبدو أنه سبق الشعر، وكنثر فني ، يبدو أن « طبيعة الأشياء تقتضي أن يتأخر مولود النثر الفني عن مولد الشعر (77) »، لان النثر الفني يحتاج إلى زخرفة ، وروية ، وتأمل ، واجهاد عقلي ، وعمل ذهني

74) بلوغ الأرب 155/3

75) تأويل مشكل القرآن ص : 10

76) صبح الأعشى 210/1 ، 211

77) النقد الأدبي ص : 62

ليكون زبدة المخاض ، وعصارة انفعال النفس والعقل ، وهذا يتوقف على الوجود الأدبي المزدهر لابرازه وتنميته، وهذا الازدهار يتبع النهضة الفكرية بما فيها من حركة في الكتابة والتدوين والطباعة ، ومن نشاط عملي على الصعيد الثقافي والأدبي والعلمي والفني . وما دام التدوين يكاد يكون مفقودا في العصر الجاهلي ، وإن الكتابة موجودة في حدود ضيقة ، قيل ان النثر الفني في العصر الجاهلي غير موجود ؟

ومثل هذا الحكم يفقد وجاهته إذا خلا من استقصاء واستقراء وتتبع تاريخي، للكشف عن الآثار الجاهلية بروح علمية نزيهة . ونظرة في كتاب «مصادر الشعر الجاهلي» للدكتور ناصر الدين الأسد، — وهو دراسة علمية حديثة، تعتمد النقوش والاستقراء والاكتشافات الأثرية في اثبات التدوين والكتابة وحضارة العرب الجاهلية التي يصفها بانها حضارة «ظاهرية تأثرية (78) » تكاد تكون معالمها باهتة لفقدانها التعمق — إن نظرة في هذا الكتاب تزيل الكثير من الغموض والضباب المتراكم على الحقائق التاريخية في تراثنا الجاهلي. هناك تدوين ، وهناك كتابة، وهناك حضارة ، لكنها لم تكن بالمفهوم الذي نفهمه نحن اليوم ، في عصر العلم الحديث ، والاختراعات المذهلة للعقل البشري .

ومن جهة أخرى ، فان مسلك النثر وعر وشائك ، وقليل من ينبغ فيه نبوغ الشاعر الفحل . واذا عددنا الشعراء ، وقايسناهم بالكتاب ، لكثر العدد في الشعراء وقل في الكتاب .يؤيد هذا ما يقوله ابن الأثير : «ولو شئت أن تحصى ارباب الكتابة من أول الدولة الإسلامية إلى الآن ، لما وجدت منهم من يستحق اسم الكاتب عشرة ، وإذا احصيت الشعراء في في تلك المدة وجدتهم عددا كثيرا (79)» .

اذا كانت وسائل تخليد النثر تكاد تكون معدومة ، وإذا كان النثر وعر المسلك ، وقليل من العرب من يبدع فيه ، فهل هذا النوع من النثر متوفر في العصر الجاهلي ؟

الحقيقة «لا» مع شيء من « نعم » لأن «نعم» هنا تنقلنا إلى وضعية النثر الفني بصورته الضيقة. وسوف أوضح ذلك في خاتمة حديثي في هذا الموضوع بعد عرض رأي الأستاذ زكي مبارك وطه حسين ومسيو» مارسيه » .

78) مصادر الشعر الجاهلي ص : 11

79) المثل السائر 413/2

يعد الأستاذ الدكتور زكي مبارك من أكبر المتحمسين والقائلين بوجود النثر الفني في العصر الجاهلي خلافا للاستاذ الدكتور طه حسين الذي يرى رأي المسيو « مرسيه » ... ويتمثل رأي المسيو مرسيه في أن النثر الفني يبتدىء بابن المقفع (80) وينفي عن القرآن صفة النثر الفني ويقول: « إن القرآن ليس خليقا بأن يسمى نثرا (81)»، لأنه «في الأغلب مسجوع وموزون ولا يتحرر من قيد الا ليقع في قيد (82)». ويرد عليه الأستاذ زكي مبارك بقوله: «ولو صح رأي المسيو مرسيه لأنكرنا أن يكون في آثار كتاب القرن الرابع والخامس ما هو خليق بأن يسمى نثرا ، لان اغلب كلام أولئك مسجوع وموزون (82)».

ويرى رأي المسيو مرسيه الدكتور طه حسين ويقول: « والواقع اننا لا نستطيع بحال من الأحوال — مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه — أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني(83) ». ويعرف القرآن بتعريف يبتعد به عن الاقرار بوجود النثر الفني . وتعريفه للقرآن هو أنه « ليس نثرا ، كما أنه ليس شعرا ، انما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الإسم (84) » ويرد عليه الأستاذ سيد قطب بقوله: « ولسنا في حاجة إلى هذا اللعب بالعبارات ، فالقرآن نثر متى احتكمنا للاصطلاحات العربية كما ينبغي ، ولكنه نوع ممتاز مبدع من النثر الفني الجميل المتفرد (85) ».

وثبوت النثر الفني عند الأستاذ زكي مبارك يرجع إلى دراسته للقرآن كنثر فني رفيع ، يمثل روعة النثر في الأدب العربي. إنه لا جدال في أن القرآن نثر فني، وإن هذا « دليل على أن العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبي متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان (86) » . ويعلل الأستاذ زكي مبارك عدم توفر هذا النثر في ايدينا والذي يتناسب مع صفاء أذهان العرب ، وسلامة طباعهم ، بانه « ضاع لاسباب أهمها شيوع الأمية وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودونها القرآن (87) ». ويذهب الأستاذ زكي مبارك إلى أبعد

80) النثر الفني في القرن الرابع 38/1
81) المصدر نفسه . على هامش ص : 38 من الجزء الأول
82) النثر الفني في القرن الرابع 38/1
83) من حديث الشعر والنثر ص : 24 ، 25
84) من حديث الشعر والنثر ص : 25.
85) التصوير الفني على هامش ص : 87
86) النثر الفني في القرن الرابع 43/1
87) المصدر نفسه 34/1

من ذلك ، فيعد القرآن اثرا جاهليا ويقول: « فليعلم القارىء أن لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهلي يصح الإعتماد عليه وهو القرآن ، ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن اثرا جاهليا ، فانه من صور العصر الجاهلي ، إذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره ، وهو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب، يعطينا صورة للنثر الجاهلي، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة لصور النثر عند غير النبي من الكتاب والخطباء (88) » ، « فلا مفر اذن من الاعتراف بان القرآن يعطي صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية، لانه نزل لهداية أولئك الجاهليين وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون (89) ».

هذا رأي الأستاذ الدكتور زكي مبارك حول وجود النثر الفني في العصر الجاهلي، وإن القرآن يمثل دليلا على وجود هذا النثر،وهو في حد ذاته اثر نثري فني جاهلي .

والحقيقة ان بالعصر الجاهلي نثرا يمكن إلى حد ما أن نطلق عليه « صفة النثر الفني »، وان أعوزتنا النصوص في ذلك ، لاسباب سبق ذكرها، الا أن مسايرة الأستاذ زكي مبارك في أن العصر الجاهلي يقدم لنا نثرا فنيا بكل ما تعنيه لفظة « فني » وأن القرآن أثر جاهلي — إن مسايرته بدون مناقشة بعض الجوانب قد تؤدي إلى سوء تقدير لمكانة القرآن وقيمته النثرية .

انا نقول: ليس لدينا في العصر الجاهلي « نثر فني» بكل معنى الكلمة، التي تستوجب الإجهاد الفكري والعقلي والروية والتأمل ، ولكن لدينا — وهذا هو المنطلق الذي نستنتجه من دراستنا لعقلية العرب، والتراث الجاهلي— نثر فني في حدود ضيقة لكلمة « فني » ، وحتى الشعر الجاهلي الذي يمثل أضخم انتاج عند عرب الجاهلية لا يصور الاطار الفني بشكله الواسع العميق ، ويؤيد هذا الأستاذ احمد أمين في أن الشعر الجاهلي « لا يدلنا على خيال واسع متنوع ولا على غزارة في وصف المشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة في التعبير ، وحسن بيان في القول (90)»، وهذا يجسم ما اشتهر به العرب من بيان وقوة عارضة وسرعة بديهة ؛ وفنهم نسخة من هذه المهارة في التعبير والقول .

اما أن القرآن اثر جاهلي وامتداد لظاهرة النثر الفني في الجاهلية ،

88) النثر الفني في القرن الرابع 38/1
89) المصدر نفسه 39/1
90) فجر الإسلام ص: 60.

ففي رأينا أن القرآن يمثل روعة النثر الفني في الأدب العربي ، وانه يختلف من حيث الروعة والصورة الفنية والابداع في التركيب وحسن النظم ، واستيعاب الأسس النفسية في التعابير الفنية – يختلف بذلك عن الطابع العام للتعبير الجاهلي ، الأمر الذي يقودنا إلى القول ، بأن القرآن يمثل بحق التعبير الطبيعي والحقيقي لعقلية العرب البيانية بوجه عام ، وفطرة اللغة العربية في أوج نضجها اللغوي والفكري والفني .

د – القرآن وأسلوب كلام العرب :

ليس القرآن أثرا جاهليا كما يقول الأستاذ زكي مبارك ، وان استطاع العرب تلقيه وفهمه ، حيث نزل بأسلوبهم وطرق تعابيرهم ، لكنه سما عن كل ما ألفوه من أسلوب وتعبير ، «أخبر الحسن بن عبد الرحيم عن أبي خليفة عن محمد بن سلام الجمحي قال : قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن كلامنا هذا (91) » .

ان قوله : «عربية أخرى عن كلامنا هذا» يدل على أن الطابع العام للاسلوب وعبارة القرآن تحمل روحا وسلاسة خاصة . والقرآن يمثل اطارا جديدا من التعبير النثري بدل التعبير الشعري ، ومن موضوع يحمل تعاليم وحياة وفلسفة يختلف عما هو سائد في الجاهلية . فهو « أثر فريد ذو هندسة ونسب فنية تتحدى المقدرة المبدعة لدى الإنسان (92) » . وهو يمثل عهدا وعقلا واتجاها جديدا في حياة العرب ، جعلتهم يسحرون ويفتنون به ، ويفترق بذلك عن عهد الجاهلية . فللعبارة مضمون فكري وعاطفي لا تنفصل عنها المشاعر والعواطف ، « ان القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار ، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف ، لا تنفصل مطلقا عن مضمونها الفكري والعاطفي (93)» .

لقد اتضح ما للعرب من عقلية بيانية وشعرية ، ومالهم من تراث يعد مادة الادب العربي . وهنا أسجل بعض الآراء في مدى فهم العرب للقرآن . يذكر ابن خلدون رأيه فيقول : «فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه (94)» .

91) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص 42 ، 43
92) الظاهرة القرآنية : 182
93) خصائص اللغة العربية : ص 4
94) مقدمة ابن خلدون : ص 785

ويرد على هذا الرأي الأستاذ أحمد أمين (95) ، والأستاذ احمد حسين الذهبي (96) ويكاد يكون ردهما واحدا ، وهو ان القرآن وان نزل بلغة وبلاغة وأسلوب وتراكيب عربية ، لا يقتضي أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته وتراكيبه . ولست اقدر على التوفيق بين رأي الأستاذ محمد حسين الذهبي الذي يرد فيه على ابن خلدون ، ويتفق فيه مع احمد أمين ، وبين كلامه الذي يجاري فيه من حيث لا يشعر رأي ابن خلدون ، وهذا نصه بالحرف الواحد : «وكان القوم عربا خلصا يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية ، فهما لا تعكره عجمة ولا يشوبه تكدير ، ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع وتحكم العقيدة الزائفة الفاسدة (97) » اشعر باضطرار نفسي إلى القول ، بان الأستاذ محمد حسين الذهبي ناقض نفسه ، عند مارد على ابن خلدون ، وقد نص كلامه السالف الذكر على أكثر مما قصده ابن خلدون..

ويرى الأستاذ زكي مبارك أن القرآن نزل لهداية الجاهليين « وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون (98) » ، «وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم(98) » .

ويبني الأستاذ زكي مبارك رأيه هذا أيمانا منه بان الإعجاز في القرآن هو في الفكرة والمعنى وليس في الأسلوب : «وان سر اعجازه راجع إلى روحه ومعانيه (99)» ، « وان اسلوبه عربي في لفظه وصيغته ، وان الرسول لم يجتذب العرب إلا لقوة دعوته ، وما استلزمته هذه الدعوة من أساليب من الفكر والوجدان غير التي كانوا يألفون (100) » .

ويرد على الباقلاني – وهو بصدد تأكيد رأيه ويقول : «ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلاجدال الفاظ القرآن ومعانيه ، لانه عربي اللفظ والأسلوب ولا عبرة بما حكاه الباقلاني من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن لان هذا يخالف المعقول والمنقول ، ويناقض ما من به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربي مبين (101) » .

ويقول الأستاذ الرافعي « وما جاءهم القرآن بشيء لا يفهمونه ولا يثبتون معناه

95) فجر الإسلام . ص : 195 ، 196
96) التفسير والمفسرون 33/1
97) التفسير والمفسرون 6/1
98) النثر الفني في القرن الرابع 39/1
99) المصدر نفسه 37/2
100) المصدر نفسه 70/2
101) المصدر نفسه 67/2

على مقدار ما يفهمونه ... (102) ».

ويمكن معالجة الموضوع بالطريقة التالية :

ان الذي دفع القائلين بان العرب فهموا القرآن اصدق فهم ، هو أن القرآن نزل بلغتهم وأسلوبهم وطرق تعابيرهم ، وان العرب يمتازون بذكاء عقلي بياني ونبوغ شعري ، وقوة عارضة وسرعة بديهة ، وان المصادر القديمة تعرض هذه المظاهر ، وتفتخر بما للعرب من خصائص ومميزات ، وبان الله حباهم ومن عليهم .. فيكون العرب – ولا بد – قد فهموا القرآن ..

وصحيح أن العرب فهموا القرآن ، ولكن فهمهم على طبقات متفاوتة وفي طليعة هذه الطبقات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو المرجع لتفسير ما غمض من القرآن (103)، وتنص على ذلك آية صريحة : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (104) ». قال ابن مسعود رضي الله عنه: « كان الرَّجلُ منَّا إذا تعلَّم عشرَ آياتٍ لم يُجاوزْهن حتّى يَعرف معَانيهن والعَمَلَ بهن (105)». ونص ابن مسعود يرشدنا إلى نقطة مهمة ، تجمع بين عدد محدود من الآيات عند التعلم ، ووجوب فهمها مع العمل بما فيها . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية يشير النص إلى الحاجة إلى فهم الآية، فالعمل بمحتواها يتوقف على فهمها، وفهمها يحتاج – ان اقتضى الأمر – إلى شارح ومفسر ، والرسول تكلف في عهده بهذه المهمة حسب ما تنص المصادر والآية السابقة الذكر، وحسب متطلبات مهمته كرسول مرشد .

والصحابة بحكم اختلاف درجة مواهبهم العقلية والعلمية، ومعرفتهم وقربهم وملازمتهم للرسول يتفاوتون في فهم القرآن ، وقد أشار ابن قتيبة إلى أن العرب تختلف في درجة فهمها لغريب ومتشابه القرآن ، لأنه « لو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في حرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة، وماتت الخواطر (106)»، ثم يقول: « ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة، والقرآن محفز للهمم ، وباعث على النشاط الفكري ، فهو نبع فياض لا ينضب

---

(102) اعجاز القرآن للرافعي ص 180
(103) التفسير والمفسرون 7/1
(104) سورة النحل 16 : 44
(105) في ظلال القرآن 72/15
(106) تأويل مشكل القرآن ص : 62

وقد استشهد الأستاذ محمد حسين الذهبي بعدة شواهد ، اثبت من خلالها أن بعض مفردات القرآن كانت خافية على الصحابة (107) ».

ألا يمكن بعد هذا أن نقول أن العرب فهموا القرآن، وتفاوتوا في فهمه، وفي هذا التفاوت فهم من فهم ، ووقف عند حدود الغموض من وقف .

هـ – القرآن وآثاره :

والقرآن على الصعيد الأدبي «أعلى قمة في التعبير الأدبي في اللغة العربية (108)» وهو محور الدراسات القديمة والحديثة قال في حقه الأستاذ زكي مبارك: « وليس في اللغة العربية كتاب منثور شغل به النقاد غير القرآن (109) ».

والقرآن ظاهرة لعقلية العرب الفذة الذين نشؤوا نشأة لغوية انتهت بمعجزة لغوية (110) . ويبدع الأستاذ الرافعي في تصوره للقرآن حين يقول: «فقامت فيهم (أي العرب) بذلك دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن (111) »، ويصوغ تعبيرا يضمن فيه تعريفه للقرآن، ومزية القرآن على اللغة العربية : « ... ان العرب أوجدوا اللغة مفردات فانية ، وأوجدها القرآن تراكيب خالدة . وإن لهذه اللغة معاجم كثيرة ، تجمع مفرداتها وابنيتها ، ولكن ليس لها معجم تركيبي غير القرآن ، وإنما سميناه (المعجم التركيبي) لأنه أصل فنون البلاغة كلها (112) ».

ان تركيب القرآن يمثل روح الفطرة اللغوية عند العرب (113) في أرواحهم وعقولهم ومشاعرهم وقلوبهم. إن كل دارس للقرآن على الصعيد الأدبي يفتتن بروعة تركيبه وصعوده وفطرة لغته ، وطبيعة تعابيره الشائقة ، وهو يعد بحق كما قال الأستاذ مالك ابن عبد النبي: « أكمل نموذج أدبي ، استطاعت اللغة العربية ان تفصح عنه ، فليس به أدنى اختلال ، بل ان الاتساق البديع شامل بجميع نواحيه في روحه الجليل الغامر، وفي نذره الرائعة المؤثرة، وفي مشاهداته الباهرة، وفي حلاوة وعوده الفائقة، وفي فكرته المتشامخة، وأخيرا في أسلوبه البهي المعجز (114)».

---

(107) التفسير والمفسرون 34/1 وما بعدها
(108) النقد الأدبي ص : 51
(109) النثر الفني في القرن الرابع 17/1
(110) تاريخ آداب العرب 159/2
(111) المصدر نفسه 158/2
(112) المصدر نفسه 268/2
(113) المصدر نفسه 195/2
(114) الظاهرة القرآنية ص : 274

وللقرآن الاثر الكبير في الدراسات الإسلامية ، والبحوث العلمية ، وإنه حفز الهمم ، ووجه العقول للبحث والإجتهاد . والدراسات القرآنية اسهمت في العناية باللغة العربية ، حيث حمل الكثير من العلماء المشاق لجمعها ، وجمع الشعر ، وروايته وتدوينه» وبحث سبل اللغة في التعبير ، ودراسة أساليب العربية وبلاغتها وبيانها ، والعناية باستخراج الأحكام الشرعية وأسسها وما فيها من قوانين اجتماعية وغيرها ، واستنباط ما فيه من توجيه .

فلقد كان القرآن حافزا على العناية بما يساعد على فهم اسراره، وادراك محتواه ، وتفتيق آفاق فكرية للوصول إلى مغزى موضوعاته ... ولا عجب في ذلك ، فهو ينبوع للثقافة ، ومحور لأهداف الفكر والتأليف في أمة العرب والإسلام، وأمد الادب العربي بظاهرة ميزته عن بقية الآداب، يقول الأستاذ محمد خلف الله : « ولقد جدت مع الإسلام على الحياة الأدبية النقدية عند العرب ظاهرة الإعجاز البلاغي ، وقيام الرسالة السماوية عليه ، وهي ظاهرة لم تعرفها الآداب الأخرى (115) ».

إن المرحلة الأولى التي مرت بها الدراسات القرآنية انصبت حول الجانب اللغوي في القرآن، واعتمدت على تفسير الغريب منه، مستعينة في ذلك بالشعر العربي ، وكان أبرز الذين اهتموا بذلك ابن عباس في تفسيره ، وأبو عبيدة في كتابه « مجاز القرآن » والفراء في كتابه معاني القرآن .
وتأتي المرحلة الثانية بظهور الجاحظ الذي اهتم بالصور البيانية ، وعمد إلى توضيحها بعقلية اعتزالية، بعيدة عن تصورات النظام الذي لا يؤمن بنظم القرآن كظاهرة لاعجازه ، وانما يرى الاعجاز بالصدفة . ويصاحب الجاحظ — في الاهتمام بالصور البيانية وفنون القول لاغريب اللفظ — ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، حيث أخذت الآيات تفسر عن طريقهما على أساس الفنون البلاغية كفن الإستعارة والتشبيه والكناية وغيرها لا حسب الصور او الموضوع .

ويلاحظ الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام انه بكتاب « مشكل القرآن » افتتحت الدراسات النقدية لاسلوب القرآن التي تناولتها بعد ذلك كتب اعجاز القرآن (116) » . أما أثر القرآن في الميدان الأدبي ، فهو على نطاق واسع ، لأنه يشمل الأسلوب ، والصورة التي « قامتْ بدور كبير في

115) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص: 8
116) المصدر نفسه ص 148

تكييف الوضع الفني والاعتبارات الفنية الشكلية (117)».
والاهتمام بالصورة هو اهتمام بكشف عناصر الجمال: «فالصورة الجميلة بنية حية ، تشتبك اجزاؤها في علاقات فيما بينها ، وهي في مجموعها تكون تلك الوحدة التي هي في الواقع نتيجة لتلك العلاقات ، وادراك هذه العلاقات في الصورة هو كشف في الواقع عن عناصر جمالها(118)». واذا توفرت المتعة الحسية صحبتها متعة عقلية وفكرية . ويشمل اثر القرآن في الميدان الادبي — إضافة إلى الصورة — الاداة التعبيرية في تركيبها ونظمها وادائها ومدى ما تملكه من ايحاء وقدرة على التصوير ، وبذلك يشارك القرآن في تربية ذوق الشاعر ، والكاتب وأهل البيان ، والعلماء ، والنقاد ، فهو قد سيطر على الملكات الادبية منذ نزوله وترك آثاره في عقول معتنقيه ومفكريه وسامعيه .
ولأهمية القرآن ومكانته عند العرب كانوا يستشهدون به في كلامهم ويعيبون من يخلو كلامه منه ، ويسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبيء صلى الله عليه وسلم : «الشوهاء (119) » وتسمى أيضا بتراء (120). قال عمران بن حطان: «خطبت عند زياد خطبة، فظننت أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعة علة، فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخا يقول هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (119)».
وقد حث عبد الحميد الكاتب على التنافس في صنوف الآداب والتفقه في الدين والبدء بعلم القرآن : «.. وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم (121)».. والقرآن منبع العلوم والمعاني والفنون عند العرب قاطبة . يقول الفيروزابادي : « وبلغني عن الأئمة الراسخين، والعلماء المحققين أن الذي اشتمل عليه القرآن من الدقائق والحقائق والمباني سبعون قسما (122) » . ويذكر بعد ذلك السبعين قسما .
وبذلك تكون الدراسات القرآنية قد أسهمت اسهاما فعالا في الدراسات اللغوية والنقدية والبلاغية وغيرها من الدراسات الشرعية والعلمية والأدبية والفنية، مع العلم كما يذكر الدكتور سلام: « إلى أن الدافع لاولئك العلماء

117) الأسس الجمالية في النقد العربي ص : 187
118) الأسس الجمالية في تطور النقد العربي : ص 123
119) البيان والتبيين 6/2
120) صبح الأعشى 328/1
121) صبح الأعشى 86/1/ رسائل البلغاء . ص : 225
122) بصائر ذوي التمييز 73/1

للاهتمام ببيان القرآن كان في أول مرة بقصد الدفاع عن الكتاب المقدس ضد نزعات الشك الفلسفية ، ورد التناقض والمطاعن التي رمي بها الكتاب والحديث ثم لاثبات الإعجاز فيه . الخ (123) ». ان هذا الدافع قد فتح المجال لانفتاح العقول للدارسات القرآنية في شتى أنواعها وان لم تغص في أعماق الجانب الفني للقرآن .

يقول غرنباوم : «وكل الاعتبارات الفنية التي بدأت منذ القرن العاشر (الرابع الهجري) ، واستمرت إلى ما بعد . والتي كانت تقوم بدور في نظرية الإعجاز ، قد بدأت من تفهم الأسلوب القرآني ولم تذهب إلى ما وراء التحليل الشكلي البتة (124) » .

وصحيح أن جل الدراسات القرآنية لم تخرج عن حدود التحليل الشكلي، وتتناول الجانب الفني بعمق ، لتبرز صوره ومعالمه ، إلا ما كان من عبد القاهر الجرجاني الذي يعد — بحق — ذا حس فني وذوق رفيع ، اسهم في اقامة الأسس الفنية للبلاغة العربية والدراسات القرآنية .

— الأعجاز :

لقد سحر القرآن العرب ، وسلب عقولهم ببيانه ونظمه وروعة معانيه [الخا]لدة ، وهز النفوس منذ نزول آياته الاولى إلى أن اكتملت سوره ، وكان [الإ]عجاز هو روحه الخفية ، تسري في قارئه ، فينبعث فيه الاقرار النفسي [ب]انه كتاب الهي ، أبدعته القدرة الإلهية ، وأن قوى الإنسان عاجزة عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

الاعجاز لغة : جاء في لسان العرب (125) ما يأتي :

« عجزت المرأة صارت عجوزا » اي أنها هرمت وشاخت وأصبحت عاجزة عن استعادة شبابها . و « عجزت المرأة : عظمت عجيزتها » أي عجزتها ويقال: « عجز عن الأمر إذا قصر عنه »، « اعجزني فلان أي فاتني ». وقال الليث: «اعجزني فلان اذا عجزت عن طلبه وادراكه». ومعنى الإعجاز : الفوت والسبق ، و« أعجاز الابل : مآخيرها . والركوب عليها شاق » . « وتَعَجّزَ البعير : ركب عَجُزَه » . هذه المعاني تفيد القصور والفوت والسبق ، وهذا معنى الإعجاز لغة . ولعل مفهومه الحسي آت من عجز المرأة عن استرداد شبابها ، أو عن الصعوبة والمشقة التي يلقاها العربي عند ركوبه

123) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص 206
124) الأسس الجمالية في النقد العربي ص 187
125) لسان العرب : مادة عجز

على أعجاز الابل .

الإعجاز اصطلاحا هو قصور القدرة البشرية عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله . ويزيد هذا المعنى وضوحا عند تعريفنا للمعجزة .

عرّف المعجزة كثيرون نذكر بعضا منهم على سبيل الاجمال لا على سبيل الحصر، ثم نقدم تعريفا عاما من خلال تعاريفهم . من هؤلاء الباقلاني (126)، وعبد القاهر الجرجاني (127)، والفيروزبادي (128) ، وابن خلدون (129) ، والسيوطي (130) ، والشيخ محمد عبدة (131) ، والرافعي (132) والعقاد (133) ، وعلي الجندي وصحبه (134)...

والتعريف العام للمعجزة هو: الاتيان بالامر الخارق للعادة، مقرونا بالتحدي مقرا بقصور القدرة الإنسانية ، ومخالفا للمألوف والمتواتر في المحسوس ويقوم حجة قاطعة في يد الأنبياء على صدق دعواهم في رسائلهم السماوية . والمعجزة — وان خالفت المألوف المتواتر — فهي تساير العقل والطبيعة يقول باسكال : « ان المعجزات برق يرينا الله (135) » .

ونحن وان لم نعش عصور الأنبياء، لنشاهد حقيقة المعجزات، إلا أننا نعيش في القرن العشرين ، وتفصلنا عن عهد محمد مسافة أربعة عشر قرنا ونستطيع — ان وددنا بحق — ان نعيش في أرقى المعجزات ، معجزة محمد في قرآنه ، في روحه وتَنَفّسه وبيانه ونظمه وفلسفته للحياة ...

والمعجزات إما حسية أو عقلية (136) ، وخص الله محمدا وأمته بالمعجزة العقلية ، لأنها باقية أبد الدهر ، ولكي يبصرها ذوو البصائر في كل زمان ومكان ؛ فالعقل البشري واحد حيثما كان ، والبيئة والتربية تكيفان

126) إعجاز القرآن للباقلاني ص 435
127) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص 123
128) بصائر ذوي التمييز 65/1 ، 66
129) مقدمة ابن خلدون ص 162
130) الإتقان في علوم القرآن 2/ 116
131) رسالة التوحيد ص 65 ، 66
132) تاريخ آداب العرب 138/2
133) الفلسفة القرآنية ص 18
134) اطوار الثقافة والفكر 123/1
135) مسائل فلسفة الفن المعاصر ص 15
136) الإتقان في علوم القرآن 116/2

وتبتهجان ، والرسول يشهد على ذلك بقوله « : مَا مِنَ الأنبياء نبيّ إلا أعطِيَ مَا مِثْلَهُ آمَنَ عليه البَشَر ، وإنما كان الذي أوتِيتُهُ وحْياً أوْحَاهُ اللهُ ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهُمْ تابِعاً » أخرجه البخاري (137).

ومن حكمته تعالى ، ان كانت معجزات الرسل تختلف باختلاف طبائع العصر وعاداته : « فكان لموسى فلق البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجر الحجر بالماء الرّواء (138)». إلى سائر أعلامه زمن السحر. وكان لعيسى إحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، وإبراء الاكمه والأبرص ، إلى سائر اعلامه زمن الرسول (139) .. وكذلك فان الرسول يأتي بلسان قومه ، قال تعالى: « وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (140) » . ويوضح الجاحظ مغزى ذلك بقوله: « لان مدار الأمر على البيان والتبيين وعلى الافهام والتفهيم . وكلما كان اللسان ابين كان احمد ، كما أنه كلما كان القلب اشد استبانة كان أحمد (141) » ، والكتب السماوية معجزة فيما تضمنته من الأخبار الغيبية ، وغير معجزة في أسلوبها ونظمها (142) ، ما عدا القرآن الذي جمع بين الاثنين .

والمعجزة العقلية تحار فيها العقول وتتسابق فيها الأقلام ، وتختلف فيها الآراء ، شأن اعجاز القرآن الكريم. فلقد الف فيه كثيرون ، وأول كتاب وسم بلفظة « اعجاز » ينسب لابي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة 302 هـ واسم كتابه : « اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » .

وأشهر الكتب في اعجاز القرآن ، المتداولة بين أيدي الدارسين التي تخصص لفكرة الإعجاز كتابا خاصا ، تكاد تُعد على الأصابع ، مثل كتاب « النكت في إعجاز القرآن » للرماني (386 هـ) و « بيان إعجاز القرآن » للخطابي (388هـ) و « إعجاز القرآن » للباقلاني (404 هـ) و « الرسالة الشافية » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجاني (471 هـ) . أما الذين تعرضوا في كتبهم بالحديث عن الاعجاز فكثيرون ، يشمل أهل البلاغة والتفسير وعلم الكلام . ودارس إعجاز

---

(137) الإتقان في علوم القرآن 116/2/ النهاية من غريب الحديث والأثر 70/1 في الرواية شيء من الاختلاف والمعنى واحد.

138) الرواء : العذب

139) تأويل مشكل القرآن ص 10

140) سورة إبراهيم : 14 : 4

141) البيان والتبيين : 11/1

142) اعجاز القرآن للباقلاني : ص 19 ، 20

القرآن يجد نفسه أمام مجموعة كبيرة من الآراء المختلفة ، كل رأي في الغالب يتبع عقلية صاحبه ، ويعبر عن تفكير وعقيدته ودرجة معرفته وإطلاعه ويعكس أيضا مدى درجة الحس الفني ، وملكة الذوق التي تسيطر على نفسه وعقله وتتصرف في فهمه .

والآراء متعددة في إعجاز القرآن ، سأعرضها بايجاز معتمدا في ذلك على المصادر التي تضمنت عديدا من الآراء ، ثم أخص الحديث عن «نظم القرآن» ، وهي نظرية جديرة بالتوضيح في «هذا المدخل » ، لانها تتصل مباشرة بموضوع الرسالة ، وتمثل في حد ذاتها الرأى الوجيه في اعجاز القرآن ، والمظهر السليم في الدراسات الفنية للقرآن عند العرب ، والتي برزت بوضوح – وبحق – على يد عبد القاهر الجرجاني .. ولذلك سأهتم بتوضيحها . وقبل أن أبدأ إبانة ذلك ، لا بد لي من عرض ما سبق أن ذكرته ، أي تلك الآراء المتعددة في اعجاز القرآن .

وأبدأ حديثي من ذلك بقول ابن سراقة : «اختلف أهل العلم في وجه اعجاز القرآن ، فذكروا في ذلك وجوها كثيرة ، كلها حكمة وصواب ، وما بلغوا من وجوه اعجازه جزءا واحدا من عشر معشاره (143) » .

اصدر بهذا النص حديثي لا لأتفق في ذلك مع ابن سراقة أو أخالفه ، بل لاذكر أن الآراء التي ستسجل ، تعكس مظاهر عقلية علمائنا متفرقين و مجتمعين ، وان الرأي وليد تفكير معين ، وصدى لحالة نفسية خاصة ، تمليها التجربة والمعرفة ؛ وتجسمها الانطباعات العابرة أو الدائمة العميقة . والقرآن لا تحدده الآراء والنظريات ، فهو أوسع وأعمق ، اذ يحمل معه الثبات الزمني في كل عصر ؛ وينفتح صدره بقدر ما تنفتح له الصدور والقلوب والعقول .

وليس الأمر مقصورا على عرض الآراء كما وردت في الكتب ؛ وإنما سأحاول تقسيمها إلى أقسام ينضوي تحت كل قسم مجموعة من الآراء ، وهذه الطريقة تساعدنا على معرفة أي الأقسام اكثر استيعابا للآراء ، ومن خلالها نحكم على أهمية عقلية العربي في نظرته للاعجاز .

القسم الأول : ما يتصل بالأسلوب ، وينضوي تحته رأي القائلين بان الاعجاز في التأليف الخاص بالقرآن لا مطلق التأليف(144) ، وفي النظم والتأليف

---

(143) الإتقان في علوم القرآن 121/2 ، 122

144) البرهان 95/2

و الترصيف (145)، وفي التأليف (146)، وفي النظم (147)، وفي أسلوبه المخالف لسائر الأساليب العربية (148)، وفي الأسلوب والنظم (149)، وفي الأسلوب وصفات الادب الخالد ومميزاته (150) ، وفي طريقة العرض في فواتحه وفواصله (151) وفي طريقته في الاخبار عن الضمائر (152) ، وفي الكلم المفردة (153) وفي الفصاحة (154)، وفي استمرار الفصاحة والبلاغة فيه (155) ، وفي البلاغة (156) ، وفي الفصاحة والبلاغة والنظم (157) .

نلاحظ أن هناك فروقا بين مجموعة من الآراء كالقائلين بالتأليف والنظم ، لأن النظم في نظر بعضهم يوازي التأليف الحسن ، وهذا يختلف عن النظم الذي هو توخي معاني النحو وأحكامه عند عبد القاهر الجرجاني والذي سأوضحه في موضوع نظرية النظم في القرآن وان كثيرا من الآراء تدخل ضمن القائلين بالأسلوب ، وهذا التشابه في الحقيقة يختلف ببعض الفروق الدقيقة تبعا لقائله . ولعل الرجوع إلى المصادر يجلي هذه الدقة .

القسم الثاني: ما يتصل بالموضوع والفكرة، وينضوي تحته رأي القائلين بالأخبار عن الغيوب المستقبلة (158) ، وتضمن القرآن الأخبار عن قصص الاولين وسائر المتقدمين (159)، واشتماله على الحقائق والأسرار الدائمة (160)، وخلوه من المناقضة (161) ، والمعنى (162) ، وصحة المعنى وموافقتها لطريقة

---

145) البرهان 98/2/ مقالات الإسلاميين : 215/1

146) التبيان في علم البيان ص : 93

147) الطراز : 0402/3/ بصائر ذوي التمييز : 68/1 – المغني : 318/16

148) اعجاز القرآن للباقلاني ص: 55 وما بعدها /التبيان في علم البيان ص195

149) الطراز 395/3

150) مقدمة ابن خلدون : ص : 1122

151) تاريخ فكرة اعجاز القرآن : ص 27

152) الطراز : 403/3

153) البرهان : 96/2

154) التبيان في علم البيان : ص : 193

155) البرهان 98/2/ الطراز 398/3 المغني: 318/16

156) البرهان 101/2

157) الطراز 401/3

158) الطراز 404/3 ، 405

159) البرهان 95/2 – الطراز 398/3 – مقالات الاسلاميين 215/1

160) البرهان 96/2

161) الطراز 400/3

162) الطراز 397/3

العقل (163).

القسم الثالث : ما يتوصل بالأسلوب والفكرة معا ، ويندرج تحته آراء القائلين بالنظم والمعنى واللفظ (164) ، وبالنظم وصحة المعاني وتوالي فصاحة ألفاظه (165)

القسم الرابع : ما كان خارجا عن الاقسام الثلاثة السابقة الذكر ، ويندرج فيه رأي القائلين بان القرآن يدرك بالذوق (166) ، ويمكن ادراج الصرفة (167) فيه، وأقول « يمكن » لان كل قائل بالصرفة يذكر آراء اخرى بجانبها ، فالنظام لا يقول بالصرفة ويسكت ، بل يضيف إلى ذلك الاخبار عن الأمور الغيبية .

القسم الخامس : ما كان جامعا لبعض الأقسام المذكورة ، وخارجا عن البعض الآخر ، ويندرج فيه رأي القائلين بان الإعجاز يتمثل في مجموعة من الآراء ، كالرأي الذي أورده محمد بن جزي الكلبي ، وهو يحتوي على عشرة أوجه (168) في اعجاز القرآن ، وما أورده الرماني في أن وجوه اعجاز القرآن تظهر من سبع جهات (169) ، وما أورده العلوي من ثمانية أوجه (170) ، والزركشي من أحد عشر وجها (171) ..

وعندما نمعن النظر في هذه الأقسام الخمسة نجد تنوعا في الآراء ، ينحصر في القسم الاول ، وهو الأسلوب ، وهذا يعكس الاحساس الادبي والفني باعجاز القرآن عند العرب ، وانهم اندهشوا لبيانه ، أيا كان مصدر هذا البيان ضمن أسلوب القرآن الكريم . ويأتي في الدرجة الثانية قسم الموضوع والفكرة ، وان معاني القرآن وأفكاره وموضوعاته مما تثير الاندهاش النفسي ، فتستسلم النفس إلى القول باعجاز القرآن في هذه الناحية.

---

163) بصائر ذوي التمييز 98/1 ـ التبيان في علم البيان ص 194 ـ النثر الفني في القرن الرابع 77/2

164) المغني 318/16

165) بصائر ذوي التمييز 68/1

166) البرهان 97/2

167) البرهان 100/2 – مفتاح العلوم . ص : 243

168) البرهان 93/2 ، 94 – مقالات الإسلاميين 215/1– بصائر ذوي التمييز 67/1 الطراز 388/3/ التبيان في علم البيان ص 194 ، 195

169) التسهيل لعلوم القرآن 14/1

170) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص : 69

171) الطراز 403/3

والفكرة والأسلوب في الإنتاج الأدبي والفني صورتان ملتحمتان لا تنفصلان وهنا تبرز أهمية القسم الأول والثاني معا .

ز ــ نظـــرية النظـــم :

بعد عرض الآراء المختلفة في اعجاز القرآن، ومن ضمنها القول بالنظم ، أعرض هنا نظرية النظم كاعجاز قرآني :

إن أول كتاب وسم « بنظم القرآن » ينسب للجاحظ (255هـ) ، وقد ألفه الجاحظ للفتح ابن خاقان ، فلم يلق قبولا في نفسه ، وقد نص على ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان بقوله : « ... وعبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه (172) .. »

وقلده في ذلك أبو بكر السجستاني (316هـ) وأبو زيد البلخي (322هـ)، وأبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن الأخشيد المعتزلي (326هـ) ، وكل هذه الكتب مفقودة (173). والجاحظ كرجل اعتزالي التفكير، واحد اساطين البيان العربي الكبار ، أسهم في ابراز وجه الاعجاز في القرآن بتوضيح الصور البيانية ، ومعالم الجمال الفني فيه .

وكتابه في «نظم القرآن» السابق ذكره، لم يصل الينا، وانتقده الباقلاني بقوله : « وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا ، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى (174)». ويبدو كما يشير الأستاذ الرافعي (175)، والسيد أحمد صقر (176)، ان الباقلاني لم ينصف الجاحظ في « نظمه » . وما دام كتاب الجاحظ مفقودا ، فمن العسير الحكم عليه ، وان كان من اليسير أن نعطي حكما عاما على رأي الجاحظ في نظم القرآن كمعجز، من خلال الصور البيانية ، التي أبرزها في كتابيه «البيان والتبيين» و« الحيوان »، وبعض الكتب القديمة التي تشير إلى رأي الجاحظ في الإعجاز ، وحديثه عن اعجاز القرآن في رسالته «حجج النبوة ».

ولست في حاجة الآن إلى تفصيل رأيه، فالجاحظ من القائلين بالنظم، واحيانا

172) البرهان 106/2
173) الحيوان 9/2
174 اعجاز القرآن للباقلاني ص 10 (من مقدمة المحقق السيد أحمد صقر)
175) اعجاز القرآن للباقلاني ص :
176) تاريخ آداب العرب 132/2

بالصرفة (177) ، ولربما قوله بالصرفة ــ على حسب ظني ــ من باب الاستسلام لسحر القرآن ، وقوة بيانه ، وعجزه عن الإفصاح بذلك ، وهي حال يصل إليها كثير من كبار العلماء عند ادراك حلاوة القرآن ، وسحره ، وإعجازه عن طريق الذوق الشخصي امثال الرماني (178) ، القائل بالصرفة والنظم والإخبار بالأمور الغيبية ، والخفاجي (179) القائل بالصرفة والنظم مع البلاغة والفصاحة . والاصبهاني (180) القائل بالصرفة والنظم مع البلاغة والفصاحة. أقول هذا ، اعتمادا على أن موجب الصرفة هو تأثير القرآن في نفوس منكري اعجازه ، وأن جنون التحدي في نكران الإعجاز البياني للقرآن الكريم دفع النظام ومن تبعه إلى إيجاد صيغة يخلعونها على مذهبهم ، فكان القول بالصرفة . وهذا في رأيي إقرار ضمني لمنكري الإعجاز بقوة أثر القرآن وسحر بيانه وإعجازه، من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وكان الجاحظ يختلف عن أستاذه النظام المنكر لنظم القرآن كمعجز ، والقائل بالصرفة . يقول النظام : « الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب . فاما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز احدثهما فيهم (181) » وقد رد على أهل الصرفة الباقلاني (182) ، والجرجاني (183) ، والزملكاني (184) والعلوي (185)، وغيرهم كثيرون ...

وابن قتيبة يشارك الجاحظ ، ويقول بالإعجاز البياني المعتمد على النظم والتأليف لاثارة الوجدان، وبعث الحركة والنشاط الفكري والنفسي (186) ولعل نظرة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » يدرك المرء منها وجهة نظره في اعجاز القرآن، والتي يمثلها في تأليفه ونظمه، وقد نوه بذلك عند تمجيده للقرآن بقوله : « وقطع منه بمعجز التأليف اطماع الكائدين ، وابان بعجيب النظم

177) مقدمة المحقق لاعجاز القرآن للباقلاني ص : 8
178) تاريخ فكرة الإعجاز في القرآن ص : 53
179) المصدر نفسه ص : 61
180) تاريخ فكرة إعجاز القرآن ص: 61
181) المصدر نفسه ص : 110
182) مقالات الاسلاميين 215/1
183) اعجاز القرآن للباقلاني ص : 42 وما بعدها
184) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص : 134 وما بعدها
185) التبيان في علم البيان ص : 195
186) الطراز 3/ 391

عن حيل المتكلفين (187) »، ولكن الذي يعطي هذه الظاهرة وضوحها هو تحليله لآي القرآن ، الذي يعتمد فيه على عمق الدلالة الحسية لمفردات القرآن ، وابراز الجوانب البيانية والفنية من خلال التحليل ، واعتماده على أسلوب أدبي شائق في العرض ، كل هذا يعكس الطابع العام لعقلية ابن قتيبة التي انطبعت بالادراك الواعي والذوق السليم لفن البيان العربي والإعجاز القرآني .

والرماني يؤكد في كتابه « النكت في اعجاز القرآن » على حسن التأليف وانتظام الكلام (188)، وان اسمى مراتب البلاغة معجز ، وهذه المرتبة يحتلها القرآن (189) . ويوضح الرماني سبب ذلك بقوله: « وحسن البيان في الكلام على مراتب ، فأعلاها مرتبة ما جمع اسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم ، حتى يحسن في السمع ، ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة (190) » .

ويعرف البلاغة بقوله: «وانما البلاغة ايصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة في اللفظ (191) »، وأحسن صورة من اللفظ يحققها النظم بالدقة في الاختيار والوضع والاداء ، والإحكام بين اجزائها ، وتعلق المفردات بعضها تعلق المعاني بمشاعر وحاجات النفس . وهذا التعريف يربط الجانب الفني والنفسي ، إذ الغاية من حسن النظم الأثر على النفس .

والرماني عندما يتحدث عن التشبيه، يرى أن حسنه في القرآن « يتضمن حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة (192) ». ويعرف التشبيه البليغ بانه: «إخراج الأغمض إلى الأظهر ، بأداة التشبيه مع حسن التأليف (193) » . فحسن التأليف والتركيب يشغل تفكير الرماني ، وبه تحصل البلاغة ، ولكن الرماني وهو يؤكد على البلاغة ، وانها تحصل عن طريق حسن النظم ، يقول أيضا بالصرفة . ففي حديثه عن الصرفة ، قال

187) أثر القرآن في تطور النقد العربي : ص : 105
188) تأويل مشكل القرآن . ص : 3
189) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ص : 72
190) المصدر نفسه ص : 69
191) المصدر نفسه ص : 98
192) المصدر نفسه ص : 69
193) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . ص : 76

« وهذا عندنا أحد وجوه الاعجاز التي يظهر منها للعقول(194) ». ووجوه اعجاز القرآن عند الرماني تظهر من سبع جهات : « ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والاخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة (195) » . وفي حديثه عن نقض العادة يرى أن اسلوب القرآن يمتاز في نظمه عما كان سائدا في الجاهلية يقول الرماني: «واما نقض العادة ، فان العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة (196)». والخطابي يرى أن نظم القرآن اكتمل في كلامه تعالى، اذ جمع السهولة والجزالة والمتانة : « حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من الفاظه ، ولا ترى نظما احسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه (197) » . « واعلم أن القرآن انما صار معجزا، لانه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا احسن المعاني... (198) » .

فجزالة الالفاظ ، ومتانة النظم وقوة سبكه واتساقه ، ووفرة المعاني توفرت كلها في القرآن مجتمعة ، وهي في غيره لا تجتمع ، ومثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها ، حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته في شكله (199) » .

أما الباقلاني فانه يرى نظم القرآن الصفة المميزة له عن سائر كلام البشر، وانها جلية في كل آي القرآن ، ولا يعادلها شيء من بلاغة الجن والانس « ونظم القرآن جنس متميز ، وأسلوب متخصص ، وقبيل عن النظير متخلص(200)»

والعقول تحار أمام نظم القرآن، وتضل الطريق في الهداية إلى كنهه. « فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه، فان العقول تتيه في جهته، وتحار

194) المصدر نفسه ص : 75
195) المصدر نفسه ص : 101
196) المصدر نفسه ص : 68
197) المصدر نفسه ص : 102
198) المصدر نفسه 105
199) المصدر نفسه ص : 24
200) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص : 25

في بحره، وتضل دون وصفه (201) »، وهذا النظم في نظر الباقلاني لا يتفاوت بل هو وحدة متكاملة في كل القرآن ، حتى آياته التشريعية التي عادة ما تخلو من الصور البيانية والفنية؛ «ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه وفي فصله وافتتاحه واختتامه ، وفي كل نهج يسلكه ، وطريق يأخذ فيه ، وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤمه ، على ما وصفه الله تعالى به — لا يتفاوت ... ولا يخرج عن تشابهه وتماثله (202) ».

ومن خلال هذا النص نرى أن النظم عند الباقلاني لا ينحصر في حسن تأليف العبارة بل اعم وأوسع من ذلك ، اذ يشمل الصيغة ، والإحكام في الأداء وحسن النسق ، والاتساق في الصور وبين آي القرآن ، وبذلك يتسع فهم الباقلاني لنظم القرآن ، ويختلف عن الجاحظ ، وابن قتيبة ، والخطابي ، والرماني .

ويؤكد الباقلاني عدم التفاوت في نظم القرآن، وينص بان النظم في كل اغراض القرآن ، وفنون القول فيه ، وفي كل وسائل التعبير — غير متفاوت : «ان عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها (203)» .

وهكذا فان الباقلاني بعد تأمله ودراسته للقرآن، وبعد فحصه لكلام العرب، وتعابير القرآن وأسلوبه ، يعرض علينا نتيجة ما وصل إليه بقوله: «وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد ولا يختلف (204) » .

وأختم حديثي عن نظرة الباقلاني لنظم القرآن، وبلاغته، وإعجازه بقوله: « ان نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن ، كما يخرج عن عادة كلام الانس (205) » .

هذا عرض موجز لفكرة النظم عند الجاحظ، وابن قتيبة، والرماني ،

---

201) إعجاز القرآن للباقلاني ص : 243

202) المصدر نفسه ص : 279

203) المصدر نفسه ص: 314

204) المصدر نفسه ص : 54

205) اعجاز القرآن للباقلاني ص : 55 ، 56

والخطابي ، والباقلاني ، ويعد الباقلاني بالنسبة إليهم جميعا أوسع إدراكا لنظم القرآن ، وأشمل احاطة لبلاغته واعجازه ، فلقد نشأ في عصر ترعرعت فيه العلوم البلاغية، واتخذت الدراسات الاعجازية صفة علم قائم بذاته، وانفصلت عن التفسير ، وقامت دراسات خاصة مستقلة يبحث اعجاز القرآن وأسهمت هذه الدراسات في وضع القواعد والأصول ، وتحديد ماهية اعجاز القرآن وبلاغته ... ومع أن الباقلاني — قد تميزت دراساته للاعجاز عن الذين بحثوا النظم في القرآن — فان عبد القاهر الجرجاني يحتل الطليعة في هذا الميدان ، فنظرية النظم كأساس لدراسة القرآن من جوانبه الفنية ، ومظاهره وأسسه النفسية ، أخذت حظها عند عبد القاهر الجرجاني ، واكتملت على يديه ، حيث ان النظرية اصبحت تنسب اليه. وحق لعبد القاهر مثل هذا الافتخار ، فهو الذي أخرج الدراسات القرآنية في ميدان الإعجاز ، والبلاغة العربية ، إلى الاحتكام إلى الحس الفني والذوق العربي الأصيل .

ان للنظم — في نظر عبد القاهر — معنيين : لغوي وفني .

فاللغوي هو «ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق 206» ويسميه أيضا بالنظم في الحروف ، وهو التوالي في النطق دون مراعاة ما يرسم بمقتضى العقل الذي يتطلب التحري في النظم (207) .

والفني ويسميه بنظم الكلم ، وهو غير المفهوم اللغوي ، وحقيقته : « انك تقتفي في نظمها (أي الكلم) آثار المعاني ، وفي ترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس (207) » .أي التناسق في الدلالة، والتلاقي في المعاني ، على الوجه الذي يقتضيه العقل. وهو تعريف يعكس الصلة المتينة بين المعنى وترتيبه في النفس ، بحيث يمكن أن نقول : ان النظم عند عبد القاهر يشمل في إطاره العام الجانب الفني والنفسي معا . وهو بهذا يقر مبدأ « الكلمة صوت النفس» . ويؤكد هذا قوله : « إذا تغير النظم فلا بد حينئذ أن يتغير المعنى (208) » . ولزيادة الايضاح نعرض تعريفه للنظم في مقدمة كتابه « دلائل الاعجاز» ، وهو أن النظم : «ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض (209) » . انه التناسق في المعنى حسب ما يقتضيه

---

206) المصدر نفسه ص : 57

207) دلائل الإعجاز ص : 35

208) دلائل الإعجاز ص : 35

209) المصدر نفسه ص : 175

العقل والنفس، وانفساح المجال للكلام، ليستوعب ويعرض الصور الفنية، ومعالم جمال التعبير ، في أحسن وأدق أسلوب .

وللنظم صلة بالنحو، وعبد القاهر يحمل على الذين اساؤوا فهم النحو بمفهومه البلاغي ، واعتبر اساءتهم « اشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه (210)» ويعلل كلامه هذا بقوله: وذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه(210) » ، أي ان النحو دعامة الكلام العربي ، وهو «في الكلام كالملح في الطعام (211)». وعبد القاهر لا يقف عند حد هذا المفهوم للنحو ، بل يصوغه في مفهوم بلاغي فني : «وأمر النظم في أن ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم ، وانك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الالفاظ في نطقك (212)» . يقول الدكتور مصطفى ناصف «وعبد القاهر يستنبت المعاني البلاغية في حقول النحو (213)» . وهذه النظرة اعطت علم النحو شيئا من الجلال ، لانه العمود الفقري للكلام العربي ، واكتسب هذا الاجلال ايضا لنشأته في كنف القرآن . وللنحو صلة بالميتافيزيقا من حيث عمقه وفلسفته، «وإذا درسنا دراسة فلسفية، وجدناه (اى النحو) من أشد ضروب الميتافيزيقا عمقا . لان النحو عندما يظهر تركيب الكلام، انما يظهر تركيب الفكر، وطريقة تسلسل المقولات التي عن طريقها تفهم العالم (214)» .

وهذا التحليل لعملية النحو ، يتفق في ابعاده ، ومحتواه مع نظرة عبد القاهر الجرجاني . ان النظم عند عبد القاهر الوسيلة الوحيدة لتقييم العبارة والكلام عامة ، فليس للفظة مزية من حيث هي لفظة ، ولا للمعنى من حيث هو معنى وإنما العبارة التي تضم اللفظ والمعنى ، ويحكمها وينسقها النظم بمفهومه الفني والنفسي ، وبالنظم لا غير ، يكون للمعنى الأثر في النفس ؛ ويختلف هذا المعنى قوة وضعفا . على حسب قوة النظم وضعفه ؛ ولا يكون لاحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها (215)». فالمعنى في قولك: «ان زيدا كالأسد» اقوى اثرا على النفس من قولك: «زيد كالأسد» .

210) دلائل الإعجاز ص :
211) المصدر نفسه : 21
212) أسرار البلاغة : ص : 50
213) دلائل الإعجاز : ص : 295
214) حوليات كلية الآداب. جامعة عين شمس. المجلد الثالث. يناير 1955 «موضوع المقال: النظم في دلائل الإعجاز» ص : 32
215) الإحساس بالجمال : ص : 190

إنه يعطي تعلق المعاني – بعضها ببعض في تناسق يحسن نظم – الاهمية الكبرى في التعبير الفني ؛ و « ذلك لانه ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة ان المعنى في ضم بعضها إلى بعض ، تعليق بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، لا ان ينطق ببعضها في اثر بعض من غير أن يكون فيما بينهما تعلق ، ويعلم كذلك ضرورة – اذا فكر – ان التعلق يكون فيما بين معانيها لا فيما بينها انفسها (216) » .

ويشبه الجرجاني الكلم المفردة بالفضة والذهب، وان الفضة والذهب لا تعطيان سوارا أو خاتما إلا بعد عملية سبك وتعديل في الصورة ، فكذلك الكلم المفردة؟ التي هي عبارة عن أسماء ، وأفعال ، وحروف ، لا تكون كلاما أو شعرا من غير أن يحدث فيها النظم (217) ، الذي «هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله ، وليست معاني النحو معاني الالفاظ ، فيتصور أن يكون لها تفسير (218)». والنظم في بعض جوانبه يؤدي الإحكام والدقة في الأداء ليكون للكلام أثره و استيلاؤه على النفس. ويوضح ذلك عبد القاهر في أنه لا يتحقق «غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به واكشف عنه واتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية (219) » .

بالنظم ليس غيره ، يتمثل اعجاز القرآن عند عبد القاهر ، ويشهد بان جل العلماء عظموا شأن النظم ، واعطوه قدره وأهميته . « وقد علمت اطباق العلماء على تعظيم شأن النظم ، وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، واجماعهم أن لا فضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام اذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ (220) » .

ويتضح بعد كل هذا ، أن الجرجاني اقام ظاهرة النظم على أساس فكرة ذات نظرية فلسفية في ميدان التعبير الفني ، وانها المقياس للجودة والتقويم وقد اختلف بذلك عن سابقيه ، فهم تحدثوا عن النظم كشيء ملموس في عبارة القرآن دون ابراز حقيقة النظم كفكرة ونظرية ذات معالم واضحة .

وبهذا أنهي هذا الفصل منوها بان نظرية النظم لفتت نظر مفكرينا قديما وحديثا ، لما لها من أهمية في مجال التعبير والتصوير الفني .

216) دلائل الإعجاز : ص : 169
217) دلائل الإعجاز : ص : 302
218) المصدر نفسه : ص 315
219) دلائل الاعجاز ص : 293 — 220) المصدر نفسه ص : 30 ، 31.

الفصل الثاني

لفظة القرآن

اللفظة لغة واصطلاحا :

جاء في لسان العرب (1) : « اللفظ : أن ترمي بشيء كان في فيك ، والفعل لفظ الشيء » والشيء الملفوظ يسمى لفاظة .

ونسبت هذه الكلمة إلى الأرض والبحر والحيوان والرحى ...

ويبدو أن المعنى الحسي آت – كما جاء في لسان العرب – من : « والأرض تلفظ الميت إذا لم تقبله ورمت به »

وفي الحديث: وَيَبْقَى فِي كُلِّ أَرْضٍ شِرَارُ أَهْلِهَا تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوهُمْ ، أي تَقْذِفُهُمْ وَتَرْمِيهِمْ ، من لفظ الشيء إذا رماه .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها : فقاءت أكلها ولفظت خبيئها ، أي أظهرت ما كان قد اختبأ فيها من النبات وغيره .

ثم استعملت بعد ذلك للكلام . جاء في لسان العرب : «لفظ بالشيء يلفظ لفظا تكلم . ولفظت بالكلام وتلفظت به أي تكلمت به.»

ويمكن أن نقول مستوحين المعنى مما تقدم : أن الشيء الملفوظ والمجسم في حروف منتظمة ذات معنى ؛ هو ما يسمى باللفظة في الاصطلاح الأدبي ، وذلك لأن اللفظة تجسد معاني النفس بإخراجها من مشاعر النفس واطار الذهن ، وهي في حد ذاتها تعد مادة العبارة.

لقد اهتم العرب بالالفاظ ، ووضعوا لها شروطا ، وما يجب أن يتوفر فيها ، لتقوم بتأدية المعنى كاملا ، وبرشاقة ووقع على النفس . يقول ابن جني: « اعلم أنه لما كانت الالفاظ للمعاني أزمة ، وعليها أدلة ، وإليها موصلة ، وعلى المراد منها محصلة ، عنيت العرب بها ، فأولتها صورا صالحا من تثقيفها وإصلاحها(2)» ، وذلك لأن الألفاظ في العمل الأدبي ، تحتل المكانة الاولى ، لتسهم داخل العبارة بنقل الأفكار و المشاعر والأحاسيس .

---

1) لسان العرب: مادة لفظ

2) الخصائص : 312/1

إن الفكرة بحاجة إلى تجسيم ، وتجسيمها يتم عن طريق الألفاظ ، «فالفكر اتصال ، وكل اتصال ينطوي على الاختلاط ، فلكي يصبح الفكر متميزا ، لا بد له أن يتناثر في كلمات ، فنحن لا نحيط بما يدور في فكرنا إلا حين نعمد إلى ورقة ، فنرصف عليها حدودا كانت متداخلة بعضها في بعض(3)» .

واهتمام العرب بالالفاظ ، جعلهم يهتمون بالمعاني ، لان قوة الالفاظ تتطلب قوة في المعانـي ، وقد خصص ابن جني في خصائصه بابا في قوة اللفظ لقوة المعنى (4)، ونعته بقوله : «هذا فصل في العربية حسن (4)». ولذلك ذهب ابن رشيق إلى : « أن اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته (5)» .

قال حكيم الهند: «واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا(6)». وهذا الاهتمام عند العرب يتعدى الصورة الشكلية للالفاظ ، ويتجاوزها إلى مدى أثرها في النفس ، وهذا يعكس نوعية العقل العربي ، فان العرب يضعون كلامهم لتلقاه الاسماع ويجد في النفس منفذه ، فيكون له تأثير ووقع ملموس . يقول القلقشندي: «ولما كانت الالفاظ عنوان المعاني ، وطريقها إلى اظهار اغراضها ، أصلحوها وزينوها ، وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد (7) » .

واللفظة في اللغة العربية تشع بالحياة اذا استعملها عقل خبير بفن القول ، وفنون الأساليب الأدبية ، ومدرك لدقة وضعها ، وما يناسبها من معنى ، ويشاكلها من دقة في الدلالة ؛ «وللمعاني ألفاظ تشاكلها، فتحسن فيها، وتقبح في غيرها ، فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض . وكم من معنى حسن قد شين لمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه(8)»، وكذلك ماتحمله اللفظة من إيحاء وإيقاع وجرس ونغم ، بحيث تحرك الوجدان، والخيال، والعقل، وتثير النفس ، فتوحي لها بصور حية متحركة ؛ «وان أسمى ما يصل

3) الطاقة الروحية ، ص : 19
4) الخصائص : 264/3
5) العمدة : 124/1
6) الصناعتين ، ص : 20
7) صبح الأعشى: 193/2
8) عيار الشعر ص : 8

إليه فن الأدب هو أن يجعل الايحاء اللفظي من القوة والسيطرة ، وبعد المدى والحيوية ، والدقة بمكان عظيم (9)» .

يقول الدكتور أحمد أحمد بدوي : «والأديب البليغ هو من يستنفد ما للالفاظ من معان، اضفاها عليها الزمان، فتثير في النفس أعمق الاحساسات، وتملأ الخيال بشتى الصور (10)» .

ان ما تملكه اللفظة من قوة في الإيحاء والتصوير ، والتشخيص ، لا تأخذ مجراها الطبيعي ، إلا إذا كانت في يد فنان ، يمتاز عن غيره بالاحساس اللفظي ، ويفوق مدارك الآخرين ومشاعرهم فيصوغ اللفظة بدقة ، وكلها إيحاء وحياة .

هذا وقد اشترط العرب في اللفظة شروطا ، تحسن بها إن توفرت فيها ، وتقبح إن خلت منها . وهذه الشروط مستخرجة من كلام العرب نثرا وشعرا نجدها مبثوثة في كتب البيان والبلاغة والنقد .

إن اللفظة العربية تعد الصورة الحية لدقة التعبير عن دقائق حاجات العرب ، وشدة اهتمامهم بتسمية ما يعن لهم ، وما تبديه ملاحظاتهم ، وتقع عليه نظراتهم وهي تتحلى بدقة تبعا لدقة التعبير ، ولهذه الدقة أهمية في التقدم الفكري والعلمي : « إن دقة التعبير والتخصيص سبيلٌ من سُبُل تكوين الفكر العلمي الواضح المحدد ، تحتاج إليه كل أمة في تربية أبنائها على التفكير الواضح الدقيق الذي يعدهم للعمل والبحث العلمي (11)».

ان هذه الدقة تتم في العبارة بعد دقة في الاختيار ، ودقة في الوضع . والاختيار هو قطعة من عقل صاحبه «وقالوا شعر الرجل قطعة من كلامه وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله(12) ». ولا بد لهذا الاختيار من حسن في الرصف، وهو «أن توضع الالفاظ في مواضعها، وتمكن في اماكنها(13)»، بحيث لا يحصل في الجملة خلل ، فيقدم ما حقه التأخير ، ويؤخر ما حقه التقديم ، ولذلك نص أبو هلال العسكري على حسن الترتيب : «وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فيقدم منها ما كان يحسن تقديمه ، وتؤخر

9) قواعد النقد الأدبي : ص : 38
10) من بلاغة القرآن . ص : 6
11) خصائص العربية . ص : 53.
12) البيان والتبيين . 77/1
13) الصناعتين . ص : 161

منها ما يحسن تأخيره، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق(14)». ان مثل هذا الترتيب لا بد أن يتبع ترتيب المعنى في النفس، ليتجنب التكلف والتعسف. يقول ابن أبي الأصبع المصري: «وليكن كلامك سليما من التكلف، بريئا من التعسف، وليحط لفظك بمعناك، وتشمل عبارتك على مغزاك (15)». وقد استحسن الجاحظ قولة لمحمد بن عباس، معقبا عليها بقوله: «وهذا كلام شريف نافع احفظوا لفظه وتدبروا معناه (16)». ولاهمية هذه القولة اسجلها كاملة: «قالوا، وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال: إني لاكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار عمله، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله (16)»، وهذا يستدعي أن تقد اللفظة على قد المعنى، لا اطناب حين يدعو الايجاز ولا العكس.

ولا بد أن تنبع الكلمة من القلب لتكون صورة حية في التعبير عما يعتلج في النفس، وتجد قبولا في الاسماع والنفوس. قال عامر بن عبد قيس: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (17)».

ومما اشترطه أبو هلال العسكري في اللفظة السلامة والسهولة والنصاعة وتخير اللفظ(18) وأضاف قدامة بن جعفر السماحة وسهولة مخارج الحروف من مواضعها والاتسام برونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة (19). وزاد عبد الحميد الكاتب صفة الفحولة: «وخير الكلام ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا (20)».

ولهذا كله كان العرب إذا تفاضلوا، فمقياس الجودة والابتذال يكاد ينحصر في الألفاظ والمعاني؛ «وكان العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته (21)».

14) الصناعتين. ص: 151
15) تحرير التحبير. ص 420
16) البيان والتبيين 85/1
17) المصدر نفسه: 83/1، 84
18) الصناعتين. ص: 55
19) نقد الشعر. ص: 10
20) وفيات الأعيان 395/2
21) الوساطة. ص: 33

وللفظة عيوب، يجب تجنبها، كتنافر الألفاظ (22) الذي يعد عند أبي هلال العسكري من أكبر عيوب الكلام، والمعاظلة (23)، واللحن على غير سبيل الاعراب واللغة وحوشي الكلام (24).

لقد اشترط العرب كل هذه الشروط لتكون اللفظة واضحة المعنى، خالية من التعقيد فتجد ـ بسهولة ـ منفذها إلى النفس، وتحتل منها مركز الأعصاب والإحساس والوجدان. وينطبق على هذا ماقاله الجاحظ: «فاذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة (25)». ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن لفظة القرآن وخصائصها أن ننوه بجهود ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة»، الذي عقد فيه فصولا حول شروط الكلمة المفردة، مستقلة وداخل العبارة، والشروط التي يجب توفرها في تأليف العبارة، والذي يهمنا في هذه العجالة هو عرض الشروط التي اشترطها في الكلمة المفردة وإن كان بعضها قد سبق ذكره. هذه الشروط هي:

1) أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج (26).
2) أن يلمس في تأليف اللفظة في السمع حسن وذوق فني (27).
3) أن لا تكون الكلمة متوعرة وخشنه (28).
4) أن لا تكون الكلمة ساقطة عامية (29).
5) أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذه (30).
6) أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره (31).
7) أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف (32).

22) الصناعتين: ص: 142
23) نقد الشعر: ص: 103 ـ المعاظلة: مداخلة الشيء في الشيء
24) نقد الشعر. ص: 100
25) البيان والتبيين. 83/1
26) سر الفصاحة ص: 66
27) المصدر نفسه ص 67
28) المصدر نفسه ص: 69
29) المصدر نفسه ص: 78
30) المصدر نفسه ص: 82
31) المصدر نفسه ص: 92
32) المصدر نفسه ص: 95

8) أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف، أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك (33).

هذه نبذة موجزة حول اهتمام العرب بالألفاظ وشروطهم لها. أما عن لفظة القرآن ومعالم جمالها وحسنها وفنها، فانها لا تقتصر على كل المحاسن التي ذكرتها، بل تعداها إلى الإعجاز، إذ ليست هي في حد ذاتها كأي لفظة أخرى في الكلام العربي، لان ما تتميز به – وهو ما سأذكره بعد قليل – تحتل القرآن كله، كمعجم تركيبي للغة العرب، وهذا لا يتوفر في الانتاج البشري حتى في مقال واحد. كذلك فان هذه السمة لا تخص اللفظة فقط، بل تتجاوزها إلى العبارة.

ان دارس لفظة القرآن يلمس روعة ما فيها من الجمال والفن، وصورة الابداع التي تشع منها، وظلال المشاهد الحية، وقوة الحركة فيها، ومقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان والمخيلة، ومدى اثارتها وتأثيرها على النفس، وفتح الآفاق، لتحل اللفظة محل ريشة رسام مبدع، فتصور بالألوان والخطوط وتنقش فيها الحياة، ليعيش الدارس على أرض خصبة تموج بالحركة وبالإثارة وبالتصوير المتنوع.

لقد اتسمت بذلك لفظة القرآن، لانها تميزت بخصائص معجزة، لا تتوفر للعمل الأدبي، مهما ملك صاحبه من مواهب فطرية، و نبوغ خلاق.. ولا يدرك حقيقة ذلك، الا من تفرغ لدراسة القرآن، ووهب نفسه لمعرفة معالم إعجازه، وسخر وقته لتعقب ذلك الإبداع والجمال الفني الذي يتسم به القرآن.

ولست بذاكر كل ما احتواه القرآن من قيم فنية جمالية، لأنها أوسع من أن يحاط بها، وانها تبدو جديدة، وأكثر خصوبة وثراء في كل مرة يرجع إليها؛ وكلما ازداد الدارس علما ومعرفة واطلاعا ودراية في ممارسة البحوث ازداد ادراكا وثباتا لاستخراج بعض ما فيه من اسرار.

ان أولى خصائص اللفظة القرآنية الدقة في وضعها، واختيارها، وفي الوصف والمعنى والتناسق.

أ – الدقة في الوضع :

ان الدقة في الوضع تعني احتلال اللفظة القرآنية موضعها في الجملة، لا تقديم ولا تأخير كأنها خلقت لذلك خلقا. انك إذا طالعت جملة قرآنية،

33) المصدر نفسه ص : 97

ودققت في مفرداتها، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها أو تنبو عن موضعها أو لا تعيش مع أخواتها؛ حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني عن لفظ أو أن تزيد فيها شيئا، وصار قصارى أمرك، إذا أردت معارضة جملة من القرآن أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق إليه لاداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها – وهي بحر خضم – لتؤدي به تلك المعاني غير ما أختاره القرآن لهذا الأداء(34)»

والغاية من دقة الوضع، هي الدقة في الوضوح، لتكون جلية أمام الأبصار ولتحدد الذهن تحديدا يستوعب المعنى المقصود، دون زيادة أو تقصير ولتحل في النفس مكانتها، فتسري في مساربها الحساسة، وتلج القلوب فتمتزج وتترجم، فيتلقفها الضمير، ويلتحمان في وحدة تامة. يقول تعالى: «إنا أنزلنا عليك الكتابَ للناسِ بالحقِّ، فمَن اهتدى فلنفسِه، ومَن ضلَّ فإنّما يَضِلُّ عليها، وما أنتَ عليهم بوكيل (35)». ان لفظة (بالحقّ) التي هي من أصل يدل على إحكام الشيء وصحته فالحق نقيض الباطل ويقال حق الشيء وجب (36) لتضع القارىء امام منفذ واحد، وكأنه محاط بسدود منيعة، بعيدة عن الزيغ والباطل. ويزيد هذا المعنى وضوحا وثباتا قوله تعالى: «فمن اهتدى فلنفسه ... الاية»، انها وكأنها توحي لمحمد (ص) بأن سر! ان كتابك انزله الله الحق، ليمثل الحق، وكل نفس وما كسبت، ان اهتدت أو ضلت، وما أنت عليهم بوكيل، ان بالحق قوية في معناها، واضحة في هدفها لا يشوبها ضباب أو غموض.

اننا اذا تصورنا لحظة نزولها على الرسول الذي يحمل في نفسه قوة في الإيمان وصلابة في العقيدة، لاضفى علينا هذا التصور حالة نفسية الرسول وهي تهتز، جراء ما تحمله لفظة «الحق» من صلابة في الحق، تقابلها صلابة في العقيدة والمبدأ. ان سبب نزول آية قرآنية يسهم في ابراز دقة وضع اللفظة بصورة أوسع، إضافة إلى ما تحمله اللفظة من دقة في حد ذاتها، وهي بذلك تنقل النفس القارئة من حال عادية، إلى حال وجدانية روحية، تتصل بالخالق أو تقوم بهذه العملية ألفاظ دقيقة في وضعها، وضعت لا لتحل أخرى مكانها ولكن لتأخذ وضعها الطبيعي في الجملة. يقول تعالى: «وإذ جعل الذين كفروا

34) من بلاغة القرآن. ص : 105.
35) سورة الزمر. 39 : 41
36) معجم مقاييس اللغة 15/2

فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ ، فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ على رسولِه وعلى المؤمنين، وألزمَهُم كلمةَ التقوى، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها، وكان اللهُ بكل شيءٍ عليما (37)» . أورد الزمخشري سبب نزول هذه الآية، وهو: « ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية ، بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص ابن الأحنف على أن يعرضوا على النبيء صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل وأصحابه ما نعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم، ثم قال: اكتب: « هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولما قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة . فقال عليه الصلاة والسلام : اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله . فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا (38) » .

ان سبب نزول هذه الآية يعطي مفرداتها غزارة في المعنى ، وتحديدا لصورتها العامة فلفظة «السكينة» التي هي من سكن يدل على خلاف الاضطراب والحركة (39) ، والتي بمعنى الوقار والأمن والطمأنينة . تنسكب منها وداعة نفسية لتحل في قلب الرسول والمؤمنين ، فتسكن نفوسهم، وحق لها أن تسكن فمنزل السكينة هو خالقها ولذلك تحتل — بالضبط — موضعها لتأدية معناها العميق في نفس الرسول والمؤمنين . وتتم الدقة ، بتكرار « على » في قوله تعالى «... على رسوله وعلى المؤمنين» وكان في الإمكان الاستغناء عنها، الا أن ذكرها يفيد التأكيد والدقة في أداء المعنى بأن المؤمنين حقا هم نسخة من الرسول أنزل عليه السكينة، وعليهم هم بالتنصيص بالحرف «على». ويعقب السكينة تناسق عميق بين دلالة الالفاظ التي وضعت في أماكنها المخصصة لها داخل العبارة ؛ فالسكينة قد حلت في نفس الرسول والمؤمنين

37) سورة الفتح . 48 : 26

38) الكشاف : 344/4

39) كلمة التقوى : قيل أن معناها « بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله. وقيل هي الشهادة وعن الحسن رضي الله عنه : هي الوفاء بالعهد. وقيل كلمة أهل التقوى » ذكرت هكذا في الكشاف : 344/4 .

ومنزل السكينة هو الله ، ولذلك يتصرف فيهم كما يشاء ، فتأتي لفظة « ألزمهم » بدقة وضعها ، لتؤدي هذا المعنى ، وتستمد القوة من الملزم ، ويعطي التناسق العميق ابعاده ، فيوضح أن ما قام به الله من انزال السكينة وإلزام الرسول والمؤمنين كلمة التقوى (39) ، لم تكن محض الصدفة، بل « كانوا أحقّ بها وأهلَها » ان « أحق » و « أهل » تبعثان في نفس القارىء حقيقة الدقة في وضع كل منهما ، فالاولى تفيد الاستحقاق عن جدارة ، والثانية تفيد الخصوصية الملزمة ، وبذلك يتم التناسق ، ويؤدى المعنى بكل أمانة ودقة ، وان الرسول والمؤمنين يستحقون ما من الله به عليهم : «انهم كانوا احق بها واهلها» .

كذلك نلاحظ الدقة في تخصيص « الحمية » التي بمعنى « الأنفة بالقلوب » دون سائر أماكن النفس، وتمييز «الحمية» باضافتها إلى الجاهلية . انها دقة على غاية من الإعجاب، إذ تأخذ بها لفظة القرآن قوة ووضوحا في الاداء ، وتفتح آفاق النفس أمام أدق خفايا المعاني ، فيسرح العقل في مسرحها وتقبض العاطفة بدفء عميق ، كما يتضح من قوله تعالى : « إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (40) » إن «أخوة» لا يكفي أن تؤدي دورها من حيث دقة وضعها وأدائها، بل لتكون اشعاعا من الأخاء والتآلف للنفس البشرية، التي تفتقر إلى هذا النوع الحقيقي من الأواصر ؛ وقد كان الرسول على غاية من الإحساس اذ يقول: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه في البنيان، فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره (41)» . وان أداة الحصر «انما» تزيد في دقة وضع «أخوة» وضوحا وبيانا . هذه آيات ثلاث وضحت معالم اللفظة في القرآن ، أكتفي بها لانتقل إلى الدقة في الإختيار .

ب — الدقة في الاختيار :

واعني بذلك ان لفظة القرآن لا يمكن أن يستبدل بها لفظة أخرى، وانها مختارة من بين مجموعة من الألفاظ ، حتم عليها ذلك دقة معنى الجملة عامة ، وانها اتسمت بسمة خاصة كالسلاسة أو الجزالة أو الرشاقة أو غيرها من الصفات، مع ملاحظة الدقة في تحليها بذلك. يقول تعالى: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ (42)». قال الزمخشري: «فان قلت لم كنى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: وقد أفضى

40) سورة الحجرات 49 : 10

41) الكشاف 366/4 — القتار : ريح الشواء

42) البقرة 2 : 187

بعضكم إلى بعض ، فلما تغشاها، باشروهن، أو لامستم النساء، دخلتم بهن ، فاتوا حرثكم ، ومن قبل أن تمسوهن، فما استمتعتم بهن ، وتقربوهن ؟ قلت: استهجانا لما وجد منهم قبل الاباحة، كما سماه اختيانا لانفسهم (43)».

اختيرت هذه اللفظة — دون سائر الألفاظ التي ذكرها الزمخشري — لدقة مناسبتها للمعنى العام للآية . فالذي يناسب النفس وهي تهمس في أذن صاحبها بالاتصال باهله — يناسبها لفظ يحمل في مغزاه حقيقة هذه الهمسات ، وما تستحقه من صفات يخلعها عليه القرآن ، فكانت لفظة « الرفث التي هي من رفث : الراء والفاء والثاء أصل واحد، وهو كل كلام يستحيى من اظهاره وأصله من الرفث وهو النكاح... والرفث الفحش في الكلام يقال: أرفث ورفث (44) » . وهي كناية عن المضاجعة فكانت مختارة، وبها شيء من قبح الصفة كما يشير إلى ذلك الزمخشري . لكن هذا القبح آت من المعنى العام، لان لفظة « أحل » تشعر وكأنه في ليالي الصيام لا يسمح باتيان النساء ، ان دقة الاختيار في وضع لفظة الرفث ، مؤدية لهذا المعنى، لتكون جزلة مرنة . ولنأخذ قوله تعالى: «... أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ .. الآية(45)» ان «لا مستم» مختارة في هذه الجملة لجزالتها، ورقتها التي تناسب رقة ومرونة الملموس، واللمس كناية عن المضاجعة والوطء ، وهي تملك قوة خفية، تلمس بها نفس القارىء فتحرك المخيلة لتصور لحظات الملامسة ، بكل ما في «لا مستم» من رشاقة وجمال وحس نفسي عميق . واختلف في الملامسة هل تعني الجماع ، أو المباشرة والغمز باليد (46)، والأرجح الأول. قال أبو جعفر: «واولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله أو لامستم النساء الجماع دون غيره من معاني اللمس بصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قبّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ (47)».

إن اللفظة المختارة تسهم في أداء المعنى مصحوبة بقوة جرسها، ونوع صيغتها ، وما تملكه من ايحاء ، كقوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ... الآية (48) ان « لنبوئنهم»

43) الكشاف 230/1
44) معجم مقاييس اللغة 421/2
45) النساء 4 : 43
46) جامع البيان عن تأويل القرآن . 389/8 وما بعدها
47) المصدر نفسه 396/8
48) العنكبوت 29 : 58

بمعنى لننزلنهم، وقرىء لنثوينهم من الثواء وهو النزول للاقامة (49) . لقد اختيرت « لنبوئنهم » دون اللفظتين الاخريين، وان صيغتها وما فيها من تشديد وتأكيد باللام والنون، وما تحدثه من جرس، وضغط وثقل في النطق وعلى النفس ، وما توحي به من انه وكأن حقا على الله — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — أن يبوىء المؤمنين من الجنة غرفا، تؤكد دقة الاختيار ويزداد شدة الإيحاء بهذا المعنى بنون جمع المتكلم الذي هو الله مع لام ونون التأكيد المشددة . ويتفق مع هذه الآية آيات كثيرة ، اذكر منها اثنين ، الاولى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ(50)». ان جرس لندخلنهم يفيد ضغطا خفيفا ينتهي إلى سرعة مع تأكيد الدخول المعزز بلام ونون التوكيد المشددة، وإيحاء بان دخولهم — في الصالحين — مشوب بالترحاب والحفاوة لصلتها بلفظة الصالحين، « والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى انبياء الله (51) » . والثانية قوله تعالى : «وإن منكم لَيُبَطِّئَنَّ ... الآية » ان صيغة « ليبطئن » ونطقها وجرسها وتأكيدها باللام والنون المشددة تشير إلى دلالتها ، وتوحي إلى الأذهان صورة « البطء » وثقل مشيتها وحركاتها الخاصة : ارتفاع وانخفاض ، وقد أبدع سيد قطب في تحليلها بقوله «ولفظة ليبطئن مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها ، وهو يشدها شدا ، وانها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل في جرسها ... (52)» .

ان دقة اختيار اللفظة ترتكز على معنى الجملة عامة، لتسيطر على دقائقها وخصائص صفاتها ولتؤدى المعنى بصفة مختارة مقبولة في النفس . ان صفاتها المتعددة لتشع في الجملة نوعا خاصا من رونق العرض. فقوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (53)» يعرض لفظة « نعما » وهي بسيطة، جزلة وشيقة، تبعث الإطمئنان والراحة في نفس القارىء . إنها تستوحي كل هذه الصفات من المعنى العام للآية ، لتحل في مكانها الطبيعي كلفظة مختارة ودقيقة في هذا الاختيار .

49) الكشاف 461/3
50) العنكبوت . 29 : 9
51) الكشاف 443/3
52) في ظلال القرآن 41/7
53) النساء 4 : 58 .

ان صعوبة أو استحالة استبدال لفظة بأخرى في القرآن ، تؤكد الدقة ، وهي خاصية تعم القرآن كله بدون استثناء، اننا نلمس ذلك بوضوح في مجال تنوعها . فدقة الاختيار التي أوضحت بعض معالمها ، يزيدها وضوحا توالي الآيات في هذا الميدان. يقول تعالى: «يبتغون فضلا من الله ورضوانا(54)» . ان لفظة « يبتغون » المختارة بدل يبغون أو يريدون أويرجون أو يلتمسون ، تحمل نفسا يشع بتواضع النفس فيما تلتمسه من خالقها . ان الآية بفضل «يبتغون » تعرض لنا نفسا بسيطة ، مدينة لربها وفضله ، خانعة لجبروته وعظمته . ولذلك كانت لفظة « يبتغون » المختارة لنقل حقيقة روح ونفس الرسول وأصحابه . ان دقة الاختيار تشارك في ابراز المعنى بدقة وأمانة ، يقول تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (55)» . «ختم» بدل «طبع» كما ورد في الآية الآتية: « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون (56) » . في الأولى انقطاع من المعطوف المجرور إلى رفع غشاوة التي بمعنى الغطاء «من غشاه اذا غطاه (57)». وفي الثانية لم يكن بها انقطاع . في الأولى: ختم ، وفي الثانية طبع ، والدقة في التعبير تكمن في دقة معنى كل من الفعلين ، المتأتية من اختيار الجملة لكل منهما. وقد أورد العز بن عبد السلام تفسير الآية من حيث المعنى العام الذي نجد فيه لفتة وجيهة ، يقول: « ان القلوب لما كانت مجوفة اشبهت الاكياس ، فاستعير الختم والطبع والاكنة والبصر ليس مجوفا فكان الذي يناسبه غشاوة (58)» ، الا أن هذا التفسير لا يناسب والآية الثانية السالفة الذكر ، والتي تحل فيها «طبع» محل «ختم» ولا يقع بها انقطاع من المجرور إلى رفع غشاوة. وقد وردت لفظة « ختم وطبع » في معنى واحد، فقد ورد في لسان العرب مايلي: «قال أبو اسحاق معنى ختم وطبع في اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء كما قال جل وعلا : أم على قلوب اقفالها » .

إن الذي يخرجنا من هذا الاشكال هو ما أورده أبو عبيدة من قوله: « كذلك يطبع الله يقال للسيف إذا جرب وصدىء ، قد طبع السيف : وهو أشد الصدإ

54) الفتح 48 : 29

55) البقـرة 2 : 7

56) النحل 16 : 109

57) الكشاف 1 : 48

58) الفوائد في مشكل القرآن ص : 50

(59)». هذا المعنى الحسي للفظة « طبع » يأخذ معناه في قوله تعالى: « طبع الله على قلوبهم .. » أي وضع عليها الصديد ، فلم تع ولم تدرك ، ويشمل ضباب الصديد العيون ، فأعمتها بوضع غشاوة وغطاء عليها . وهنا تتجلى الدقة في معنى كل من « ختم وطبع » فختم تشعر بمعنى حسي ، وهو الاغلاق المحكم ، ويكون المعنى مثلما أشار إليه العز بن عبد السلام، وطبع تشعر بمعنى التغطية ، بحكم ما تحمله من صديد . ولذلك تأخذ كل من اللفظتين دقة في المعنى بحكم اختيارها ودقتها في هذا الاختيار. لقد وردت عدة آيات ، في بعضها « ختم » ، وفي بعضها الثاني « طبع » ومعرفة الدقة في المعنى ، تجسم دقة كل من اللفظتين، ويستعان في معرفة المعنى بالسياق . هذا عرض موجز عن دقة اختيار اللفظة القرآنية ، أنتقل بعدها إلى دقتها في الوصف.

ج – الدقة في الوصف :

إن الذي أعنيه بالدقة في الوصف ، ليس الصورة التي تنسجها اللفظة أو العبارة القرآنية ، فهذا يدخل في قوة التصوير ودقته في القرآن ، وسأتحدث عنه بعد قليل – وانما الذي أعنيه بدقة الوصف ، هو ما يعقبه القرآن على اللفظة ، بذكر صفة لها ، ليعطيها دقة في الوصف ، ويجسم معالم الدقة في معناها . والقرآن يصف الرسول وأصحابه بأنهم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، في قوله تعالى : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا (60) » ان ما تحمله لفظتا «اشداء» و«رحماء» من دقة في الوصف، وحس نفسي قوي تنقل نفسية أصحاب الرسول وعلاقة بعضهم البعض . فهم في ذلك رحماء بصيغة « فعلاء » ، وما تحمله لفظة « رحماء » من جرس قوي مملوء رحمة وتعاطفا وألفة وأخوة . وتنقل لفظة « أشداء » وهي تحمل نفسا شديدا في صيغتها وحروفها ونطقها ، وقوة في جرسها وصلابة في معناها – تنقل لنا في الوقت نفسه صورة حية لصلابة نفس الرسول واله حابة وشدة موقفهم الموحد أمام أعدائهم . إنهم « رحماء » و«أشداء»، طبيعيون في ذلك . ورد عن الحسن رضي الله عنه: بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ومن أبدانهم ان تمس أبدانهم وبلغ من تراحمهم فيما بينهم، أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه

59) مجاز القـرآن 125/2

60) الفتـح 48 : 3

وعاتقه (61). ان هذه الدقة في الوصف نابعة من واقع نفس الرسول وأصحابه، فهم لم يكونوا «رحماء واشداء» إلا بحق، وبحكم ما تقتضيه كلمة التقوى التي تجمع بين أرواحهم، وقوة صلتهم بربهم، تراهم ركعا سجدا «على وزن فعل، بدل راكعين وساجدين، فهم يكثرون من الركوع والسجود لخالقهم والراكع كما ورد في مجاز القرآن «هو العاثر من الدواب (62)». هذا المعنى الحسي للفظة «راكع» يعطي «لركّع وسجد» صفة التضحية للنفس في عبادة خالقها، فمن كثرة الركوع والسجود، يلتقي في معنى العثور بالمغزى العميق، فكأن بالرسول والصحابة داء العثور الناتج عن كثرة الركوع والسجود. وهذا كناية عن شدة حبهم للركوع والسجود لله.

وتختم الآية السالفة الذكر بقوله تعالى: «... وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مَغْفِرة وأجرا عظيما»، وصف الاجر بالعظمة، وفي آية أخرى بالكبر في قوله تعالى: «إلا الذين صَبَرُوا وعَمِلُوا الصالِحَات، أولئك لهم مغفرةٌ وأجْرٌ كبيرٌ (63)» وكل منهما يحمل في حد ذاته دقة في الوصف، ودقة فيما بينهما، يتناسب والمعنى العام. فعظمة الاجر تناسب العمل الضخم، وكبر الاجر تناسب أداء الواجب كواجب. وهو واضح في الآيتين السالفتين. ولزيادة الإيضاح نورد الآية الآتية، وهي قوله تعالى: «واعْلَمُوا أنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتْنَةٌ وأنَّ اللهَ عنده أجْرٌ عَظِيمٌ (64)» أي لا تشغلوا بأموالكم وأولادكم عن طاعة الله وعبادته، ففي هذا الأجر العظيم، وفي ذلك الفتنة والابتعاد عن الحق. فالتنويه بعظمة الأجر في الآية يتناسب وما سبقه — ان انشغلوا بطاعة الله عن فتنة الأموال والأولاد. ان دقة الوصف التي تشع من «عظيم» و«كبير» تحتاج إلى دقة في التروي، وفي فهم عمق الآية. إنه قرآن وليس بكلام بشري اعتيادي. ويؤكد الفرق بين عظيم وكبير ما أورده الزمخشري بقوله «والفرق بين العظيم والكبير أن العظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير. فكأن العظيم فوق الكبير، كما أن الحقير دون الصغير، ويستعملان في الجثث والأحداث (65)». وهذا الفرق اللغوي بين اللفظتين يأخذ معناه الموضع الواضح على حسب ما يقتضيه المعنى العام للآية.

---

61) الكشاف 346/4
62) مجاز القرآن 54/1
63) هود 11 : 11
64) الأنفال 8 : 38
65) الكشاف 53/1

ان في دقة الوصف تقريب المعاني القرآنية إلى مداركنا البشرية القاصرة بالأوصاف الحسية، كما في قوله تعالى «... وإنْ مَسَّهُ الشرّ فذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (66)». فعريض لفظة حسية. جاء في لسان العرب: «والعرض خلاف الطول ... وقوله تعالى «فذو دعاء عريض»، أي واسع وإن كان العرض إنما يقع في الأجسام، والدعاء ليس بجسم (67)». اذن ان الدعاء لا يوصف بعريض، وقد تقوم مقامه ألفاظ أخرى كواسع وكثير (68) مثلا. الا أن وصف الدعاء بعريض يفيد دقة في الوصف، وصورة عريضة موسعة للانسان الذي يمسه الشر، فيلجأ إلى خالقه متضرعا، راجيا رحمته. وبذلك يمس نفوسنا ووجداننا من أوسع منافذها. وكذلك قوله تعالى: «وأخَذْنَ مِنكُم ميثاقاً غَلِيظاً (69)». «فغليظ» لفظة حسية توصف بها المدلولات الحسية. جاء في لسان العرب: «وأرض غليظة غير سهلة. والغلظ من الأرض الصلب من غير حجارة. والغلظ ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك (70)». ومعنى «الميثاق الغليظ: حق الصحبة والمضاجعة كأنه قيل: وأخذن منكم ميثاقا غليظا: أي بافضاء بعضكم إلى بعض. ووصفه بالغلظ لقوته وعظمته؛ فقد قالوا صحبة عشرين يوما قرابة، فكيف بما يجري بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج (71)». ولعل المدلول الحسي الذي تشير إليه لفظة «غليظ» بما فيها من قوة في الجرس وثقل في النطق، حيث يكاد اللسان يخرق مقدم الاسنان — يعرض نظرة القرآن — بعمق — إلى ضخامة صلة الزوجين، واهتمامه بتوطيد هذه الصلة عن طريق التنويه بقيمتها.

وتتصل دقة الوصف أيضا بالمعاني النفسية، لتعرضها حية، فتستجيب لها النفس وترتاح، وذلك كما ورد في قوله تعالى: «ويَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً (72)»: أي «فيه عز ومنعة (73)». ان «عزيز» لفظة بسيطة، تمس النفس لكنها عظيمة وغزيرة المعنى في الآية. انه نصر مؤزر يعز نفس الرسول،

---

66) فصلت 41 : 51
67) لسان العرب مادة عرض
68) لسان العرب. مادة عرض: «وقيل في قوله تعالى: «فذو دعاء عريض» أراد كثير، فوضع العريض موضع الكثير، لأن كل واحد منهما مقدار..».
69) سورة النساء 4 : 21
70) لسان العرب. مادة غلظ
71) الكشاف 492/1
72) الفتح 48 : 3
73) الكشاف 333/4

نصر ثمين وتقيس من الله إلى نبيه ، وهو عزيز على النفس ، لأنه يقابله بذل وجهد وتفان وإخلاص في العمل والمبدإ .

ان الصفات التي تتحلى بها ألفاظ القرآن نتيجة الدقة في وصفها ، تضفي عليها رونق الجمال ، وعمق المعاني ، وسمو أبعاد الهدف ، كما في قوله تعالى: «فاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (74)». قال الزمخشري: «فان قلت بم يتعلق قوله «فاصبر»؟ قلت: بسأل سائل (75)، لأن استعجال النصر بالعذاب، إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالوحي ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فامر بالصبر عليه (76) » . إن هذا التوضيح يعطي اللفظة « جميلا» معناها الدقيق، فهي دقيقة في وصف الصبر لان في الجمال اهتماما واعتناء ورعاية . فكذلك الصبر الذي يأمر به الله نبيه بالالتزام به : على الرسول أن يصبر ويحسن الصبر ، بحيث لاتثيره كلمة أو سؤال ، ولا يستفزه عمل شائن وفي هذه الجملة قاعدة نفسية وهي محاربة العدو بالثبات وامتلاك الاعصاب ، وتشير إلى هذه القاعدة لفظة «جميلا» . كذلك يدخل ضمن دقة الوصف في لفظة القرآن، إضافة المصدر الى الاسم لتدقيق نوعية محتوى المصدر ، كما في قوله تعالى: «فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ... (77)» يقول الزمخشري :«ان الهيم هي الإبل التي بها الهُيام وهو داء تشرب منه فلا تروى(78) » . ويقول ابن قيم الجوزية : « والهيام داء يأخذ الإبل فتهيم ولا ترعى (79) » .

والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا ملؤوا منه البطون . يسلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع امعاءهم . فيشربون شرب الهيم (80) . فلفظة « الهيم » بحكم دقة وضعها للشرب ، تعكس حالة أهل جهنم ، وقد أصيبوا بعطش لا ارتواء بعده ، ويسهم في تصوير حال شربهم جرس « الهيم » الذي يوحي بحركة خاصة هي حركة الإبل العطشى . وهي تحدث حركة

74) المعارج 70 : 5
75) الآية : سأل سائل بعذاب واقع .
76) الكشاف 609/4
77) الواقعة 58 : 55
78) الكشاف 464/4
79) روضة المحبين ص : 49
80) الكشاف 465/4

وصوتا غير منتظمين ، ثم تهيم دون ان تروي غليلها . ولعل نظرة إلى معنى « هيم » ومشتقاتها ، تضفي على الاية دقة ، وصورة حية للوصف .

إن الهيم ومشتقاته يفيد الهلاك والعذاب . جاء في معجم مقاييس اللغة : « هيم : الهاء والياء والميم كلمة تدل على عطش شديد فالهيمان : العطش . والهيم : الابل العطاشى ، والهيم : الرمال التي تبتلع الماء ، والهُيام : داء يأخذ الابل عند عطشها فتهيم في الأرض لا ترعوي وبه سمي العاشق الهَيْمَان كأنه جن من العشق فذهب على وجهه على غير قصد، والهيماء المفازة لا ماء بها (81)» .

د ــ الدقة في المعنى :

والدقة في المعنى بصورة عامة ناتجة من الدقة في الوضع والاختيار والوصف وإن اللفظة اذا تؤدي محتواها بامانة باستنفاد طاقتها ، فلكي تمد ذهن القارىء بكل ما تملكه من معنى ، وتعكسه من مغزى، وتحدده من هدف ، وذلك لتثير النفس والوجدان ، وتحرك العقل ، عساها تصل إلى حقيقة القرآن. لننظر في هذه الألفاظ التي تتقارب معانيها ، وتختلف صيغتها ، ودقتها المعنوية والفنية.

يقول تعالى : « وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (82)». وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (83)». «ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (84) » . جاء في لسان العرب : « قال ابن السكيت: القطمير: القشرة الرقيقة على النواة. والفتيل ما كان في شق النواة، وبه سميت فتيلة ، وقيل هو ما يفتل بين الاصبعين من الوسخ. والنقير النكتة في ظهر النواة . قال أبو منصور: وهذه الأشياء تضرب كلها أمثالا للشيء التافه الحقير القليل ، لا يظلمون قدرها » .

إن كل لفظة من هذه الألفاظ ، تحمل معنى دقيقا، وتعرض لنا عدل ملكوت السموات والأرض، وكلها أبلغ (85) من قوله تعالى: « ولا يظلمون شيئا (86)» ، لأن في الأول دقة في التحديد، وفي الأخير مطلق الشيء، وان

81) معجم مقاييس اللغة 26/6
82) النساء 4 : 77 الأسراء . 17 : 71
83) النساء 4 : 124
84) فاطر . 35 : 13
85) الصناعتين . ص : 268
86) مريم 19 : 60 .

كان معنى جميعها واحدا ، وهو دقة الحساب ، وأنه تعالى لا يظلم أحدا «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ومن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (87)» .

ان الدقة في المعنى تسود القرآن كله ، وهذا لا يحتاج إلا الى شيء من الامعان والروية، لان القرآن محكم كل الإحكام، انه «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (88)» . وما كان محكما إلا ليصوغ آياته وجمله وألفاظه ومعانيه بدقة واحكام. وهكذا نلمس في قوله تعالى: « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا » . ان دقة معنى « ليسكنوا » يتمثل في ان الإنسان بعد جهده اليومي ، الذي يضني جسمه وأعصابه ، يستسلم إلى هدوء الليل ، ليسكن فيه ، ويجد فيه راحة النفس لتسترخي جميع اعضائه ، وكأنه في ذلك يحقق لنفسه السكينة من هول اليوم وضجيجه ، ويستوحيها من عمق ظلام الارحام التي سكن فيها عندما كان نطفة فعلقة فمضغة فجنينا، وهو في ذلك يشعرنا بحنانه إلى جوهره . كذلك فان لفظة « مبصرا » تضع النهار اجلى مما نعهده يوميا ، فهو يبصر بني آدم بطريق الحياة ، ويفتح عيونهم لتأمل وتبصر حقيقة وجودها . بهذه الدقة وضعت كل من اللفظتين تحديدا واضحا لغاية وجود الليل والنهار.

اختم هذه الخاصية بقوله تعالى: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا، فَنَفَخْنَا فيه من رُوحِنَا. (89) ان لفظة «احصنت» التي شملت «احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا (90)» والتي هي من حصن: الدال على الحفظ والحياطة والحرز (91) ؛ ولذلك اطلق على المرأة الحاصن والحصان بمعنى المرأة المتعففة الحاصنة فرجها (91) دقيقة في معناها، تشير إلى أن فرجها بمثابة حصن منيع ، مدجج بالحراس محفوظ بعناية الله، لا يمسه سوء. وتوحي هذه اللفظة أن مريم ابنة عمران ينتظرها حدث عظيم، وقد اختيرت لتكون تجربة عملية قاسية مهولة، يعرضها خالقها على مخلوقاته ، ويحفظها من كل ما يثار حولها .
ان دقة المعاني — كما ذكرت — هي طابع القرآن كله .

87) الزلزلة 99 : 7 ، 8
88) سورة هود : 11 : 1
89) الأنبياء 21 : 91
90) الكشاف 133/3
91) معجم مقاييس اللغة 69/2

هـ — الدقة في التناسق :

ان التناسق القائم بين مفردات العبارة القرآنية ، يأتي نتيجة لتوفر الخصائص السابقة الذكر ، من دقة في الوضع ، والاختيار ، والوصف والمعنى. ودعامة العبارة القرآنية هي الكلمة، وما دامت هذه الكلمة على غاية من الدقة ، فالتناسق يأخذ محله الطبيعي في العبارة ، والذي أعنيه بدقة التناسق هو أن ما تستوعبه اللفظة القرآنية من معنى وإيحاء ، يتجاوب — تماما — وسائر الألفاظ داخل العبارة ، ويسوده معنى عام قائم على أساس من المنطق يساير العقل والوجدان والنفس ، حيث تتداعى المعاني بتسلسل منطقي ، ويحصل هذا التداعي عند التروي والتحليل ، يقول تعالى : «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ ، شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (92)». يذكر الزمخشري سبب النزول بقوله: « قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر ، فعيروهم بالشرك . فطفق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطيعة الرحم ، وأغلظ له في القول . فقال العباس : تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا . فقال أولكم محاسن ؟ قالوا : نعم ، ونحن أفضل منكم أجرا . إنا لنعمر المسجد الحرام ، نحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفك العاني ، فنزلت « حبطت أعمالكم » التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العاني (93) » . هذا السبب يعطي للفظة « حبطت » حيوية ووقعا خاصا ، فان ما افتخر به العباس على علي ابن أبي طالب ، أحبطه الله وأبطل أهميته . وتأتي أهمية هذه اللفظة نظرا لما تحمله من معنى، ورد في لسان العرب: « والحبط وجع يأخذ البعير في بطنه من كلإ يستوبله . قال الجوهري ، الحبط : ان تأكل الماشية ، فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ، ولا يخرج عنها ما فيها (94) » ، أي ان أعمالهم التي ظنوها مفخرة لهم ، واعتزازا لشخصيتهم ، هي داء مفسد ، أشبعوا به نفوسهم ، فاصبح فيهم طبيعة ، وما هو إلا اخواء على خواء.
ان دقة التناسق يتمثل في التناسب بين خلودهم في النار وحبط أعمالهم التي كانوا يفتخرون بها . ويعزز هذا المعنى الدلالة الحسية للفظة «حبط» كما وردت في لسان العرب .

92) التوبة 9 : 17
93) الكشاف 254/2
94) لسان العرب : مادة حبط

ان أعمال هؤلاء الكفار التي جنتها أيديهم، وكسبتها أنفسهم، لتنتهي بهم في يوم القيامة إلى جهنم ، فيخلدون بها . وتأكيدا للتناسق والتناسب ، قدمت «وفي النار» على « وهم خالدون ». وكذلك قوله تعالى : «ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم (95)» ان اتباعهم لما أسخط الله، والذي يمثله لفظتان: «اسخط» و«كرهوا»، يناسبه حبط في الأعمال، فلا تدع قدرته تعالى منه شيئا . إنه تناسق عجيب في المعنى ، تقوم بتحقيقه ألفاظ ، هي على غاية من الدقة .

إن هذا التناسق ليعطي عبارة القرآن جاذبيتها ، واستحواذها على النفس وإن دقتها تبعث العقل على الممارسة في التدقيق ، وللدقة أهمية حيوية في الحياة ، وعلى الصعيد الفكري خاصة . لتنظر قوله تعالى: « فلننبئن الذين كفروا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ (96) » . وما يسودها من دقة في التناسق . إن دقة وضع لفظة « غليظ » ودقة اختيارها في هذا الاستعمال ، يتناسب مع سياق المعنى العام و«غليظ» لفظة حسية ، استعملت بدل «عظيم أوقوي » لتصوير العذاب ، وإذاقته بصورة حسية ، تكاد تلمس بالحواس؛ وكذلك لتقريب ما هو معنوي إلى مدارك العقل البشري ، ويوضح ذلك ما توحيه صيغة «فلنُنَبِّئَنّ» «ولنذيقَنّهُمْ » وتشديدهما وتأكيدهما باللام والنون ، وما فيهما من جرس هي في الأولى تمس الأسماع ، وفي الثانية تمس النفس . كذلك فان لفظة « لنذيقنّهم » الدقيقة للاختيار والوضع والمعنى، التي هي بدل « لنُصْلِينّهم » دقيقة في أداء معناها ، وذلك لأن إذاقة العذاب يمس الروح والنفس ، وان العذاب الغليظ أهل لها ، وبالنفس أشد وأوقع ، على خلاف « لنصلينهم » فهي في عمومها تمس الجسم والجسد وبهذا يتحقق التناسق بين « لنذيقنهم » و« غليظ » وبين «فلننبئنهم» وسماع الإنسان .

ثم اننا نلمس دقة التناسق في العبارة، متسلسلا منطقيا، وذلك واضح في في قوله تعالى: « ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار(97)... » ورد في الكشاف تفسير الألفاظ التالية: «شطأه فراخه. يقال اشطأ الزرع إذا فرخ. فآزره: من المؤازرة وهي المعاونة. فاستغلظ : صار من الدقة إلى الغلظ . فاستوى على سوقه فاستقام

95) سورة محمد 47 : 28

96) فصلت 41 : 50

97) الفتح 48 : 29

على قصبه (98) » . ان كلا من هذه الألفاظ ، تؤدي معنى قائما بذاته، وإن هذا المعنى لم يكتمل في حد ذاته إلا بعد استغراقه مدة زمنية ، وبعد انتهاء المدة يأخذ شكلا جديدا ، وتعبر عنه لفظة جديدة، وهكذا إلى أن يكتمل نهائيا. وفترة الزرع تبتدىء بأن يشطأ ، ويكتمل بأن يستوي على سوقه ، فيعجب ثم ينهار . ان هذا يعرض مدى التناسق الدقيق بين هذه الألفاظ ، وهي على غاية من قوة الأداء ، حتى إن «عكرمة» فسر هذا التناسق بتسلسل تولي أمر المسلمين ابتداء بأبي بكر رضي الله عنه وانتهاء بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وعن عكرمة: «أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي (98)»، ويؤكد هذا المعنى ما أورده الزمخشري أيضا: « وقيل مكتوب في الإنجيل، سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (98) » . والمهم عندنا ، هو هذا التناسق بين الألفاظ ومعانيها ، وهذا التسلسل المنطقي الطبيعي .

بهذا ننتهي من عرض دقة لفظة القرآن، وان معالم هذه الدقة لا تنحصر في تلك الآيات التي ذكرتها، بل تعم كامل القرآن ، وإنها لا تأخذ — في نظرنا — شكلها في الدقة إلا إذا منحنا لوقفاتنا عند كل آية شيئا من التبصر والتمعن ، يربط المعنى بالآية، ويستوحيه من الألفاظ ، والسياق ، وينفتح على اللفظة ، فيستنفد ما فيها من معنى ، على قدر ما يملكه من جهد .

ان ما ذكرته من آيات ، ليس على سبيل الاختيار الشخصي ، بل هو بعض من مجموعة كبيرة من الآيات ، اهتديت بها إلى تسجيل ما سبق ذكره . كما أن الدقة وإن تنوعت ، قد تلتقي جميعها أو بعضها في اللفظة الواحدة .

إن هذا العرض البسيط والموجز ، ليس إلا صورة مصغرة لحقيقة الدقة في الألفاظ القرآنية ، وما محاولتي إلا نبش وليس غوصا والذي يوجب علي هذا القول ، هو أن جمال وفن القرآن ودقة ألفاظه اعمق وأعمق مما تصور . انتقل بعد هذا إلى الحديث عن الخاصية الثانية وهي أن لفظة القرآن تشع بالحياة :

* * *

إن ما يبدو لنا من حقيقة على مسرح واقعنا المادي ، ينعكس في القرآن بألفاظه التي ترسم صورة مجسلة متحركة بشتى أنواعها ؛ ولئن كانت

98) الكشاف 348/4

الحياة المادية تمثلها الطبيعة وكائناتها فإنها في القرآن تتحرك من تلقاء ذاتها وتشع بالحياة ، وتقوم اللفظة التي اصطلح على وضعها الإنسان ، لتؤدي اكثر مما تؤديه الحياة نفسها ، فللفكر الحي بألفاظه الحية يحرك جميع الحواس ، والحياة قد تشغل حاسة ، فتنشغل بها عن الأخريات ؛ وإن ما تملكه لفظة القرآن من مقدرة على تحريك النفس والوجدان والعقل والمخيلة يشهد لخصائصها بالتفرد في مميزاتها ، وهي التي تندرج تحت خاصية «لفظة القرآن تشع بالحياة».

أ – لفظة القرآن مصورة :

والتصوير أداة مهمة يسخرها القرآن في ألفاظه ، لعرض صورة المشهد ولتقريب الصور إلى الأذهان ، وتشخيص الحياة بألغازها وحركاتها وأبعادها وتجسيدها في صورة حسية ، وإعطائها صفة الحياة . إنها تحيل القرآن إلى نبع من الحياة ، يلتجيء إليه الكائن الحي ، فيجد فيه حقيقة نفسه ، وجوهر وجرده . ان المعاني لا يكفي أن تكون سامية لتؤثر ، بل لا بد لهذا السمو من أداة تسمو بها عن المألوف ، وهي في القرآن حيوية ألفاظه . ولقد أشار المفكر سيد قطب إلى أن « التصوير هي الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة ، والحركة المتجددة . فاذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ؛ وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فاما الحوادث، والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة؛ فيها الحياة وفيها الحركة؛ فاذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل ... (99) » .

وآفاق التصوير في القرآن أوسع من أن تدرك بقيود العمل الأدبي الفني؛ لأن التصوير – بحكم سعة آفاقه – يجتمع فيه « التصوير باللون ، وتصوير بالحركة وتصوير بالإيقاع ، وكثيرا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في ابراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن والحس والخيال ، والفكر والوجدان .

(99) التصوير الفني في القرآن . ص : 34

وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء لا ألوان مجردة وخطوط جامدة ، تصوير تقاس الابعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات . فالمعاني ترتسم، وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة (100) » .

ان هذه اللقطات من كلمات سيد قطب توجز لنا حقيقة التصوير ودوره في اشاعة الحياة. فقوله تعالى : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (101)» يجعلنا نعيش حقيقة اللفظة القرآنية التي تخلع الحياة على الكائنات الطبيعية ؛ إن لفظة «خاشعة» التي تعني «ذليلة منكسرة ميتة (102)» تصور الأرض «كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة (103)» وتصورها في – نظري – كالناسك المتعبد الخاشع ، يسوده جلال وهيبة وهذا يعطي الأرض صفة الخنوع والتذلل لربها . إن قوة التصوير عن طريق التجسيد الحسي الذي تقوم به هذه اللفظة تضع الصورة مجسمة أمام العين الباصرة . هذا الخشوع والسكون . سرعان ما يتحولان إلى حركة مثيرة تهز النفس، وهذا التحويل يتم عن طريق لفظتين « اهتزت وربت » الأولى بمعنى «استبشرت ويقال تحركت بالنبات (104)». والثانية بمعنى : « كثر نباتها ويقال انتفخت بنباتها (104) » وقرىء وربأت: أي ارتفعت . «لان النبت إذا هم أن يظهر : ارتفعت له الأرض (105) » .

إن هاتين اللفظتين تعرضان صورة حية عن الأرض، بعد أن كانت هامدة ميتة ، فينبعث فيها نفس الحياة وتهتز المخيلة لتدرك دقة هذا التصوير الحركي وأبعاده . ويمثل الزمخشري الأرض وهي قد اهتزت وربت: «بمنزلة المختال في زيه (105) » .

إن القرآن يخلع على ألفاظه صفة الحياة ، فتنزع هي إرادة الحياة ، وتتقمص قدرتها، فتكتسي لفظة الماء في الآية قدرة وإرادة ، – والماء شرايين حياة الأرض – وتقوم بعملية الاحياء ، تعززها القدرة الالهية في قوله: « أنزلنا » فهي بمثابة الاحياء ..

(100) المصدر نفسه . ص : 35
(101) سورة فصلت 41 : 39
(102) تفسير ابن عباس ص : 404
(103) الكشاف 201/4
(104) تفسير ابن عباس . ص : 404
(105) الكشاف 201/4

إنها سرعة في التصوير، ودقة في التخيل، ففي أقل من ثانية، يتشخص المرء صورتين : الأولى صورة سكون مطبق مجسد ، والثانية صورة حركة واهتزاز مجسمة ومتخيلة في أبعادها . نلاحظ في الألفاظ السالفة الذكر حركة وجرسا ووقعا خاصا يهز النفس ان لم يربكها، وإن نطق « اهتزت » تحدث ضغطا في طرف الحنك الأعلى، وكأنه في طريقه إلى الانزلاق. إن قوة الحركة التي تشعها الألفاظ القرآنية ، فتبدع في التصوير ، لتحيل الصورة إلى حقيقة متحركة ، وتدع المخيلة تتيه ، ففي قوله تعالى : « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْرًا (106) »، نجد الحركة التي تحدثها كل من «تمور» و « تسير » قد خلعت الحياة على كل من السماء والجبال بقوة وعنف. « وتمور » معناها « تضطرب وتجيء وتذهب . وقيل المور : تحرك في تموج وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة (107) ». هذا المعنى تقوم به لفظة تمور فتضع السماء في حالة دوران وتموج ، وتندهش المخيلة من هذه الحركة المخيفة ، الا ان الانسان يستسلم في اللحظة التي يدرك فيها أن المخلوقات ستموج بأعنف ما تموج به السماء و « تسير » تعرض أمامنا صورة حية ومهولة للجبال ، وكأنها تملك القدرة والارادة ، وما هي الا قدرة وارادة خالقها ، إن لفظة « تمور » و «تسير » لتثيران الوجدان والمخيلة وتدعان الحواس مشلولة فاترة . والذي زاد في عنف وقوة حركة وتصوير كل من اللفظتين المفعول المطلق لكل منهما : « مورا » و «سيرا ».

والحركة في ألفاظ القرآن تكون عنيفة قوية كما سبق ذكره، وتارة هادئة ولكنها عميقة في دلالتها ، وتسهم فيها الصيغة ونطقها وجرسها وإيقاعها ويأخذ فيها التصوير طابع الدقة والاحكام . وهي في كل ذلك تخلع الحياة على الكائنات الطبيعية ، أو المتحركة التي تزيدها حركة فوق حركتها ، أو الحالات و المحركات والانفعالات النفسية .

لقد سبق أن ذكرت آيتين تموجان بالحركة، وان الحركة التي تحدثها ألفاظ القرآن متنوعة ، وذلك على حسب عمق الدلالة ونوع الصيغة والايقاع والجرس والنطق والنغم . ويتوفر في اللفظة أحيانا كل هذه الأشياء ،

106) سورة الطور 52 : 9 ، 10

107) الكشاف 409/4

الداغصة: هي العظم المدور والذي يتحرك على رأس الركبة (الصحاح)

وأحيانا بعضها . فقوله تعالى : « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (108) » تشع بالحركة والاضطراب ، اذ : « المستنفرة الشديدة النفار ، كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه (109) ». فصيغة «مستنفرة » تحمل في ذاتها ما هو اقوى من دلالتها فكأن الحمر تطلب النفار من نفوسها، لشدة فزعها وخوفها من القسورة التي هي مشتقة من «القسر وهو القهر والغلبة(109)» وقيل ان القسورة هو الأسد ، أو الرماة أو عصبة الرجال (110).

ان «مستنفرة ، وقسورة» بصيغتهما وجرسهما ونغم نطقهما تصوغان المعنى في قوة وإثارة . قال الزمخشري: « وشبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر جدت في نفارها مما أفزعها(109)». إنه لقوة في التصوير. إن تشبيههم بالحمر «مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم (109)» وقد أصاب القرآن في مثل هذا التصوير ، لصلة العربي ببيئته ، ونوع حيواناته ودقة انطباعاته عليها ومن هنا جاءت أهمية تصوير المعرضين عن ذكر الله بالحمر المستنفرة لما فيها من خصائص مشتركة، «ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو اذا رابها رائب ؛ ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الابل وشدة سيرها بالحمر وعدوها إذا وردت ماء فاحست عليه بقانص (111)». ومن الآيات التي تتجلى فيها قوة الجرس والإيقاع المتأتية من الصيغة قوله تعالى : « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (112)» ان معنى دكا دكا : دكا بعد دك.. «أي كرر عليها الدك حتى عادت هباء منثورا (113)» . قال أبو عبيدة : « ويقال ناقة دكاء أي ذاهبة السنام ، مستو ظهرها أملس (114)». ان لهذا المعنى الحسي صلة عميقة بلفظة « دكا » فصيرورة الارض هباء منثورا ، يلتقي مع استواء ظهر الدابة ، إن لفظة « دكا » بصيغتها وجرسها القوي الذي يهز النفس ، ويحرك المخيلة ، تصور الأرض — بسرعة منقطعة النظير — وقد تحولت عن حالتها المألوفة المعهودة .

108) سورة المدثر 74 : 50 ، 51

109) الكشاف : 656/4

110) تفسير ابن عباس . ص : 493

111) الكشاف : 656/4

112) سورة الفجر 89 : 21

113) الكشاف 751/4

114) مجاز القرآن 228/1

ان ما تملكه هذه اللفظة من قوة في التأثير والإثارة يزداد وضوحا في قوله تعالى «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً (115)» ان ما نلمسه من تناسق دقيق بين الدك والخر صعقا، يعرض قوة التأثير، فموسى أمام عظمة الله، لم يقدر على ملك أعصابه، فانهار، وخر مغشيا عليه بعد أن صعق؛ وأصل الصاعقة «من صعقه اذا ضربه على رأسه (116)»، والرأس مركز حساس في الانسان، فإذا أصيب خر الإنسان مغشيا على الأرض كالميت. إن اللسان والحنجرة لتضيق وتثقل عند النطق بـ «دكا» و«خر» و«صعقا». إن هذا الثقل وجرس كل منهما يشير إلى الدلالة ويصور حال الأرض والإنسان أمام جبروته سبحانه وتعالى. ان الحركة الصامتة التي تصورها لفظة القرآن وهي عميقة الدلالة، تأخذ معالمها في قوله تعالى: «وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ»، أي ليس لهم «من مغيث ولا نجاة من عذاب الله (117)». «يقال حاص عن الحق يحيص إذا زاغ وعدل (118)». ان لفظة «محيص» تصور نفس المجادلين وهي منغلقة على ذاتها، رهينة جدرانها، لا تستطيع الانفلات من حبسها وضيق تفكيرها وتحجره وان عقابها لا محيد عنه ولا انفلات منه. وهي بالرغم من ذلك تموج حركة وحسرة وحيرة، وهي في صمت وهدوء؛ لتنتقم من نفسها. فدلالتها قوية، وحركتها صامتة.

كذلك فان لفظة القرآن تصور الحال النفسية بحركاتها وانفعالاتها كما في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (120)». ان معنى: «يصطرخون: يتصارخون، يفتعلون، من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة (121)». «أي «يستغيثون فيها من النار ويدعون ويتضرعون (122)». ان هذه الحالة النفسية التي يسودها صياح وصراخ واستغاثة وتضرع، لا بد لها من لفظة تترجمها بدقة، لتنقلها بضجيجها

115) الأعـــراف 7 : 143
116) الكشـــاف 155/2
117) تفسير ابن عباس ص : 409
118) تفسير غريب القرآن ص 232.
120) فاطر 35 : 36 ، 37
121) الكشـاف 615/3
122) تفسير ابن عباس . ص : 367

وانفعالاتها، وقد اختار لها القرآن لفظة «يصطرخون» على وزن يفتعلون؛ وكأنها صيغت للتعبير عن انفعالات النفس؛ إن صيغتها وجرسها وشدة نطقها وثقله وتقارب مخارج حروفها، ترشد العقل إلى دلالتها، وتصور ما فيها من قوة في الانفعال والتحسر. إن هذه الصورة المجسمة الحية، للحال النفسية، تبدع لفظة «يصطرخون» في عرضها وتصويرها.
والأمثلة على ذلك في القرآن كثيرة، ننتقل بعدها لنعرض دقة التصوير وإحكام عرضه عن طريق اللفظة القرآنية، يقول تعالى: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ (123)». يقول ابن عباس: هن سكن لكم وأنتم سكن لهن (124). ان لفظة «لباس» ذات الدلالة الحسية، تعرض صورة دقيقة، محكمة في أبعادها، نابعة من واقع ملموس، تصور علاقة الرجل بالمرأة لحظة الإتصال، فهما بمثابة لباس يضم جسما وروحا واحدا. إن أبعاد هذه اللفظة لا تقتصر على هذا المعنى، بل توحي لنا بعمق علاقة الجنسين بعضهما ببعض، وإن دقة هذه العلاقة تكمن في طبيعة جنس كل منهما، لا في غريزة دون أخرى، لأنه ككائن بشري يحتاج إلى دفء بشري خاص. وقد صدق ابن عباس حين فسر «اللباس» بسكن كل منهما إلى الآخر. فبهذا المعنى تنصهر النفس في الأخرى وتقوم الأسرة على أساس من هذا الانصهار المتجاوب لمغزاه العميق الهادف.

وتأكيد أهمية اللباس يزيد في توضيحه تقديم «لباس» على الجار والمجرور «لكم» و«لهن»، وهذا يؤكد أهمية الصورة بمحتواها الإنساني العميق، التي تنبعث من لفظة «لباس». ويلتقي مع هذه الدقة قوله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ (125)» يقول الزمخشري «شبههن بالمحارث تشبيها لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل والبذور (126)». ان دقة التصوير، وإحكام معالمه تمثله لفظة «حرث» بمعناها الخصب النامي، إنها صورة حسية موسعة، تنقل حالا تحدث في دقائق، حارث يمسك محراثه ويغوصه في الأرض، ويجره حيوان، فيقلب باطن الأرض إلى ظاهره، وبعد مدة، تنبت الأرض وتعطي ثمارها. هذه الصورة المحسوسة تحل محل التقاء الجنسين، لتثير المخيلة، وتحرك العقل، فيدرك علاقته

123) سورة البقـــرة 2 : 187
124) تفسير ابن عباس ص : 26
125) سورة البقـــرة 2 : 223
126) الكشـــاف 266/1

بالأرض ، بجوهره ووجوده كانسان . وتوحي لنا لفظة « حرث » امرا مهما يدركه كل من الجنسين ، وهو أنه ما دامت الأرض محتاجة إلى حرث ، فالغريزة الطبيعية للمرأة محتاجة إلى حرث أيضا ، إنها الدقة على غايه من الاعجاب والإثارة . ان التصوير* في القرآن هو الأداة المفضلة في عرض محتواه ، وان الخصائص التي سأذكرها هي جزء من هذا التصوير ، ولكنها ذات طابع خاص .

ب – لفظة القرآن ناطقة :

ان اللفظة القرآنية تعرض النفوس البشرية ، وتنطق بما في منعطفاتها النفسية ، وتشارك التصوير في مهمته ، إذ تحل محله ، لتؤدي مغزاها المحدد لها . ولتكون وافية بحق الأهداف السامية التي يرمي إليها القرآن . إن اللفظة الناطقة في القرآن ، صامتة ساكنة ، كاللوحة الفنية وفي هذا الصمت والسكون تنطق اللفظة عما في الأعماق . يقول تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (127) » .. لقد ابتدأت سورة التوبة بهذه الآية وبدون بسملة على خلاف سائر السور الأخرى . وتتصدر الآية لفظة « براءة » وهي من الله ورسوله ، وذلك كله تقديم لما تحمله هذه اللفظة من نطق حقيقي بغضب الله وعنفه ، وبنفسية المشركين وهم يستحقون مثل هذا النوع من الغضب . وقد وردت آراء في تعليل عدم ذكر البسملة في براءة أختار منه ما قاله الزركشي : « كان من شأن العرب في الجاهلية ان كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه ، كتبوا لهم كتابا ، ولم يكتبوا فيه البسملة ، فلما نزلت براءة ، بنقض العهد الذي كان للكفار ، قرأها علي ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم (128) » . هذا الرأي يرسم اهتمام القرآن باتباعه أسلوب العرب ليكون الوقع أشد .

ان لفظة القرآن تنطـق ، وتمر عابرة ، وتدع العقل يحلل ويفتش . يقول تعالى : « فقست قلوبهم (129) » .. ان « قست من قسى الذي يدل على شدة وصلابة . من ذلك الحجر القاسي . والقسوة : غلظ القلب وهي من قسوة الحجر (130) » . تنطق عن تحجر القلوب من شدة القساوة ، وانحرافهم

127) سورة التوبة 9 : 1

128) البرهان في علوم القرآن 1 /262 وما بعدها

129) سورة الحديد 57 : 16

130) معجم مقاييس اللغة 87/5

عن طريق الله ، فهي كالحجارة أو أشد . يقول الزمخشري : « وذلك ان بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، واذا سمعوا التوراة والانجيل ، خشعوا لله ، ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان ، غلبهم الجفاء والقسوة ، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره (131) » . « قست » التي معناها « غشيت ويبست وجفت (132) » ، توصف بها القلوب ، والقلب من الإنسان كالروح من الجسد ، فتحجرها وختمها ، تنطق به « قست » بصيغتها ودلالتها المصحوبة بالجفاف .

ويزيد هذه الخاصية وضوحا كلما عرضت آيات في ذلك ، كقوله تعالى : « يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (133) » . قال الزمخشري : « الإبلاس : أي يبقى يائسا ساكتا متحيرا . يقال ناظرته ، فأبلس اذا لم ينبس ويئس من أن يحتج . ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو ، وقرىء : يبلس بفتح اللام من أبلسه اذا أسكته (134) » . ان المعنى الحسي لهذه اللفظة ، والمتمثل في « الناقة المبلاس : التي لا ترغو » تساعد على فهم « يبلس » في الآية ، « يبلس » تنطق بيأس وسكون وتحير نفسية المجرمين ، لحظة قيام الساعة ، – وما وصفوا بالاجرام إلا لضخامة ما ارتكبوه من ذنوب واجرام – والابلاس يتناسب ونفسيتهم وهول يوم القيامة – ونلاحظ تناسقا عجيبا ودقيقا في السرعة التي تتم فيها صورة الآية ، فلم يقل القرآن بدل « الساعة » القيامة او الآخرة لأن لفظة الساعة تحمل سرعة تتناسب ولحظة قيامها وإبلاس المجرمين . فالمجرمون في حال مخزية « يوم تقوم الساعة » ، اعمالهم محيطة بهم ، وحواسهم تشهد بحبطها ، وجهنم بالمرصاد ، ويوم المحشر قائم بذاته ، وهم بين يدي الله يحاسبون . فبدت الصورة بحالتها النفسية الواسعة ، تنطق بحقيقتها لفظة « يبلس » حيث الاستسلام ، وان ليس هناك محيص من جزاء . إنها تنطق بحركة نفسية ، صامتة ، مباغتة ، مبكتة .

واختم هذه الخاصية بذكر قوله تعالى : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (135) » . ان اليهود تتوجه إلى

131) الكشاف 477/4

132) تفسير ابن عباس ص : 458

133) الروم 30 : 12

134) الكشاف 470/3

135) البقرة 2 : 88

محمد قائلة «قلوبنا أوعية لكل علم، وهي لا تعي علمك وكلامك (136)» بهذا التعنت والعناد والصلافة والحقد والبغض. وغلف تدل على: غشاوة وغشيان شيء لشيء. وقلب أغلف كأنما أغشي غلافا فهو لا يعي شيئا. وقرىء في الآية غلف: أي أوعية للعلم(137) يقول الزمخشري: غلف: جمع «أغلف أى هي خلقة وجبلة، مغشاة باغطية، لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إليه (138) . » هذا التحليل للفظة «غلف» من ابن عباس والزمخشري يضعها دقيقة كل الدقة في احتلال موضعها، لانها استطاعت ان تستنفد كل معاني التعنت والحقد الأحمق ، والغباء الفظيع ، لتنطق عما في قلوب اليهود وتعرض غل نفوسهم . وهي تنطق في الوقت نفسه عن حال نفسية ، ضات الطريق ، فطبع الله على حواسها ، ولعنهم .
اكتفي بهذا لأنتقل إلى الخاصية الثالثة .

جـ ـ لفظة القرآن معبرة :

واعني كونها معبرة ، انها تملك المقدرة على التصوير تعبيرا يستمد من اللفظة ، أي انها ليست ذاتها مصورة أو ناطقة ـ وإن التقت معهما في الصورة الفنية ـ ولكن تأخذ اللفظة المعبرة مجراها الطبيعي لتختلف إلى حد ما عن كونها مصورة أو ناطقة. أي انه ينظر إلى اللفظة من زاوية معينه تبرز فيها الصورة لا تصويرا أو نطقا بل تعبيرا عن حالات ، أو حركات نفسية ، أو عن مواقف وأحداث. وبالأمثلة تتضح معالم هذه الخاصية. يقول تعالى: «لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ، وإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ 139». يقول الزمخشري: «فيؤوس قنوط بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير ، والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس ، فيتضاءل وينكسر أى يقطع الرجاء من فضل الله وروحه (140) » . « فيؤوس وقنوط » لفظتان تعبران عن طبيعة النفس التي تقنط من رحمة الله ان أصابها خير ، وتتضرع إليه ان أصابها شر . انهما يعبران عن حالة نفسية ، منقبضة على نفسها ، بعيدة عن رحمة الله ، باطنها أسوأ من ظاهرها ، متنكرة لفضل الله وخيره . ان صيغة

---

136) تفسير ابن عباس . ص : 13
138) الكشاف . 163/1 ، 164
139) فصلت 41 : 49
140) الكشاف 205/4

كل من اللفظتين ووزنهما ، وما توحيه دلالة كل منهما ، وتقديم يؤوس ثم التعقيب عليها بقنوط ، تضفي على المعنى قوة ، وتعطي صفة التعبير مقوماتها ومعالمها .

ان صفة التعبير تأخذ مجالها في اللفظة ، وتستمد من الجملة معناها العام ويتسع مغزاها كلما اتسعت المخيلة في تخيل تصوراتها ، يقول تعالى: « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا (141)». ان جاثية تعني «باركة مستوفزة على الركب (142) ». وعند ابن عباس: «جامعة (143) ». ويبدو أن معناها اللغوي الذي أورده الزمخشري أقرب وأنسب لتفسيرها داخل الآية . لأن « جاثية » في الآية تعبر عن حالة الأمم وهي بين يدي خالقها يوم الحساب ، ملتصقة بالأرض على ركبها ، خائفة ذليلة ؛ وهي بهذا الجثو ـ والرؤوس مطأطأة إلى الأرض ـ تشير إلى الرغبة في شق الأرض ، من هول ذلك اليوم ، لكنها لا تجد من نفسها قوة ، فتزداد انكسارا وخنوعا ، وتدرك عند ذاك شريعة خالقها .

ويزيد توضيحا لهذه الخاصة قوله تعالى : «وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون من عبادته ولا يستحسرون (144)». ان لفظة «يستحسرون» تعني أن الملائكة «لا يعيون من عبادة الله (145) »، وأنه لا يصيبهم كلل . يقول الزمخشري : «فان قلت : الاستحسار مبالغة في الحسور ، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور . قلت : ان الإستحسار بيان أن ما هم فيه ، يوجب غاية الحسور وأقصاه ؛ وانهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون . ان تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر (146) ».

ان لفظة يستحسرون تعبر عن نفس الملائكة المتواضعة الخاشعة والجادة في عبادة خالقها ، بدون كلل أو تعب ، بل بشغف وحب متناهيين ، و تمر بندم أو حسرة فيما تبذله من جهد في ذلك . ويزيد في تأكيد هذه الصورة النفسية للملائكة ما تحمله اللفظة من جرس وحركة . وما لصيغتها

---

141) الجاثية 45 : 28
142) الكشاف 4 : 292
143) تفسير ابن عباس ص : 422
144) الأنبياء 21 : 19
145) تفسير ابن عباس ص : 270
146) الكشاف 108/3

ووزنها من تأثير ، كذلك سبقها بلفظة « لا يستكبرون » التي تعبر عن خلو النفس من الغرور والأنانية والاستعلاء ، وإنها بفطرتها الطبيعية تتبع سبيل عقيدتها الفطرية أيضا في عبادة خالقها . فعبادة الله فطرة بشرية .

ان الصيغة والجرس يسهمان في تقريب الدلالة ، ويعطيان هذه الدلالة أبعادها وتقف اللفظة لتعبر عما في أعماقها ، ويتضح ذلك من قوله تعالى: «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم محرومون (147). » ان لفظة « سكرت » تعني: «جبرت وحبست من الأبصار من السكر أو السكر . وقرىء سكرت بالتحقيق أي حبست كما يحبس النهر من الجري . وقرىء سكرت من السكران حارت كما يحار السكران (148)». وهي من سكر الذي يدل على حيرة، والسُّكْرُ: ما يسكر فيه الماء من الأرض ، والسَّكْر حبس الماء، والماء إذا سكر تحير (149) .
إنها تعبر عن نفوس ميتة ، ختم الله على قلوبها وأبصارها ، فهي لا تدرك ولا تعي ولا تبصر ، وإن غباءها وحمقها لفي ازدياد متناه ، إذ « ان هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد ان لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم المعراج يصعدون فيه إليها ، ورأوا من العيان ما رأووا ، لقالوا هو شيء نتخايله، ولا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك (150) » ...
إن الله هو الذي يشهد بحقيقة نفوسهم ، فيضع القرآن لفظة « سكرت » ليعبر لنا عن منعطفات هذه النفس وعن ثقلها بالذنوب ، وعن عنادها وحمقها وغبائها . إضافة إلى هذا فان صيغة « سكرت » المبنية للمجهول ، على وزن فعلت ، وإن نغمها وجرسها ، وثقل نطقها ؛ (وشيوع استعمالها في الحياة العامة (151))، تضيف لدلالتها قوة ووضوحا، كل هذه الحال النفسية تعبر عنها لفظة « سكرت ».

د ـ لفظة القرآن موحية :

ان الإيحاء اللفظي في العمل الأدبي ، هو الذي يرتفع به إلى سمو الفن والأدب الحي الخالد . والايحاء في القرآن صفة ملازمة لالفاظه ، تقوم

147) سورة الحجر 15 : 14 ، 15
148) الكشاف 573/2
149) معجم مقاييس اللغة 89/3
150) الكشاف 573/2
151) الإستعمال الشائع في تونس هو قولنا: سكر الباب بدل اغلق أو غلق وتستعمل بمعنى اسكت في لهجة وقحة .

بتدقيق معالم الصور التي تعرضها الآية ، وتدع المخيلة متحركة ، سابحة في أبعاد المعاني وأهدافه . إن القارىء ليستطيع ـ بحكم ما تملكه لفظة القرآن من قوة في الايحاء ـ ان يغوص في المعنى الباطني للآية ، وان يفتح آفاقها ، ويلج في منعرجاتها ، وما تخفيه من أسرار ومعان دقيقة وحينئذ يدرك مزية الإيحاء اللفظي في القرآن . يقول تعالى: « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين (152) » .
ان لفظة « قصمنا » تعني «أهلكنا (153)» . وأوضحها الزمخشري بقوله: « وكم قصمنا من قرية » واردة عن غضب شديد . ومنادية على سخط عظيم لان القصم افظع الكسر وهو الكسر الذي يبين لتلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم (154)»
انها بصيغتها وشدة جرسها وايقاعها ، وثقل نطقها ـ توحي بالتدمير والفناء بشدة وقوة ، وبجبروت الخالق وبغضبه وسخطه كما أشار إلى ذلك الزمخشري وان الضمير المتصل « نا » في « قصمنا » يؤيد قوة جبروته تعالى . كذلك فان « وكم » التي ابتدأت بها الآية التي بداخلها « قصمنا » توحي بنماذج حية متحركة ، قصمها الله ، وأنشأ بعدها قوما آخرين ، وان من ينحرف عن كلمة الله ، لا يضر الله شيئا ، بل يضر نفسه وحده ، وإن الله في غنى عنه .
إن للصيغة الدور الكبير في الإيحاء ، فلفظة « اقترب » في قوله تعالى : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (155) » تدل على المستقبل في صيغة الماضي ، لأنها توحي للنفس بأنها تعيش على نفس يوم الحساب . قال عليه السلام: « بُعِثْتُ فِي نَسَمِ السَّاعَةِ (156)» كناية عن شدة القرب. يقول الزمخشري : « فان قلت كيف وصف بالاقتراب ، وقد عدت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام ؟ قلت : هو مقترب عند الله » . والحقيقة إنه مقترب عندنا نحن البشر ايضا ، لان « اقترب» توحي باننا خلقنا لنعود للحساب فالفترة التي نقضيها، لا تعد إذا قيست بحقيقة وصدق يوم المحاسبة ، ثم إن هذا الإيحاء يشتد معناه ، باننا ـ كما تفيد الآية ـ عن يوم الحساب معرضون ، وإن هذا اليوم سنباغت به: « وهم في غفلة معرضون » .وتوحي لنا اللفظة في الوقت نفسه ، ان العقل إن وعى وأدرك مسؤولياته امام خالقه ، تفطن أنه يعيش ،

152) الأنبياء 21 : 11
153) تفسير ابن عباس ص : 269
154) الكشاف 105/3
155) الأنبياء 21 : 11
156) الكشاف 101/3

وهو قاب قوسين أو أدنى من يوم الحساب . ان هذا الإيحاء الحسي المثير للوجدان و المخيلة ، يعطي لفظة القرآن قيمتها الفنية والجمالية .

ان قوة الإيحاء في اللفظة القرآنية ، يعززها ما يعقبها من وصف ، كقوله تعالى : « فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (157)» ... يروي ابن عباس قصة هذه الآية بقوله: «هذه قصة أهل قرية نحو اليمن يقال لها حضور ، بعث الله إليهم نبيا ، فقتلوا ذلك النبي عليه السلام ، فسلط الله عليهم بختنصر ، فقتلهم ولم يترك فيهم عينا تطرف (158) ». ان جزاء قتل أنبياء الله ، أن يمحى القاتل من الوجود . واختار القرآن لفظة « حصيد » ، تتبعها لفظة « خامدين » لتوحي للقارىء بغضب الله ، وشدة رده عليهم ، حيث الفناء من الوجود . كذلك فان هذا الإيحاء ليعرض صورا لحالات نفسية معينة ، ونماذج بشرية خاصة ، عاشت وعتت عن أمر ربها فكان جزاؤها الدمار؛ وتأتي لفظة خامدين التي بمعنى «ميتين لا يتحركون (159) » لتعزز إيحاء « حصيد ». إنه إيحاء مثير ومبكت للنفس. إن قوة الجرس يهز النفس ، وإن الصيغة وما بها من تشديد يحدث ضغطاً على اللسان، وإن الدلالة تستمد قوتها من اللفظة ذاتها ، وكل هذا يسهم حقاً في صورة الإيحاء. فإيحاء لفظة « دمر » في قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (160) » تجتمع فيها كل هذه الأمور. و « دمره : أهلكه ودمر عليه : أهلك عليه ما يختص به . والمعنى دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم (161) » . إن هذه اللفظة توحي بالقوة العظمى التي تملك الدنيا وما فيها ، وتفني أمماً في أسرع من رمشة عين ، وإنه كلما سار المرء في الأرض ، ونظر وتبصر ، أدرك حقيقة الفناء التي ينتهي إليها هذا الوجود ، ويؤكد هذا المعنى إيحاء لفظة « دمر » ، فقوته سبحانه وتعالى قادرة على محو الكون ، وإحالته هباء منثورا.

ولعل القارىء يدرك ما توحيه لفظة دمدم — عن طريق جرسها وثقل

157) الأنبيــاء 21 : 15
158) تفسير ابن عباس ص : 269
159) تفسير ابن عباس ص : 369
160) محمد . 47 : 10
161) الكشــاف 319/4

نطقها — عندما يرددها على لسانه ، ويتروى ويقف عندها كل مرة. فجرسها، وصوتها يدمدم كدمدمة الدبابات ، قال تعالى : « فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ (162) » أي : « فاطلق عليهم العذاب ، وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمومة : إذا ألبسها الشحم (163)» والدمدمة الإهلاك (164). إن قوة جرس « دمدم » يقوم وحده بتأدية المعنى ، وذلك لأنه يحدث ثقلا وضغطاً داخل الفم ، ويحمل نغمة تهز النفس. إن إيحاء ها يبرز هول الصورة وقوة الخالق. إن ثمود كذبت صالحاً ، وعتوا عن أمر الله ، فعقروا الناقة فحق عليهم كلمة العذاب ، فدمرهم وأهلكهم ، وكان ذنبهم هو السبب في الدمدمة . وقد نصت الآية على ذلك بلفظة « بذنبهم ». وهنا يشير الزمخشري إلى إيحاء لطيف في قوله تعالى « بذنبهم » بقوله : « .. وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب ، فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر (165) ». وتنتهي الآية بقوله تعالى : « فسواها » أي « انخسفت بهم الأرض فسويت عليهم ، ودمدمت ودكدكت وزلزلت عقوبة لعقرهم الناقة (166)».

ويكون الإيحاء — أحيانا — مستمدا من جو المعنى العام ، وتتقمص اللفظة ذلك المعنى ، لتنفرد بالإيحاء ، كقوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (167)».

وتدل لفظة سبحان : « على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله (168)». ابتدأت أول الإسراء بلفظة سبحان، لتوحي بعظمة الله وجلال قدرته في أن يسري بالرسول ، وعبر عنه في الآية « بعبده » ، فهو مدين لخالقه ، كإنسان خلق ليعبد ، وهي في حد ذاتها توحي بذلة المخلوق وتفاهته أمام الخالق.

إن تصدر اللفظة لأول آية بالسورة ، يحمل وقعاً خاصاً ، يسهم في قوة إيحاء اللفظة ، كقوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

162) سورة الشمس 91 : 14
163) الكشــاف 761/4
164) معجم مقاييس اللغة 260/2
165) الكشــاف 761/4
166) كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص : 105 ، 106
167) الاســراء 17 : 1
168) الكشــاف 646/2

(169) »، إن الحمد على خلاف الذم (170) «وهي غريزة فطرية، ينطق بها الإنسان ليعبر عما تكنه نفسه من شكر وتقدير ، واعتراف بالألوهية لله (171)». «فالله حقيق بالحمد على ما خلق ، لأنه ما خلقه إلا نعمة ، ثم الذين كفروا به يعدلون ، فيكفرون نعمته (172)».

إن النفس بعد تشبعها بروح الله وفضله ، تستسلم — طواعية — لخالقها ، وتنبعث منها الحمدلة ، شاكرة لأنعمه وآلائه. وهذا هو ما توحيه لفظة «الحمد لله» ، وهو إقرار واعتراف بفطرة المخلوق أمام خالقه ، وهي تنطق بحمده.

هذا شيء من قليل أنتقل بعده إلى التنويه بأن لفظة القرآن التي تشع بالحياة من حيث أنها مصورة وناطقة ومعبرة وموحية . وهي تملك بجانب ذلك قوة التكيف ، ولكن ليس ذلك مطلق تكيف كما تشير إليه هذه اللفظة ، بل إن تكيفها دقيق وعميق. فهي إضافة إلى دقة اختصاصها في كل ما سبق ، تجمع بين بعض هذه الخصائص وأحياناً بينها جميعاً ، كمظهر لحيوية لفظة القرآن ، ومدى ما تشعه من حياة.

هـ — لفظة القران مصورة ناطقة :

من الآيات التي تمثل هذه الخاصية قوله تعالى: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (173) ». يقول الزمخشري: «يقال زلق الرأس وأزلقه: حلقه. وقرىء ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها .. (174) » وجاء في معجم مقاييس اللغة ما يلي: زلق الزاء واللام والقاف أصل واحد يدل على تزلج الشيء عن مقامه. من ذلك الزلق ويقال أزلقت الحامل اذا ازلقت ولدها . ويقال — وهو الأصح — إذا أزلقت الماء ولم تقبله رحمها (175) ».

ان «يزلقونك» تصور كفار قريش ومواقفهم ونظراتهم الحادة المليئة بالحقد، وتشخص أبصارهم، وكأنها تود أن تبطش وتنتقم من الرسول، إنهم من

169) الأنعام 6 : 1
170) معجم مقاييس اللغة 100/2
171) تفسير ابن عباس ص : 105
172) الكشاف 4/2
173) القلم (ن) 68 : 51
174) الكشاف 597/4
175) معجم مقاييس اللغة 21/3

شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلقون قدمك أو يهلكونك . والنظرة الحادة المقصودة تؤثر، ويؤكد شدة معنى «ليزلقونك» جرسها ، وإيقاعها ، وتأكيدها باللام، ونطق حروفها التي تحدث حركة غير منظمة في اللسان ، تبتدىء بانزلاق اللسان ، وتنتهي بتعلقها بوسط الفم من العلو . كما انها تنطق عن نفسية كفار مكة — وهم في أشد تحرشهم وهيجانهم على الرسول — ، وتبدو معالم هذه النفسية وهي تموج حقدا وبغضا وغلا .

إن شرارة الحقد والانتقام ، التي نبعت من واقع نفوسهم تنعكس على أبصارهم بحدة خارقة ، ويختار القرآن لتصوير حالتهم ، والنطق بما في نفوسهم لفظة « ليزلقونك » انه إبداع في التصوير وقوة في التشخيص ، وروعة في الأداء ، ودقة في النطق .

و — لفظة القرآن ناطقة معبرة ومصورة :

يقول تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهو كظيم (176) » و« كظيم » تعني: «مغموم ، مكروب يتردد الغيظ في جوفه (177) » . وورد معناها في لسان العرب : «كظم الرجل غيظه اذا اجترعه (أي رده وحبسه) . ابن سيده : كظم البعير جرته : ازدردها وكف عن الاجترار والكظم : مخرج النفس (178) ».

ان لفظة «كظيم» بمحتواها الحسي واللغوي تعبر عن حال النفس وهي متألمة مغمومة ، ومكروبة ، وقد بشرت بانثى ، وتنطق عن طبيعة هذه النفس تحمل نزعة الكره الشديد للاناث . يقول الزمخشري : « ومن حالهم ان احدهم إذا قيل له : ولدت لك بنت ، اغتم واربد وجهه غيظا وتأففا وهو مملوء من الكرب .. (179) » .

و« كظيم» — بعد هذا النطق والتعبير — تصور ظلال هذه النفس، حية متحركة تكاد تلمس وترى بالعين الباصرة . ونلاحظ في الآية تناسقا عجيبا في الدلالة ، يتم بين الوجه المسود وغيظ النفس المكظوم .

176) الزخرف 43 : 17
177) تفسير ابن عباس ص : 412
178) لسان العرب . مادة كظم
179) الكشاف 242/4

ز – لفظة القرآن ناطقة موحية ومصورة :

يقول تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينّك قبلة ترضاها (180) »

إن لفظة « تقلب وجهك » التي بمعنى « تردد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء (181) » تصور حركة نفسية قوية ، انتابت الرسول ، بعد قلق وضجر وضيق . فقد كان اليهود يعدون توجه الرسول واتباعه شطر بيت المقدس مفخرة لهم ، وشبه نقيصة في قبلة إبراهيم . وتتسع الصورة التي تعرضها لفظة « تقلب » باتساع ظلالها القائمة على أساس من النطق والإيحاء : النطق بتقلبات نفس الرسول لشدة وطأة اليهود عليه ، والإيحاء بأن الرسول دقيق الشعور ، مرهف الحس أمام خالقه ومسؤوليته ، وعظمة رسالته ، وإنه ينظر إلى بعد ، ويراقب لحظات الحياة ، ومعطياتها ومؤثراتها في رسالته المقدسة وتوحي في الوقت نفسه بكيد اليهود ، وما يكمن في نفوسهم من غل وحقد وخزي . وكان الرسول وهو يشرع برأسه إلى السماء ، « يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود . فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل (182) » . ويستجاب طلبه ، وتقبل دعوته ، وتطمئن النفس ، وتتحول القبلة عن بيت المقدس ، ويتأكد كل هذا بلفظة «فلنولينك» أي «فلنعطينك ولنمكنك من استقبالها (182)» بكل ما تحمله اللفظة من تشديد في صيغتها بنون التوكيد ، وتأكيد المعنى باللام وما يحمله الجرس والنطق من ثقل وضغط ، تفيد تأييد وتأكيد طلبه صلى الله عليه وسلم .

ح – لفظة القرآن مصورة ومعبرة وموحية :

يقول تعالى: « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا(183)» ودع تدل على حركة ودفع واضطراب . فالدع : الدفع . يقال دععته ادعه دعا (184) . يقول الزمخشري: « والدع : الدفع العنيف، وذلك ان خزنة النار يغلون ايديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونها إلى النار دفعا على وجوههم،

180) البقرة 2 : 144

181) الكشاف 202/1

182) الكشاف 202/1

183) الطور 52 : 13

184) معجم مقاييس اللغة 257/2

وزخا في اقفيتهم (185) » .

ان لفظة «يدعون» بجرسها، وإيقاعها، وما في صيغتها من تشديد، وحركة نفسية ، وضغط وثقل على النفس والنطق ، توحي بهول ذلك اليوم ، وبالذلة والخزي والكره المنصب على أهل جهنم ، وإن بناء الصيغة للمجهول تشير إلى قوة خفية – لم يذكر اسمها بالآية ، وهم زبانيه جهنم الشداد الغلاظ – وذلك ليكون وقعها شديدا. ان هؤلاء الزبانية الذين يدفعونهم من ظهورهم دفعا، يضعون امعاءهم على وشك الاقتلاع والاستئصال ، وهم يشعرون بها وكأنها تصعد إلى فوق ، وإن لفظة يدعون توحي بهذه الحال ، وهنا يأتي دور التصوير ليجسم ظلال الصورة الحسية ، ويشخص معالمها ، حية متحركة: حالةمؤلمة ، دفع بشدة وقوة عنيفة من وراء الظهور، وظلال من الذلة والمهانة والمسكنة .

ان اللفظة تنطق بواقع نفوسهم المخزي ، وبثقل ذنوبهم وانحرافها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها . وان المفعول المطلق «دعا» يزيد في تأكيد ما للفظة من قوة في التصوير والنطق والإيحاء .

ط – لفظة القرآن مصورة ناطقة معبرة موحية :

يقول تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (186) » .

«اثاقلتم» : اى تثاقلتم وتباطأتم وتقاعستم (187). ان جرسها وإيقاعها وما تحدثه من ثقل في النطق ، تؤدي المعنى المنبعث منها . إنها تنطق بحال نفوسهم المتقاعسة ، وحبهم في الإقامة بارضهم وديارهم ، بدل أن ينفروا في سبيل الله وقد وقع ذلك في غزوة تبوك في: «سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف ، استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم (187) » .

انها تعبر عن نفس مثقلة بحب الحياة، رضيت بالدنيا بديلا عن الآخرة. وتصور ظلال هذا المشهد الحي ، وقد ألصقت بالأرض ، وتثاقلت عليها بمقدار ما تحمله الأرض من أثقال . انها بالإضافة إلى ما فيها من تصوير

185) الكشاف 409/4 – زخه أي دفعه في وهدة .

186) التوبة 9 : 38

187) الكشاف 271/2

ونطق وتعبير – فهي شديدة الايحاء ، توحي بأن أمثال هؤلاء المتثاقلين ليسوا بمؤمنين حقا ، فالمؤمن الحق هو الذي يستجيب بسرعة وخفة روح إلى أوامره سبحانه وتعالى ، لنصر دينه ، لا ذبذبة ولا تردد ، بل طاعة وانصياع بدون إكراه. وقد تجمع الآية بين ألفاظ متعددة ، تختص كل منها بخصائص معينة وتلتقي كلها بالمعنى العام . وأمثل لذلك بآية واحدة ، فالقرآن مليء وطافح بذلك. يقول تعالى: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (188). و «الغل هو : الحقد الكامن في القلب، من انغل في جوفه وتغلغل (189)». والمعنى: إنه «ان كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر، نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم (189)» . إن لفظة «نزعنا» تعرض صورة حسية متحركة لعملية القلع والازالة ، وتوحي بان القلع يمس الجذور ، ولا يترك في الصدور أثرا من الغل . ولفظة غل تنطق بحال النفس وهي مثقلة بالحقد والبغض ، وتعكس صورة مزدوجة : نفس تغلغل فيها الغل وسكن فيها ، ونفس خلت وطهرت من ادرانه ، يؤكد الصورة الأولى لفظ « غل » وهي مستقلة ، والثانية لفظ غل بمعية « نزعنا » . كذلك فانها توحي بأن الطبيعة البشرية لا تخلو في دنياها من هذه المساوى التي تعكر صفو العلاقات ، وان النفوس المؤمنة خالية من ذلك في جنتهم الخالدة وان « نا » في نزعنا تشعر بان الله هو الذي ينزع ما في الصدور من « غل ».

وخلاصة القول ان كون لفظة القرآن مصورة تارة ، وناطقة ثانية ، ومعبرة ثالثة ، وموحية رابعة ، وجامعة بين بعضها أو جميعها خامسة ، وتوفر هذه الخصائص في مفردات متعددة داخل الآية الواحدة ، لتعكس – بحق حقيقة اللفظة القرآنية في دقة اهتمامها بالتعبير والنقل ، وحيوية معطياتها وتصويرها ، ومعالم اعجازها .

ويمكن باختصار أن نقول أن التصوير يخص المشاهد والمناظر والكائنات الطبيعية ، ويخلع عليها الحياة بصورة حسية متحركة ، ويدقق – عن طريق التجسيم والتشخيص والتخييل – الحالات النفسية ، والمعاني الذهنية ، ويضعها في إطار حسي متحرك . وان التعبير يأخذ الشكل الظاهري منها ، والنطق الشكل الباطني . اما الايحاء فانه يخص ابعاد اللفظة وما تتضمنه من عمق ومغزى ولفتات .

---

188) الحجر 15 : 47
189) الكشاف 579/2

الفصل الثالث

عبارة القرآن

العبارة لغة :

جاء في لسان العرب: العبارة اسم من عبر عما في نفسه: اعرب وبين ،

ويبد أن المدلول الحسي آت من قول العرب : وعبرت النهر والطريق اعبره عبرا وعبورا اى قطعته من هذا العبر إلى ذلك العبر ، فقيل تعابر الرؤيا عابر ، لأنه يتمايل ناحيتي الرؤيا ، فيتفكر في أطرافها ويتدبر كل شيء منها ويمضي بفكره فيها ، من أول ما رأى النائم إلى آخر ما رأى ولذلك قيل عبر الرؤيا يعبرها عبرا وعبارة وعبرها إلى آخر ما رأى فسرها واخبر بما يؤول إليه امرها .

ولربما يكون المدلول الحسي مأخوذا ايضا من قولهم : «وعبر المتاع والدراهم يعبرها ، نظركم وزنها وما هي .وعبرها وزنها دينارا دينارا ، وقيل عبر الشيء إذا لم يبالغ في وزنه أو كيله ، وتعبير الدراهم وزنها جملة بعد التفاريق . (1) »

من هذه المعاني يمكن أن نقول ان العبارة مجموعة ألفاظ ، يعني العقل بنظمها وتأليفها وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، وذلك بعد التدبر والإمعان .

العبارة اصطلاحا :

وفي الاصطلاح الأدبي فان العبارة ، : «مجموعة ألفاظ منسقة على نحو معين ، لأداء معنى ذهني ، أو معنى شعوري (2)» فالالفاظ دعائم بناء العبارة وان العبارة تستمد دلالتها : «من مفردات الدلالات اللغوية للالفاظ ، ومن الدلالة المعنوية الناشئة من اجتماع الالفاظ في نسق معين ، ثم من الإيقاع الموسيقي ، الناشيء من مجموعة ايقاعات الألفاظ ، متناغما مع بعض ، ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة (3) » . إنها

---

1) لسان العرب : مادة عبر ،
2) النقد الأدبي . ص : 47
3) المصدر نفسه . ص : 48

صورة للتأليف الطبيعي، لإحالة الصور الذهنية والشعورية إلى مادة مجسمة، تنقل محتوى العبارة، باعتبارها وعاء للافكار.

ولم تقل عناية العرب بها عن عنايتهم بالألفاظ، فالألفاظ تمثل دلالات مستقلة، والعبارة تمثلها مجتمعة، وفي وحدة فكرية، منسجمة ومنتظمة، ولم تكن هذه العناية – بصورة عامة – إلا عناية بالأفكار والمعاني التي هي ملك للعقل البشري حيثما كان. وبقدر إهتمام العمل الأدبي بالالفاظ والعبارة والأفكار، بقدر ما ينقل إلى القارىء من صور جماعية وفنية، تحرك العقل وتثير النفس والوجدان والمخيلة.

لقد اشترط العرب في تأليف العبارة شروطا، جمعها ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة واعتبر الشروط التي اعتمدها في اللفظة هي نفس الشروط في العبارة بصورة موسعة كاجتناب تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام، حتى يكون النطق قائما على حروف متباعدة المخارج (3) وان يلمس في التأليف حسن وذوق. ويكون له مفعول في النفس (4)، وان يخلو التأليف من الكلام الوحشي أو العامي (4) وأن يجري التأليف على العرف العربي الصحيح، والذوق الأصيل للبيان العربي (5)، وأن يكون التأليف في وحدة من التناسق والإنسجام، ويتوفر فيه احكام الربط بين الأجزاء وفي اضافة الكلمات إلى غيرها (6)، وأن يتجنب التأليف كثرة الحروف إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال (7)، وأن يراعى في التأليف ما يناسبه – ان اقتضى الأمر – من تصغير ونداء وترخيم، ونعت، وعطف وتوكيد (7) ... الخ.

هذه الشروط تجتمع فيها اللفظة والعبارة: في اللفظة من حيث كونها دلالة مستقلة، وفي العبارة من حيث كونها مجموعة الفاظ، يحكمها النظم والتأليف: ومع هذه الشروط عرض شروطا تخص التأليف، فاشترط ان توضع الألفاظ في مواضعها، حقيقة أو مجازا، لا ينكره الاستعمال، ولا يبعد فيه الفهم، بحيث لا يكون في الكلام تقديم أو تأخير (8)، وألا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه (9)، وأن تكون فيه الاستعارة

4) سر الفصاحة، ص: 107
5) المصدر نفسه، ص: 120
6) المصدر نفسه ص: 123
7) المصدر نفسه ص: 124
8) المصدر نفسه ص: 125
9) المصدر نفسه ص: 128

حسنة جميلة (10)، وألا تقع الكلمة حشوا (11) وألا تكون بها معاظلة (12) وأن يوضع في الكلام ما يلائمه نثرا أوشعرا، أسلوبا أو محتوى (13)، وأن يكون في التأليف تناسب في الصيغ بين الألفاظ والمعاني والسجع والازدواج ويكون هذا التناسب في مقدار مقبول (14) ...

ان عبارات القرآن التي تجسد في محتواها عصارة تجارب بشرية، وخبرة عميقة للحياة، وقد سبكتها القدرة الالهية في أسلوب عربي متين – تتمتع بخصائص جمالية وفنية، تدع القارىء ينصهر في جوها كلما أمعن وتدبر. واذ تستطيع العبارة القرآنية أن تقوم بهذا الدور، فلانها تميزت في سبكها ونظمها وأسلوب عرض أفكارها، وفي روحها وتصويرها، وظلال صورها وايحاءاتها ... ولهذا الخصائص مظاهر عامة، أتوخى في هذا الفصل توضيحها وبيانها.

ان أولى خصائص عبارة القرآن هي:

1 – الدقة في التعبير:

تتحقق هذه الدقة بطرق عديدة ترتبط ببناء العبارة سواء أكان منها ما يتصل بالمفردات أو المعنى أو النظم. والقرآن يهتم دوما في تعبيره بما هو أهم في المعنى، وألصق بالنفس وأكثر تحريكا للذهن، وذلك لتأخذ العبارة منفذها إلى النفس، ويكون طابع تعبيرها مع دقة متناهية فالدقة تحدد الذهن والمعنى، وتضع العبارة واضحة لا غموض بها، وذلك لتمكن الوجدان من التفاعل بها، والعقل من استساغتها، ولهذا نلاحظ أن عبارة القرآن دقيقة في أداء مغزى السبب في نزولها، وجامعة لمعناها ودقائق محتواها. جاء في العجائب للكرماني: «قيل كيف جاء «يسألونك» أربع مرات بغير «واو»: يسألونك عن الاهلة (15)، ويسألونك ماذا ينفقون (16). يسألونك عن الشهر الحرام (17). يسألونك عن الخمر (18)،...، ثم جاء ثلاث

10) المصدر نفسه ص: 134
11) المصدر نفسه ص: 170
12) المصدر نفسه ص: 183
13) المصدر نفسه ص: 195
14) المصدر نفسه ص: 201
15) البقرة 2: 189
16) البقرة 2: 215
17) البقرة 2: 217
18) البقرة 2: 219

مرات بالواو : ويسألونك ماذا ينفقون (19)، ويسألونك عن اليتامى (20) ، ويسألونك عن المحيض (21) قلنا لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد ، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك (22) » .

ان الحروف في الجملة العربية توضع لتؤدي مهمة وضعها وكذلك العبارة القرآنية، فهي دقيقة كل الدقة في ذلك . يقول تعالى: « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها (23) » وفي آية أخرى ، يقول تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها (24)» ... في الأولى ذكرت « فتحت » بدون واو ، وفي الثانية بواو: «وفتحت». يقول الزمخشري في تعليل ذلك: «وقيل حتى إذا جاؤوها، جاؤوها وفتحت أبوابها ، أى مع فتح أبوابها . وقيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة ، فمتقدم فتحها بدليل قوله « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » فلذلك جيء بالواو ، كأنه قيل حتى اذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها(25)» ويؤيد هذا ما ذهب إليه ابن عباس من أن «فتحت أبوابها، أي: طرقها لهم، ولم تكن قبل ذلك مفتوحة (26)»، و«وفتحت ابوابها أي وقد كانت مفتوحة قبل ذلك (26)» .

ان للحروف العربية الاثر الكبير في المعنى والتدقيق فيه . فالدقة في الآية الاولى تشعر النفس بحكم الإيحاء – بانغلاق وانقباض في النفس ، وفي الثانية بانشراح النفس وابتهاجها .

وتأخذ العبارة دقتها في تناسب نظمها وسبكها، وحسن ضمائرها، بحيث لا يختل المعنى بل يزداد دقة ووضوحا كقوله تعالى: « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم (27)»، وكقوله في آية أخرى: « ولا تقتلوا أولادكم

19) البقـرة 2 : 219
20) البقـرة 2 : 220
21) البقـرة 2 : 222
22) الإتقان في علوم القرآن 114/2
23) الزمـر : 39 : 71
24) الزمر 39 : 73
25) الكشـاف 147/4
26) تفسير ابن عباس . ص : 392
27) الأنعـام . 60 : 151

خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئا كبيرا (28)». ففي الآية الأولى « ... نحن نرزقكم وإياهم » أى أنتم ايها الاباء أول الأمر ثم أبناؤكم ، وفي الثانية : « نحن نرزقهم وإياكم » أى الأبناء ثم الآباء ان هذا الاختلاف دليل على وجود فرق دقيق ، استلزم هذا التعبير ، وهذه الدقة يجلبها السياق ، فالرزق في الأولى منصب على الآباء لأنهم فعلا فقراء وإلى حاجة إلى الرزق ، فكانت لفظة« من إملاق » معبرة على ذلك وفي الثانية كان الرزق منصبا على الابناء ، وإنهم في كفالة الله ، وان الخشية من الفقر لا تستدعي القتل . فزيادة لفظة « خشية » غير المعنى ، واستلزم ذلك تغييرا في التعبير. ان هذه الدقة النابعة من المعنى تملك عقل الإنسان ، وتدعه ينقب عن خفايا اسرار التعبير القرآني ، وإنه ليندهش، وتنشرح النفس عندما يدرك حقيقة الدقة في تناسق عميق مع السياق . وهذا يشير إلى ما سبق التنويه إليه ، من أن القرآن يكسب دارسه ذوقا ، ويستميله نفسيا . ان تناسق المعاني ، تحققه دقة التعبير ، لتضع المعنى في وحدة متلائمة ، فالفكر منطق ذهني ، تصوغه صيغ ، هي نسخة من هذا التلاؤم والتناسق ، وعبارات القرآن كلها تشهد بذلك، يقول تعالى: « ...فَأَمَّا الذين في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه(29)»،وزيغ: يدل على ميل الشيء ويقال زاغت الشمس،وذلك إذا مالت، وفاء الفيء (30). ان القلوب الزائغة بالشك والخلاف والميل عن الهدى (31) ،والذين يجمعهم في قوله «هم أهل البدع (32)».. ،يبتغون دوما الفتنة،فيؤولون متشابهات الزمخشري القرآن على حسب ما تمليه عليهم هذه الفتنة ، التي جبلت عليها نفوسهم . والقلوب الزائغة تناسبها نفس فطرت على الفتنه ، ولهذا قدمت الفتنة على « التأويل » وكررت لفظة « ابتغاء » مرتين ، وذلك لأن أهل البدع الذين زاغت قلوبهم عن الهدى ، يبتغون – بملء ما في هذه اللفظة من ارادة – الفتنة ، لأن قلوبهم طبعت بطابعها ، فتحرك نفوسهم ، وتدفعهم إلى التأويل وما كانت هذه الدقة إلا لتعبر عن أهمية الغرض القرآني في تعبيره الفني ، ليصل إلى المنافذ الحساسة بالنفس . اننا نلحظ هذه الخاصة عامة في عبارات القرآن يقول تعالى : « لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ

28) الاسـراء 17 : 31
29) آل عمران 3 : 7
30) معجم مقاييس اللغة 40/3 ، 41
31) تفسير ابن عباس . ص : 43
32) الكشاف 338/1

يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم (33) » .

ان الكسب هو الاقتراف عن عمد وقصد، لأن معنى الكسب طلب الرزق (34) ، وهذا يحصل بالجهد والعمل . وان الله لا يؤاخذ باللغو في الأيمان ولكن يؤاخذ ما تضمره القلوب من قصد ونية . يقول الزمخشري : « ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم ، أي اقترفته من إثم القصد إلى الكذب من اليمين وهو أن يحلف على ما يعلم إنه خلاف ما يقوله ، وهي اليمين الغموس (35)» إن الدقة في هذه العبارة تمثله خاصة «بما كسبت قلوبكم» ، فكسب يدل على ابتغاء وطلب وإصابة (36) وهي لفظة حسية ، وأعمال القلب معنوية . واتخذ القرآن التعبير الحسي لتقريب ما هو معنوي وداخل النفس ، فناسب الكسب ما تضمره القلوب عن قصد وهنا يتم التناسق والتلاؤم. والتعبير الدقيق ، هو الذي يستطيع توضيح المعنى المقصود، بسهولة وإيجاز مع التأثير. ان لفظة كسب في القرآن تؤدي دوما دقة في التعبير ، يقول تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم (37) » . إن الإيمان والتقوى يناسبهما كسب الحلال ؛ فانفاق المؤمن يجب أن يكون من بذله وجهده وعرق جبينه ؛ إن « أنفقوا من طيبات ما كسبتم» بها تحديد في ماهية الانفاق ، تمثله دقة التعبير في تناسق عميق . ويقول تعالى ايضا: «أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون (38) » . فالله ليس بظلام للعباد ، وإن ما يكسبه المرء ، يحاسب عليه ، فكأن الإنسان يحاسب نفسه بنفسه .

ان ارتباط المعاني بعضها ببعض في تسلسل منطقي ، تحدثه دقة التعبير القرآني كقوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون (39)» .

ان القارىء ليتوقف عند قوله تعالى « ومخرج الميت من الحي » ، أيعود على فالق الحب أو مخرج الحي. وهنا تتمثل الدقة في التعبير ، إذ أن مخرج الميت تعود على « فالق الحب » ، وذلك للتناسب العميق مع بداية الآية ، اضافة إلى تأكيد بذكره « ان الله » فهو الذي ينسب إليه إخراج الميت من الحي

33) البقرة 2 : 225
34) لسان العرب ، مادة كسب
35) الكشاف 268/1
36) معجم مقاييس اللغة 179/5
37) البقرة 2 : 267
38) يونس 10 : 8
39) الأنعام 6 : 95

ولا تنسب إلى غيره. وقد أشار إلى ذلك الزمخشري بقوله: «فان قلت : كيف؟ قال « مخرج الميت من الحي » بلفظ اسم الفاعل ، بعد قوله يخرج الحي من الميت . قلت عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفاعل . ويخرج الحي من الميت : موقعه الجملة المبينة لقوله : فالق الحب والنوى » ، لأن فالق الحب والنوى بالنبات والشجر النامين من جنس إخراج الحي من الميت لان النامي في حكم الحيوان (40) » .

كذلك نلاحظ الدقة المماثلة في قوله تعالى : « فالق الأصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم (41) ». إن « جعل » معطوفة على فالق ، ولكنها لم تكن اسم فاعل كفالق ، وذلك لما تستوجبه الدقه في المعنى ، وهو أن « جعل الليل سكناً » لم يكن عاماً ، بل بشأن الذين يشعرون بالسكينة ليلا ، وحقيقة الليل أن يبعث الله فيه مثل هذه السكينة. إلا أن هناك من لا يسكن في هذا الليل لأسباب شخصية ، لذلك خص « فالق الأصباح » بالخالق بصورة دائمة ، وجعل الليل سكناً ، خص بالخالق من حيث هدف الليل للذين يعملون في يومهم فقط ، وأن الناس يختلفون في الشعور بهذه السكينة. إن الدقة في ارتباط المعاني وتلاؤمها للمعنى العام للآية تهتم بهما عبارة القرآن ، ويحظى عندها بعناية دقيقة ، يقول تعالى : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (42)» ويقول في آية أخرى : « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (43)» في الأولى « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون »، وفي الثانية « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » فما الدقة بينهما ؟ يجيب الزمخشري بقوله : « فإن قلت لم قيل « يعلمون » مع ذكر النجوم ، « ويفقهون » مع ذكر إنشاء بني آدم ؟ قلت: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرا ، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً لها (43) ». لذلك لا يضع القرآن لفظة أو يصوغ معنى إلا بدقة متناهية.

40) الكشاف 47/2
41) الكشاف 47/2
42) الأنعام 6 : 97 ، 98
43) الكشاف 50/2 ، 51

إن دقة التعبير تدقق المعنى ، وتضع له صيغة دقيقة في التركيب والأداء في قوله تعالى : «مَنْ كفرَ فعليْهِ كُفْرُهُ ، ومَنْ عمِلَ صالحاً فلأنفُسِهِمْ يمْهدُونَ (44)» إنّها على غاية من الدقة ، وقد أحسن الزمخشري في تفسيرها تفسيرا فنياً رائعاً ، فيه لفتات يعتمد عليها الدارس في تخيله لدقة التعبير في هذه العبارة. يقول الزمخشري : «فعليه كفره : كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار ، لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة (45)» . إن من كفر لا يضر إلا نفسه ، وإن نتائجها عائدة على نفسه ... ويستمر الزمخشري في تفسير «فلأنفسهم يمهدون» بقوله : «أي يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه ، وينغص عليه مرقده من نتوء أو قضض أو بعض ما يؤذي الراقد (46)». إنها صورة حسية دقيقة تعكس لنا هدف وجودنا في الحياة — فنحن في دنيانا نمهد لآخرتنا ، وإن حياتنا للآخرة مضمون بما تقدمه في دنيانا من بذل وتقوى واستقامة، وهذا يرمز إلى أنه لا بد من تمهيد لقطف الثمرة. ويشير الزمخشري إلى نقطة فنية في مغزى تقديم الجار والمجرور في «فعليه كفره» و «فلأنفسهم يمهدون» بقوله : «وتقديم الظرف في الموضوعين للدلالة على أن الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه... ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه (46)» . وهنا تتمثل أهمية المعنى ، ورجوعه إلى النفس قبل غيرها ، لأنها هي التي جنت وكسبت.

وكما سبق أن ذكرت ، يهتم القرآن كثيرا بالمعاني ، ويقدم الأهم على المهم ، والذي هو أقرب إلى النفس والوجدان كقوله تعالى : «هذَا بصَائرُ للنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لقوْمٍ يُوقِنُونَ (47)».

إن من مهام الدقة في التعبير هو الأداء الأمين لمغزى العبارة فهي تجمع وتشمل شتات الفكرة ، وتضعه في وحدة متكاملة. فلفظة «بصائر وهدى» و«رحمة ويوقنون» تشترك جميعها ، لتأدية المعنى بقوة ووضوح ، وبصورة طبيعية ومنطقية. فلفظة «بصائر» تفيد من صيغتها الوضوح والنصاعة ، وتستمد ذلك من فطرة القرآن ، وفطرة القلوب الزكية ، وقد ذكرت

44) الروم 30 : 44
45) الكشاف 483/3
46) الكشاف 483/3 . النتوء: الارتفاع . القضض: صغار الحصى (الصحاح).
47) الجاثية 45 : 20

جمعاً وذلك لتبصر القارىء بشمول القرآن لأبعاد البصائر ، بضيائها ونورها وهداها ، وقد فسرها ابن عباس بأنها «بيان (48)». وقال الزمخشري في تفسيره «بصائر للناس» وأنه : «جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب (49)» وإن لفظة «هدى» تشع بالنور والسير في الطريق الطبيعي للحياة ، حيث أن القرآن «هدى من الضلالة (49)» يهدي القلب والعقل. «وبصيرة» سبقت الهدى لأن الهدى لا بد أن يسبقه نور . وإن لفظة «رحمة» لتشع أيضاً بالابتهاج والراحة والاستبشار النفسي فهي : «رحمة من العذاب (49)» .

ونلاحظ بصورة عامة : تقديم بصائر على هدى ، وهذه على الرحمة ، وهذه دقة في المعنى ، على حسب التسلسل المنطقي ، فالقرآن نور ، ويتلو النور الهداية ، وتتلو الهداية الرحمة. إن كون القرآن بمثابة بصائر للناس وهدى ورحمة ، لا يعني بذلك العموم ، بل هنالك خصوص هو لباب هذا العموم ، توضحه الآية بقولها : «لقوم يوقنون» أي «يصدقون بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن (50)». إن لفظة «يوقنون» تشع باليقين والجزم، وتتصل مباشرة بالقلب الطافح بقوة الإيمان.

ويقول تعالى : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (51)» يقول الزمخشري في تفسيره «إلا كافة للناس» : إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم (52). ويقول ابن عباس : «بشيرا بالجنة لمن آمن بالله ونذيرا من النار لمن كفر به (53)» إن بهذه العبارة مفردات ثلاثا: «كافة» و«بشيرا» و«نذيرا»، وقد وضعت الآية في دقة من التعبير ، «فكافة» أفادت الشمول ، و «بشيرا» أفادت ابتهاج النفس بخروجها من ظلمات الجاهلية إلى الإسلام ، وبأن لها حياة أخرى ، ينعم فيها المسلم بالجنة جزاء ما كسب. و«نذيرا» أفادت التحذير ، فالله يحذركم نفسه ، ويضعكم أمام فطرة نفوسكم ، فإن انحرفتم عنها ، فالمأوى جهنم وبئس المصير. إن الدقة في التعبير تسهم في إعطاء المغزى شمولا

48) تفسير ابن عباس ص : 421
49) الكشاف 289/4 / تفسير ابن عباس ص : 421
50) تفسير ابن عباس ص : 420
51) سبأ 34 : 28
52) الكشاف 583/3
53) تفسير ابن عباس ص : 361

عاماً بوضوح جلي. وعبارة القرآن تحرص دوماً — بحكم دقتها — على تنصيص ما يجب التنصيص عليه ، مراعية في ذلك دقة أداء المعنى وأهميته ، يقول تعالى : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (54)». إن جبريل وميكائيل من الملائكة ، فلماذا نص على ذكرهما ؟ وماذا يعني هذا التنصيص والتخصيص لكل من جبريل وميكائيل ؟ ثم لماذا لم يذكرا عقب « وملائكته » ، وذكرا بعد « ورسله » ؟ إنها الدقة في التعبير. ولكي تكون هذه الدقة واضحة ، يحسن أن نذكر سبب النزول. يقول الزمخشري : « وروي أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممره على مدارس اليهود ، فكان يجلس إليهم ، ويسمع كلامهم ، فقالوا : يا عمر ، قد أحببناك وإنا لنطمع فيك ، فقال : والله ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لأني شاك في ديني ، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه سلم ، وأرى آثاره في كتابكم. ثم سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وإن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم : وما منزلتهما من الله تعالى : قالوا أقرب منزلة ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، وميكائيل عدو لجبريل ، فقال عمر : لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدوا لأحدهما كان عدوا للآخر ، ومن كان عدوا لهما ، كان عدوا لله. ثم رجع عمر ، فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَقَدْ وَافَقَكَ رَبُّكَ يَا عُمَرُ. فَقَالَ عُمَرُ لَقَدْ رَأَيْتَنِي فِي دِينِ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَصْلَبَ مِنَ الْحَجَرِ (55) » إن هذه الرواية تساعدنا على تشخيص الدقة في العبارة بإجابتنا عن التساؤلات السالفة الذكر... فجبريل هو العدو الأول في نظر اليهود ، وميكائيل محبوب عندهم — على حسب ظنهم — ، فقدم جبريل على ميكائيل في العبارة ، ونصت العبارة على ذكرهما — وهما من عداد الملائكة — لأن الحديث يدور حولهما ، ولأهمية ذكرهما ، حيث شدة وقعهما على نفوس اليهود ، بإثارة حقدهم وغيظهم ، فتحول نفوسهم إلى أتون من نار محرقة .

54) البقرة 2 : 98

55) الكشاف 169/1

إن التقديم والتأخير في عبارة القرآن يحمل مغزاه العميق ، وليضع المعنى في مكانه المحدد ، وتربطه بإبعاد المعنى العام للآية ، يقول تعالى : « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (56) » .

إن في تقديم « أفغير الله » على « يبغون » دلالة تعرضها رواية سبب نزول الآية. يقول الزمخشري : « روي أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام ، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم ». فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك (57) » . فنزلت هذه الرواية تعكس أهمية المعبود ودينه ، وإنهما أعلق بالنفس والذاكرة ، فوقع التقديم والتأخير في العبارة ، ويؤكد هذا تعليق الزمخشري حيث يقول : « وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله ، لأنه أهم ، من حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل (57) » كذلك نلاحظ تقديم « الله » على « يرجعون » ، لأنه أهم وأبلغ وأكثر تناسقاً بالمعنى والإيقاع.

إن التقديم والتأخير يقع على حسب متطلبات المعنى بالعبارة ، وإنها لا تخرج عن حدود تلك المقتضيات ، وذلك حرصاً على الدقة الفنية في التعبير القرآني. يقول تعالى : « وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ، وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ » (58) .

قدم في الآية الأولى « القتل » على الموت ، وفي الثانية « الموت » على القتل وذلك تبعاً لمعنى كل منهما. فالأولى في سياق تأكيد القتال في سبيل الله على حسب ما تشير إليه الآية التي قبلها ، وما تؤكده خاتمة نفس الآية : « لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ». والثانية في سبيل تأكيد أن الجميع يحشرون إلى الله. والحشر يلجه كل مخلوق ، ابتداء من آدم وانتهاء بآخر أبنائه عند قيام الساعة. وصدق قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (59) ». والموت

56) آل عمران . 3 : 83

57) الكشاف 380/1

58) آل عمران 3 : 157 ، 158

59) الواقعة 56 : 49 ، 50

الطبيعي عرف قبل الموت عن طريق القتال.

وفي الآية تقديم « مغفرة » على « الرحمة » في قوله تعالى : « لمغفرة من الله ورحمة ». فالمغفرة ، سبقت الرحمة ، وهي بذلك توحي أن الإنسان ليس معصوماً من الخطأ ، فهو متلبس بها ، وفي حاجة إلى مغفرة خالقه ، التي تعقبها الرحمة من العذاب في الآخرة ويزيد في تأكيد ذلك لام التأكيد في « لمغفرة ».

وتزداد هذه الخاصية وضوحاً في قوله تعالى : « خَتَمَ اللهُ على قُلوبِهِم وعلى سَمْعِهِم وَعلى أَبْصارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (60)، وفي قوله أيضاً : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إلهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ، وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ، أَفَلاَ تَذَكَّرونَ (61). » نلاحظ في كل من الآيتين لفظة « ختم » في الأولى قدمت القلوب على السمع ، وفي الثانية السمع على القلوب: في الأولى انقطاع من الأتباع إلى الرفع « وعلى أبصارهم غشاوة » وفي الثانية اتباع ، لكنه ينقطع بلفظة « جعل » بدل استمرار فعل « ختم » إن الغرض من تقديم القلب على السمع في الآية الأولى ، هو إثبات صفة الختم على القلوب ، وإنها مقفلة مغلقة ، لا تعي ولا تدرك وإن سياق الآية يثبت هذا ، فالآية التي قبلها صريحة في انغلاق القلوب التي هي موطن الهدى ، وهذه الآية هي قوله تعالى : « إِنَّ الذينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِم أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (62) » وذلك لأن قلوبهم متحجرة ، فأحدثت وقرا في آذانهم ، ففقدوا قلوبهم وأسماعهم. وتقديم القلوب على السمع يشير إلى هذا المنحى وتأكيده

أما الآية الثانية التي قدم فيها السمع على القلب ، فغرضها يتضح من من خلال بعض المقتطفات من تفسير الزمخشري وابن عباس يقول الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى : « ... اتخذ إلَهَهُ هواه » : « أي هو مطواع لهوى النفس ، يتبع ما تدعوه إليه ، يعبده كما يعبد الرجل إلهه. وقرىء آلهة هواه ، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى : يعبد كل وقت واحدا منها (64)».

60) البقرة 2 : 7

61) الجاثية 45 : 23

62) البقرة 2 : 6

64) الكشاف 291/4

فإلهه متنوع على حسب هوى النفس ، وهذا المعنى يفقد النفس الإدراك والوعي. وفي تفسير ابن عباس ما يوضح الدقة توضيحاً جلياً ، وهو أن الختم على السمع غرضه كي لا يسمع الحق ، والختم على القلب كي لا يفهم الحق ، وجعل الغشاوة على البصر كي لا يبصر الحق (65). وهنا نلاحظ أن السمع عادة يسبق الفهم ، ولذلك قدم السمع على القلب. وأن هوى النفس يتبع السمع أولا ، إذ أن اتخاذه إلهه هواه ، هو تابع لمنظر المعبود وشكله وهيئته.. وسياق الآية يدل على ذلك ، فالختم أنصب أولا على السمع ، يتلوه القلب على خلاف الآية الأولى. إن دقة التعبير تحدث عن طريق الدقة في ترتيب الألفاظ على حسب أهمية معانيها ، وتقديم ما حقه التقديم ، وتأخير ما حقه التأخير. يقول تعالى : « اللهُ الذي جَعَلَ لكُمُ الأنعامَ لتركبوا منهَا ومنْهَا تأكُلُونَ (66)» يقول الزمخشري : « الأنعام : الإبل خاصة » إن الإبل عزيزة عند العرب ، وهي تستعمل عادة للركوب ، ولتحقيق أغراض دينية كالحج والغزو وبلوغ الحاجة بالهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم (67) أو لقضاء مآرب شخصية. ولأهمية الإبل عند العرب قدم الركوب على الأكل ، لأن أكل لحوم الأنعام يأتي بالدرجة الثانية. ومادامت الآية تتحدث عن الإبل ، قدم الجار والمجرور في قوله تعالى : « ومنها تأكلون » وهذا يوحي بأنها نعمة من الله على عباده أبناء الصحراء بوجه خاص.

إن بالعبارة مجموعة من المفردات ، محكمة في وضعها وترتيبها وسبكها ، ودقيقة في معانيها ، وكلها تؤدي محتوى العبارة بدقة في النظم والصياغة. يقول تعالى: « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ على حياةٍ . مِنَ الذينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (68)». إن الضمير في ولتجدنهم يعود على اليهود ، فإنهم يكرهون الموت : « وإنما كراهتهم الموت لعلمهم بما لهم في الآخرة من الخزى والهوان الطويل (69) ».

65) تفسير ابن عباس ص : 421

66) غافر 40 : 79

67) الكشاف 181/4

68) البقرة 2 : 96

69) جامع البيان في تأويل القرآن 370/2

إن دقة التعبير في الآية أسهمت فيها كل مفرداتها ، ولا سيما : « ولتجدنهم » و « احرص » و « على حياة » و « يود » و « يعمر » « وبمزحزحه ». إن ولتجدنهم بصيغتها المؤكدة باللام والنون الثقيلة ، و « احرص » بصيغة أفعل التفضيل ، وهي تعبر على نهاية حرص النفس على البقاء في الدنيا ، و « على حياة » بصيغة النكرة ، لأن القرآن « أراد حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة (70) » هي مطاق حياة ، و « يود : من الود وهو الرغبة الشديدة في النفس وهي كلمة تدل على محبة (71) » . و « يعمر » بصيغتها المشددة ، وإيقاعها المشبع بجشع النفس ، والحب الشديد في البقاء ، و « بمزحزحه » الذي يدل فعله على البعد. يقال زحزح عن كذا أي بوعد (72). والزحزحة تعني « التبعيد والإنحاء (73) » ، وهي تحمل جرساً خاصاً ، وتحدث نوعاً خاصاً من الاهتزاز أيضاً ، والآية تحمل طابعاً من التوبيخ لأن النفس التي تنحرف عن طبيعتها وفطرتها ، تستحق أكثر من التوبيخ وا لإحتقار. وهكذا تؤدي العبارة بمجموع مفرداتها ، وما تحمله من أداء فني ، دقة تعبيرها ، لتكون أبلغ وأشد وقعاً على النفس.

والدقة تأتي أيضاً من دقة وضع اللفظة بمحتواها الحسي ، لتقل صورة ذهنية ، وتعرضه في صيغة محكمة ، شاملة للمعنى المقصود ، كقوله تعالى : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (74) » . إن الكسب لفظة حسية ، بها بذل وجهد ، ينتج عنها لذة في العمل. والذي يكسب سيئة « يعني كبيرة من الكبائر (75) » ، وتحيط به خطيئة أي تستولي عليه ، كما يحيط العدو ، ولم ينفص عنها بالتوبة هو خالد بالنار. إن اجتراح الخطيئة ، مبعثه لذة في الإقتراف ، ولذلك أحاطت بنفسية المقترف ، وهو يشعر بلذة اقترافها. إنها دقة في التعبير لتنقل أذهاننا إلى صورة حية عن نفسية مجترح الخطيئة ، وهو يكسبها بعرق جبينه ، وبابتهاج نفسي ولذة روحية .

70) الكشاف 168/1
71) معجم مقاييس اللغة 75/6
72) المصدر نفسه 7/3
73) الكشاف 168/1
74) البقرة 2 : 81
75) الكشاف 158/1

ويبدع المفكر سيد قطب في تفسيرها حيث يقول : « الخطيئة كسب! إن المعنى الذهني المقصود هو اجتراح الخطيئة. ولكن التعبير يومىء إلى حالة نفسية معروفة... إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عن عادة ، وهو يلتذها ويستسيغها ، ويحسبها كسباً له — على معنى من المعاني — ولو أنها كانت كريهة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً ، وما تركها تملأ عليه نفسه وتحيط به عالمه ، لأنه خليق لوكرهها وأحس ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها ، حتى لو اندفع لارتكابها وأن يستغفر منها ويلوذ إلى كنف غير كنفها. وفي هذه الحالة لا تحيط به ، ولا تملأ عايه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتفكير.. وفي التعبير « وأحاطت به خطيئته » تجسيم لهذا المعنى. وهذه خاصية من خواص التعبير القرآني ، وسمة واضحة من سماته ، تجعل له وقعاً في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة ، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة . وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظلام الذي يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته ، يعيش في إطارها ويتنفس في جوها ، ويحيا معها ولها (76) ».

إن دقة المعاني لتحتاج إلى براعة ودقة في التعبير ، فقوله تعالى : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (77) » ، على غاية من الدقة في التعبير . إن البشر يعيشون على نفس الساعة ، وأرجى قيامها ، لتجزى كل نفس بما تسعى ، إن التعبير : « أكاد أخفيها » يضع نفوسنا على حافة الساعة ، بل قاب قوسين أو أدنى منها. قال الزمخشري في تفسيرها : « أي أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ، ولولا ما في الأخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما اخبرت به (78) » . وخفاه تحمل معنيين: الأول : إذا كتمه ، والثاني : إذا أظهره (79) وقد جاء في بعض اللغات: أخفاه بمعنى خفاه (78) فقوله تعالى : « أكاد أخفيها » كناية عن قربها ، وإيحاء بحقيقة وقوعها ، فهي ليست مجرد وجود نظري ، بل تحت ظلالها نعيش ، وهذا من لطفه سبحانه وتعالى إذ جعل من الدقة الفنية في التعبير وسيلة لتقريب معاني حقائق الآخرة إلى

76) في ظلال القرآن 112/1
77) سورة طه 20 : 15
78) الكشاف 56/3
79) الكشاف على هامش 56/3

مداركنا وحواسنا ونفوسنا، ولكي نعايشها وندرك حقيقة وجودنا وهدفها في الحياة.

واللفظة عندما تحتل مكانها ، ولا تجد بديلا عنه ، وتتجاوب معناها مع المعنى العام للعبارة ، حيث تبعث الدقة في الفهم ، والتحديد في الذهن، — تسهم في دقة التعبير، كما في قوله تعالى : «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب (80).» وأولو الألباب هم «ذوو العقول من الناس»، وهم الذين يملكون عقولا فطرية صافية، مطواعة لأوامره تعالى، وقرآنه والعمل الصالح. وليس كل من يملك عقلا يستطيع — عند سماعه للقول — أن يتبع أحسنه ، فالعقول متنوعة ، والعقل الذي يتعظ هو الذي يستوعب لباب ما في العقول من فطرة وصفاء وطواعية لعمل الخير. والألباب مشتقة من لباب الشيء وهو خير ما فيه أي خالصه وخياره (81). وهنا تتمثل الدقة في التعبير التي أسهمت في إبرازها لفظة أولو الألباب. ومن أمثال ذلك قوله تعالى : «هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (82)» إن التدقيق في التعبير هنا هو هذا الحصر بما والا ، والمعنى الذي تضفيه لفظة «ينيب». فإن الذي يتعظ بالقرآن هو ذاك الذي يرتمي بكليته في أحضان القدر : «وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه (83)». فالإنابة هي الرجوع والإقبال على الله ، وقطع حبل الإدبار قطعاً باتا ، ويصدق فيه قوله تعالى : «وما يتذكر إلا أولو الألباب». والقرآن وهو صدى لتجارب حية ، يمس العقيدة ومعالمها النفسية — يتحكم في اللفظة ، ولا يدعها تلقى جزافاً ، ولذلك قال تعالى : «ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض (84).» ولم يقل ألم تعلم أو تخبر أو تنبأ. قال ابن عباس في تفسيره لها : «ألم تخبر في القرآن يا محمد (85)». والرؤية تعني النظر بالبصر. ودقة التعبير هنا هو أن علم الرسول اليقيني الذي لا يشوبه شك ، حل في نفسه ، وأحال الرسول ، وكأنه يشاهد بنظره وبصره. فخاطب

80) الزمر 39 : 18

81) لسان العرب ، مادة لب

82) غافر 40 : 13

83) الكشاف 156/4

84) المجادلة 58 : 7

85) تفسير ابن عباس ص : 461

القرآن بقوله «ألم تر» ، إشارة إلى وضوح علم الله لما في السماوات والأرض في نفس الرسول ، والعقيدة إذا تمكنت وتغلغلت في نفس صاحبها ، يبدو كل شيء — في ظلالها — واضحاً وضوح الشمس. وتستحيل إلى قوة مادية صلبة ، شديدة التأثير. ويقول تعالى : «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (86)». لقد خص القرآن الهداية بالقلب في قوله «يهد قلبه». يقول ابن عباس عند تفسيره لها : «يهد قلبه للرضا والصبر. ويقال إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا ظلم غفر ، وإذا أصابته مصيبة استرجع يهد قلبه للاسترجاع (87).» فالقلب مكان الهداية ، وإذا هدى الله أحدا ، فهدايته تحل في الموضع الذي تتحقق فيه الهداية. وليس هنا أشد حساسية من القلب. هذه الدقة في التعبير ، ترمي إلى تحديد الهدف من المعنى العام للآية.

إن تشخيص المعنى وتحديد أبعاده ، يستلزم دقة في التعبير ، وأداء محكماً لمغزاه ، وعناية بمواطن الإثارة التي يقوم بها التعبير. يقول تعالى : «ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله ، يجد الله غفوراً رحيماً (88)». يقول الزمخشري : «وقيل: ومن يعمل سوءا من ذنب دون الشرك ، أو يظلم نفسه بالشرك (89)». وهذا التفسير يحدد دقة معنى كل من السوء ، وظلم النفس ، فالسوء مطلق ذنب ما عدا الشرك. وشرك النفس ، عبر عنه القرآن بظلم النفس. وهنا تتمثل الدقة ، ففي هذا التعبير ما يشير إلى أن النفس البشرية مطبوعة بفطرتها على عدم الشرك ، فإذا أشركت ، فقد ظلمت نفسها. وقد أحسنت العبارة حين صاغت هذا المعنى بهذه الصيغة : «... أو يظلم نفسه». ومن منا يحاول ظلم نفسه ؟ إن الانحراف عن طبيعة النفس وفطرتها ، محاولة لظلمها والجناية عليها.

إن الإحاطة بالمعنى العام ، والشمول لكل دقائقه يحتاج إلى أداة دقيقة في التعبير. يقول تعالى : «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم (90)». إن العبارة لم تكتف بإشعار الإنسان بعدم استطاعته في العدل بين النساء بل مسه من جانب تقواه ، لأن المتقي يحرص

86) التغابن 64 : 11

87) تفسير ابن عباس ص : 474

88) النساء 4 : 110

89) الكشاف 563/1

90) النساء 4 : 129

على العدل ، فالله في نفسه وكل حواسه. وعدم استغناء العبارة عن «ولو حرصتم» كان لشمول المعنى ، والتدقيق فيه. فالعدل بين النسوة : «أمر صعب بالغ من الصعوبة حدا يوهم أنه غير مستطاع ، لأنه يجب أن يسوي بينهن في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والممالحة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها لا يكاد الحصر يأتي من ورائه. فهو كالخارج من حد الإستطاعة. هذا إذا كنّ محبوبات كلهن ، فكيف إذا مال القلب مع بعضهن (91) ». فالتأكيد على الحرص يشير إلى النفس التقية ، وهي تأمل وتجهد في بذل حرصها على تحقيق العدل. إن هذا الجهد النفسي ، أكد أنه لا يحول دون الميل لإحداهن أو بعضهن عن الأخريات.

هذه الدقة التي حققت الشمول في المعنى ، تقوم مقامها — أحيانا — دقة في الوصف ، فتضفي على العبارة مغزاها العميق ، وذلك كقوله تعالى : «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (92) » إن فحش : كلمة تدل على قبح في شيء وشناعة ، من ذلك الفحش ، والفحشاء والفاحشة. يقولون كل شيء جاوز قدره فهو فاحش. ولا يكون ذلك إلا فيما يتركه . إن من الدقة في التعبير إنها تبدو من دقة الوصف الشامل لمعطيات الزنى كزنى في حد ذاته ، وكجريمة اجتماعية ، تمس مباشرة قيمه ومثله وأخلاق أفراده . ولفظة فاحشة تعني : «قبيحة زائدة على على حد القبح (93)». ويفسر الزمخشري : «وساء سبيلا» بقوله : «وبئس طريقاً طريقه ، وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب ، والسبب ممكن ، وهو الصهر الذي شرعه الله (92)» إن مسلك الزنى سيء ، لأنه لا يمس الزانيين فقط ، بل يمس علاقة الكائن الإنساني ببني جنسه ، والعلاقة هي الصورة الرمزية للتجاوب الطبيعي للنفوس البشرية ، وإن هذه العلاقة تفسد ، إذا انصب الفساد على من هو أقرب إلى النفس وألصقها رحماً ، ولذلك كانت دقة التعبير في وصف الزنى بالفاحشة مؤدياً هذا كله وأكثر.

إن حرص القرآن على أداء المعنى بدقة وأمانة ، لأنهما يعطيان للعبارة مغزاها وللقارئ وضوحاً وبياناً. فمخاطبة الله للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله : «يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ ، تَبْتَغِي

91) الكشاف 572/1
92) الاسـراء 17 : 32
93) الكشـاف 664/2

مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (94) ». بكاف المخاطبة المفرد في الآية الأولى وبكاف الجمع في الثانية ، دليل على وجود سبب اقتضى ذلك. ويبدو لي أن الأولى تفيد التأنيب بتأدب، وإن وردت في عديد من الآيات بنفس الخطاب ، إلا أن السياق هنا يفيد ذلك ، وفي الثانية خوطب الرسول بـ « كم » وذلك لأن سبب التأنيب زال ، فقد غفر الله له ، وكان رحيماً بيمينه التي حرم فيها ما أحله الله له من التزوج بمارية القبطية.

إن الدقة تتحقق في القرآن أيضاً بضمير الشأن. يقول تعالى : «جَنَّاتُ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (95)» ، ولم يقل « إن وعده كان مأتيا» ، وذلك لأن ضمير الشأن هنا يلفت النظر ، ويحرك العقل والمخيلة ، ويدعها تتوقف قليلا ، ليعيد إلى الذاكرة سياق الآية. فتكون العبارة بذلك أدق وأبلغ وأوقع على النفس.

وأختم هذا التحليل بالدقة التي تفيدها صيغة الفعل المبني للمجهول والمعلوم كما في قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (96)». إن المنافقين الذين يترددون على الرسول ، ويتظاهرون بالإيمان ، وقلوبهم كافرة ، أولئك «طُبعت» قلوبهم. لقد أصيبت القلوب بالصدإ الشديد ، فعميت عن الحقائق. وأصبح المنافقون لا يدركون ولا يفهمون شيئاً. فبناء صيغة الفعل «طبعت» للمجهول يتناسب والجو العام للآية ، فالحديث عن المنافقين كان بصيغة الماضي ، والآية بصدد عرض حالهم النفسية بشيء من الاحتقار واللامبالاة . فناسب كل هذا لفظة «طبع» بالبناء للمجهول. وقد وردت اللفظة وهي مبنية للمعلوم في عديد من الآيات كقوله تعالى : «وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (97) » و « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (98)» و « أُولَئِكَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (99) » فبناء « طبع » للمعلوم في الآيات الثلاث تابع للمعنى ، وإن ذكر الفاعل وهو الله يؤكد هدف المعنى مباشرة ،

94) التحريـم 66 : 1 ، 2
95) مـريم 19 : 61
96) المنافقـون 63 : 6
97) الاعـراف 7 : 100
98) الاعـراف 7 : 101
99) النحل 16 : 108

ويخاطب النفس وجهاً لوجه ، وليكون الوقع أشد. إن صيغة التهويل التي تشير إليها الآيات السالفة الذكر ، والنابعة من لفظة « طبع » المبنية للمعلوم – تحدث جوا تسوده نغمة الخالق بجبروته وقدرته ، وذلك لترتدع وتتعظ.

2) – الإحكام في عبارة القرآن :

إن عبارة القرآن خالية من أي خلل فني ، فهي متراصة الألفاظ ، بدقة وحسن في الرصف والترتيب ، وقائمة على الوحدة العضوية للأفكار متسلسلة متناسقة ، يجمعها منطق في الصياغة وسلامة في النظم. وهذا الإحكام متوفر في آيات التشريع والأحكام وفي غيرها من آيات القرآن.

أ – الإحكام في آيات التشريع والأحكام :

للاحكام طرق عديدة ، منها أن تأخذ ألفاظ العبارة مواضعها ، وترتب على حسب الأهمية ، وتكون متينة في سبكها وصيغتها وتحمل في نظمها قوة الإيحاء. يقول تعالى : « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ، أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ، أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ. وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) ».

إن الإحكام في ترتيب الألفاظ والمعاني لهذه الآية ، وإن المقدرة التي أبدعت في السبك والتنسيق ، وإحلال الألفاظ في مواضعها ، وإضفاء صورة نابعة من أعماق القرآن ، تتجلى عند قراءة هذه الآية والوقوف عندها. لقد بدئت الآية بغض البصر قبل حفظ الفروج « لأن النظر بريد الزنى ، ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشد وأكثر ، ولا يكاد يقدر على الإحتراس منه (101)». ويلي ذلك عدم إبداء الزينة، ثم يأتي في المرحلة الثالثة إسدال الخمور على النحور والصدور ، ويؤكد في المرحلة الرابعة عدم إبداء الزينة

100) النـور 31/24
101) الكشـاف 230/3

إلا لمجموعة معدودة في الآية. وهنا يقال : لم كرر عدم الزينة مرتين؟ إنها في الأولى تابعة في الأمر بغض النظر وحفظ الفروج ، وفي الثانية في الأمر بضرب الخمور على الجيوب حيث يسمح برفع القناع – وتبدو عند ذاك الزينة – لمجموعة عددتها الآية أيضاً. بعد ذلك ترتب الآية هؤلاء الذين يسمح للمرأة أن تبدي أمامهم زينتها على حسب القرابة إلى نفسها وروحها وحياتها وشهواتها ، ويأتي في طليعة هؤلاء الزوج ، ثم أبو الزوجة ، وهي أقرب رحماً إليه ، ثم أبو الزوج ، وهو يقل في الرتبة من أب الزوجة ، وهو أقل حناناً عليها من أبيها كما أنه قد تحركه الشهوة إزاءها. ثم أبناء الزوجة الأولين ، ثم أبناؤها من الزوج الحالي ، وقدم الأول لأنهم عادة يكونون بعيدين عنها بسبب الكبر ، أو احتضانهم الأب بعد الحضانة المخولة شرعاً ، أو لمكانتها في نفس الأم باعتبارهم بكارة ولادتها ، ثم يأتي إخوانها وبنوهم وبنو إخوانهم... إلخ... وهناك ملاحظة هي تقديم التابعين غير أولي الإربة (أي الشهوة أو الحاجة) من الرجال على الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء. ففي هذا التقديم غمزات وهمزات وهزات نفسية ، قد تتوفر في الأطفال دون الرجال الذين اشترط فيهم القرآن أن يكونوا خالين من الشهوة أمام زينتهن.

ونلاحظ في قوله تعالى: « وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » صورة الاحتشام التي يفرضها الإسلام في مشية المرأة ، وفي التعبير دقة ، حيث أن ضرب الأرجل بعضها لا يكون إلا عن عمد وقصد ، وقليلا ما يحدث صدفة ، لذلك أكدت الآية ، وكذلك من طبيعة المرأة حب عرض جمالها وزينتها ، وهذا ما توحي به العبارة أيضاً.

وفي ختام الآية ، يتم الإحكام بدقة معنوية وفنية بقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » لقد كان الحديث في الآية مُنْصَبّاً على ما يجب أن تكون عليه المرأة ، وفي الخاتمة يجمع بين المرأة والرجل ، ويوجه خطابه تعالى بقوله : « وتوبوا... أيها المؤمنون... » وفي هذا إشعار بأن المرأة لا تستطيع أن تحقق ذلك إذا لم يلتزم الرجل بمضمون الآية التي قبلها ، وهي قوله تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (102) » ، هذا من جانب ،

102) النـور 24 : 30

ومن جانب آخر ، فإن الدقة في اختتام الآية بتوجيه النصح للمؤمنين والمؤمنات ، بالتزامهم التوبة يوضحه الزمخشري بقوله : «إن أوامر الله ونواهيه في كل باب لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها ، وإن ضبط نفسه واجتهد. ولا يخلو من تقصير يقع منه ، فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار ، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا (103)».

هذه الغزارة في الأفكار ، وهذا الإحكام في تأديتها ، وهذه اللمسات النفسية ، واللقطات الفنية ، تتوفر بوضوح في عبارات التشريع والأحكام ، التي تلتزم عادة الجفاف ، بحكم ما يفرضه الأداء العلمي للحقائق ، ولكنها في القرآن تجمع بين الأسلوب العلمي والأدبي الذي يشع حيوية وإثارة ، ويلمس الوجدان في أعماقه. إن آية الأحكام تحافظ على دقة الأداء بوضوح. يقول تعالى «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)».

إنه لأهمية الحكم، وفظاعة الذنب، ابتُدئت الآية هكذا : «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» وقدمت الزانية على الزاني، لأنها أقرب إلى ارتكابها وإن المرأة ضعيفة أمام شهواتها. وهذا التصدير يحصر الذهن فيما يترتب على ذلك من حكم. ثم يأتي الحكم بالجلد مائة جلدة ، والجلاد في الإسلام لا يخشى في الله لومة لائم ، فهو محاسب أمام الله في كل جلدة ، وفي الحديث النبوي : «يُؤْتَى بِوَالٍ نَقَصَ مِنَ الْحَدِّ سَوْطاً ، فَيَقُولُ رَحْمَةً لِعِبَادِكَ ، فَيُقَالُ لَهُ : أَأَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ. وَيُؤْتَى بِمَنْ زَادَ سَوْطاً ، فَيَقُولُ : لِيَنْتَهُوا عَنْ مَعَاصِيكَ ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ (105). » ولأهمية إقامة الحدود ، أكدت الآية على شدة التمسك بذلك ، وإن من يسير في هذا الطريق ، هو ذاك الذي يؤمن بالله واليوم الآخر . يقول الزمخشري : «إن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ، ويستعملوا الجد والمتانة فيه ، ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده ، وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة في ذلك حيث قال: «لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا. (106)»

103) الكشاف 233/3
104) النور 2/24
105) الكشاف 209/3 ، 210
106) الكشاف 209/3 ، 210

فتأكيد الآية إقامة الحد على الزانية والزاني ، وتعزيز هذا الحكم بالتنبيه على الصلابة والشدة ، وأنها لا تتوفر الا لمن آمن بالله واليوم الآخر ، ينحصر في مقصد القرآن الذي اعتبره الزمخشري: «من باب التهيج وإلهاب الغضب لله ولدينه (106)» وعن أبي هريرة : «إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (107)».

إن الإحكام في هذه الآية يرجع إلى دقة الترتيب في المعاني ، وحسن التعقيب عليها ، وأخذ الألفاظ مواضعها وهي متراصة متلاحمة ، وذلك للمس الوجدان ، وإثارة الغيرة والحمية على دينه . هذا فيما يخص الزانية والزاني ، فلننظر فيما يخص السارق والسارقة في قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (108) ». «لقد صدرت الآية بالسارق والسارقة ، وقدم الأول على الثاني ، لأنه أقرب إلى اقتراف جريمة السرقة ، وكذلك يشير هذا التصوير إلى فظاعة الذنب ، ليلفت النظر ، ويحصر الذهن . إن الآية أمدتنا بحكم السارق والسارقة ، وأشارت إلى سبب هذا الحكم جزاء لما كسبته أيديهما ، وعبر بالكسب ليدرك القارىء أنها لم تكن عن اضطرار ، بل عن رغبة ، ثم عقب على هذا الجزاء بأنه نكال من الله ، فيه الحكمة والزجر ، ثم ختم الآية بأن الله عزيز حكيم ، أي عزيز بالنقمة من السارق ، وحكيم عند اتخاذه القطع كجزاء للسارق والسارقة (109) ».

وهكذا نلمس قوة الإحكام ومتانته في آيات التشريع ، وإن أية نظرة لأي آية من هذه الآيات ، كآية ذكر المحرمات (110) التي اتبع فيها ترتيب على حسب الأهمية مثلا ، تعكس النموذج الذي سبق تحليله. فالدقة ، والإحكام ، ومراعاة أهمية إقامة الحدود، وصياغة الأحكام ، يحتفظ فيها بأسلوبه العلمي : حيث الأداء الأمين للحقائق ، وبأسلوبه الأدبي : حيث الإثارة والحيوية والوقع النفسي ، والصور وظلالها وإيحاءاتها بقدر الحاجة ، وبمقدار متطلبات أداء الغرض الديني.

ب ـ الإحكام في غير آيات التشريع :

107) الكشاف 210/3
108) المائدة 5 : 38
109) تفسير ابن عباس . ص : 93

إن الخصائص التي سبق ذكرها في آيات التشريع تتكرر في غيرها ، لتقوم بدور إحكام العبارة ، فرصف الألفاظ ، وتراصها وترتيبها وتماسكها وقوة سبكها ، والتسلسل المنطقي في محتواها تسهم كلها في إحكام عبارة القرآن بشكل يلاءم وجو الآية وموضوعها. يقول تعالى: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ (111) ».

نلاحظ في هذه الآية تسلسلا منطقياً في خلق الإنسان ، فبعد أن خلق الله جوهر الإنسان من سلالة من طين (112) – والسلالة هي الخلاصة ، لأنها تسل من بين الكدر – جعل جوهره بعد ذلك نطفة (113) . – والنطفة تقذف ليكون مكانها الرحم ، فهي في قرار مكين. ثم تتطور النطفة إلى علقة ، فمضغة ، فلحم فجنين ، والله قدير على إخراجه من ظلام الرحم في حالة يختلف بها عما كان عليه. وعبر القرآن عن ذلك بصيغة الماضي في « أنشأناه خلقاً آخر » بدل « ثم ننشئه خلقاً آخر » وذلك لأنه في حكم النشأة منتهياً ، وعلى مسرح الكينونة مقدرا. إن هذا التسلسل بالصيغة التي وردت في الآية من تكرار النطفة والعلقة والمضغة والعظام وخلقناه ، وكان في الإمكان إحلال الضمير المتصل محل كل منها إن في هذا ما يشير إلى التأكيد في النفس بالتدبر في جوهر خلقتها وذاتها ، ولتحريك المخيلة لتدرك دقة خلقة الإنسان في نفسها. إن هذا التكرار ينسجم وطبيعة النفس ، وليس به أدنى خلل لأنه عامل منبه ، يمس جوهر النفس ، والإنسان شديد الرغبة إلى معرفة جوهر كيانه وخلقته ، فكان الإحكام المبني على متانة في السبك والرصف والتسلسل المنطقي في المعنى. ومن الدقائق الفنية المحكمة تكرار ، « ثم » مرتين في قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفة ..» وقوله « ثم خلقنا النطفة..» و « ثم » هنا تفيد سعة في الوقت ، فبعد أن خلق الله جوهر الإنسان من الطين ، جعل منه نطفة ، ثم قال : « خلقنا النطفة...» وفرق بين « جعل ، وخلق » ، ولذلك دعت الحاجة إلى الربط بثم.

111) المؤمنون 23 : 12 ، 13 ، 14

112) الطين : آدم . هكذا وردت في تفسير ابن عباس . ص: 285 .

113) الكشاف 178/3

ويتبع هذه الدقة الفنية تكرار الفاء على حسب منطق ترتيب المعاني ، حيث الصلة المباشرة والمتينة لبعضها ببعض التي يفرضها نمو الجنين ، فيسير في طريقه الطبيعي للخلقة... وفي الأخير نلاحظ العطف « بثم » في قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقاً آخر... » وهذا من دقائق الربط المحكم ، حيث أن ما سبق « ثم » يحتاج إلى فترة من الزمن ، فالإنسان ينمو في الرحم ، ثم يقضي فترة من حياته ، ثم يموت ، ثم يبعث ثانية بإنشائه خلقاً آخر. وهكذا أتت « ثم » لتؤدي هذا المعنى. وإن حسن التعقيب في الآية بقوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » امتداد محكم ومناسب لمعنى الآية العام. فالقادر على خلق الإنسان بهذه الدقة المتناهية ، يستحق الإعجاب المعجز ، وتفاني مخلوقه في تعظيمه وتوحيده. وإن النفس لتنطق بهذه الخاتمة عند الإمعان والتدبر ، فقد « رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ خَلْقاً آخَرَ ، قَالَ : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ » وروي أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنطق بذلك قبل إملائه ، فقال له النبيء صلى الله عليه وسلم : « اكْتُبْ هَكَذَا نَزَلَتْ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيّاً يُوحَى إِلَيْهِ فَأَنَا نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيَّ ، فَلَحِقَ بِمَكَّةَ كَافِراً ، ثُمَّ أَسْلَمَ يَوْمَ الفَتْحِ . (114)».

ولصلة هذه الآيات السالفة بآيتين بعدها ، يحسن ذكرهما ، وتوضيح معالم الإحكام والتناسق فيهما ، يقول تعالى « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (115) ».

إن التأكيد بـ« إن » « الثقيلة ، واللام في « لميتون » ، وتقديم الظرف « بعد ذلك » عليها ، وتكرار « ثم إنكم » مرتين ، تؤكد كلها ما بها من إيجاز محكم ، غزير بالمعاني ، حيث رصف الألفاظ على حسب المعاني ، وأهمية هذه المعاني أيضاً. فلكل معنى درجة ، والدرجات تختلف ، وهي في القرآن تتناسب ومقتضيات العبارة. ثم نلاحظ كذلك الشيء نفسه في الآية الثانية ، وإن خلت من لام التأكيد في « تبعثون ». ولعل السبب أن الآيات السابقة نصت على خلق الإنسان من لا شيء ، وأشارت إلى البعث بقوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » ، أي جعلنا فيه روحاً وقدرة الكائن الحي. فإذا كان الله قديرا على خلقنا من العدم ، فمن اليسير إعادة

114) الكشاف 178/3 ، 179

115) المؤمنون 23 : 15 ، 16

خلقنا ثانية ، بل من المنطق أن نعود ، لنجازى ، إذ لم نخلق في هذه الحياة سدى. وهذه الإشارة قد تغني الآية الأخيرة «...تبعثون» عن التأكيد باللام. والله أعلم.

إن تراصّ الألفاظ كوحدة متلاحمة ، وصوغ العبارة بإيجاز مشبع بالمعاني ، وهي في وحدة متناسقة ، تدع العبارة على غاية من الإحكام. يقول تعالى : « فأوْجَسَ في نفْسه خيفةً مُوسى (116) » أي « أضمر موسى في قلبه الخوف. خاف أن لا يظفر بهم ، فيقتلون من آمن به (117)». إنه الإحكام ، والقوة في المعنى بإيجاز بديع. يقول الزمخشري : «إيجاس الخوف : إضمار شيء منه. وكان ذلك لطبع الجبلة البشرية ، وإنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله. وقيل أن يخالج الناس شكر فلا يتبعوه (118)». إنها صورة نفسية تعرض بكل انفعالاتها وحركاتها. وإن لصيغة « أوجس » وقعاً خاصاً على النفس ، خاصة جرسها ونطق حروفها : « الجيم والسين »

وتليها الآية كجواب لهذا الإيجاس ، لتبعث الطمأنينة في موسى ، « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (119) » : كلمتان أوجزتا رعاية الله لموسى ، وأنه في أحضان الحماية ، إنهما «لا تخف » و« أنت الأعلى ». يقول الزمخشري في حق هذه الآية : « فيه تقرير لغلبته وقهره ، وتوكيد بالإستئناف وبكلمة التشديد ، وبتكرير الضمير ، وبلام التعريف ، وبلفظ العلو ، وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل (120) ». إن العبارة لتهز النفس ، لتضعها في ثقة كاملة بالنصر والفوز : « إنك أنت الأعلى »، أنت وحدك يا موسى ، الظفر حليفك ، وبئس عدوك. ويؤكد هذا المعنى الضمير المتصل في « أنك » بالضمير المنفصل « أنت » ولفظة « الأعلى » بصيغة أفعل التفضيل ، وتعريفها بالألف واللام.

إن من صور الإحكام أن تلتقي المعاني ، وينفرد كل منها بمغزاه ، وتنتهي بتعقيب يربط أجزاءها ، ويدع ألفاظها في وحدة متراصة ، وأفكارها في إطار متكامل ، كقوله تعالى : « سُورَةٌ أنْزَلْناها وفَرَضْناها وأنْزَلْنا فيها آياتٍ بيناتٍ لعلّكُمْ تذَكّرُونَ (121) ». ابتدأت العبارة بلفظة « سورة » دون ذكر للمبتدأ ، وذلك للتنبيه ، ولفت النظر ، وتجسيم

116) طه 20 : 67

117) تفسير ابن عباس ص : 263

118) الكشاف 64/3

119) طه 20 : 68

120) الكشاف 74/3

121) النور 24 : 1

أهميتها بالذهن. إنها طبعت بنغمة إلهية ، حيث الخالق يتحدث ، وأفعالها الثلاثة : « أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها » مشبعة بالروح الإلهية ، فالضمير المتصل « نا » المكرر ثلاث مرات ، يفيد هذه الإشارة...إن الأولى تخص السورة بالإنزال ، والثانية تخص محتواها من حيث احتواؤها على الفرائض ، وهي توحي — في الوقت نفسه — بوجوب أداء هذه الفرائض ، التي نزلت من حكيم عليم ، والثالثة تخص عموم السورة من حيث المغزى ، ففيها آيات بينات ناصعة ، علها تهدي الإنسان ، وتذكره وتدعه يعمل بمقتضاها ، فما فيها هو جزء من ناموس إلهي ، وهو القرآن الكريم. إن هذه الأفعال المتوالية ، والمتعاقبة ، الواحدة تلو الأخرى ، تنبئنا بعظمة ما فيها من تشريع وأحكام ، وأن الإحكام الذي يجمع بين هذه الأفعال بدون وجود أي خلل فني أو معنوي ، يبدو واضحاً من خلال حسن الرصف ، وتلاقي المعاني ، ثم تنتهي بلمسة نفسية هادئة ، هي قوله تعالى : « لعلّكُمْ تذَكّرُونَ ».

إن السبك والمتانة ، وحسن التعبير وتماسكه ، وقوة التناسق ، تضع صفة الإحكام في قوتها ومتانتها ، يقول تعالى : « ... وإنّه لكتابٌ عزيزٌ ، لا يأتيه الباطلُ منْ بيْنِ يديْهِ ولا منْ خلْفِه ، تنْزيلٌ منْ حكيمٍ حميد (122)». « كتاب عزيز أي كريم شريف (123) ». وعند الزمخشري «منيع محميّ بحماية الله تعالى (124)». إن التأكيد على أن الكتاب عزيز حصل — إضافة إلى دلالة الصيغة : «عزيز — » من التأكيد بـ«إن» المشددة ، ولام التأكيد ، ثم الشرح الذي قامت به الآية الثانية : « كأن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به (125)» إنه خال من الباطل ، لا يأتيه ذلك من داخله ولا من خارجه برغم ما يتقول فيه ، فهو حصن حصين ، فالكتب السماوية تؤيده ، وليس هناك كتاب بعده استطاع أن يحل محله ، إنه تنزيل من حكيم حميد ، ولذلك حق فيه قوله تعالى : « إنّا نحْنُ نزّلْنا الذّكْرَ وإنّا لهُ لحافظُونَ (126)». هذا المعنى للآية ، تؤديه ألفاظ صيغت في وحدة تركيبية منظمة ، يجمعها الإحكام المتين ،

122) فصلت 41 : 41 ، 42

123) تفسير ابن عباس . ص : 404

124) الكشاف : 201/4

125) الكشاف 202/4

126) الحجر 15 : 9

والسبك السلس ، والنسق الرفيع الذي يتجلى بالتعقيب في الآية الثانية ، وهو قوله تعالى : «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ». إنها مرتبطة بما قبلها دون أن يكون بها أي خلل فني ، بل لكمال فني رائع... وإن الإيجاز المشبع بالمعنى ، والذي لو فصل لصيغت منه قصة رائعة ، يجمعه الإحكام في عبارات القرآن ، أمثال قوله تعالى : «اذْهَبْ بِكِتَابِي هَـٰذَا ، فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (127)» ، إنها كلمات موجزة ، مليئة بالمعاني والصور : ألق ثم تول عنهم ، وهي صورة حسية متحركة ، تحمل معها دقة في الخفة وسرعة في العمل... ثم توارى لينظر ماذا يكون الجواب. إن هذا الإيجاز الذي أحكمته عبارات متينة في سبكها ورصفها ، تصف عملا يحتاج إلى قصة طويلة . وإن الفاء في قوله تعالى : «فانظر» تفيد التعقيب السريع للغاية ، لأن التولي ليس غاية في ذاته ، بل لينظر ماذا يكون موقفهم.

إن تراصّ الألفاظ ، والإحكام في صوغها ، وإن ضخامة المعنى وغزارته وخصوبته ، وتشبع الأجزاء بإيضاحات للهيكل العام للفكرة ، تسهم في إبراز الصورة للعبارة بمعانيها الجمالية ومواطن قوتها ، كقوله تعالى : «وَلَا تَدْعُ مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون (128)». إنها تفيد أن الوحدانية لله وحده ، وكل شيء — ما عداه — زائل ، له الحكم ، وإليه ترجع بعد الموت ، لتحاسب وتكافأ. فالتسلسل المنطقي يتمثل في الإطار العام لهذا الوجود ، الذي يتسم بوحدانية المبدع ، وكل ما يتفرع عنه ، يقضي فترة ، ثم يرجع... كذلك نلاحظ تقديم الجار والمجرور في «له الحكم وإليه ترجعون» ، وذلك لأهمية علاقة الفرد بخالقه الواحد الأحد ، ولفت انتباه القارىء إلى أن الحكم في قبضته تعالى ، وإليه يرجع البشر ، وهذا يثير النفس ، ويحرك المخيلة ، ويشعرها بالإستسلام. إن السبك القوي والمتين الذي يربط بين العبارات في هذه الآية بدون ذكر العطف ، يزيد في وضوح نسقها الفني ، ومدى إحكامها وترابطها.

إن التكرار — عادة — يفيد الملل ، وهو في عبارات القرآن يزيدها قوة في المعنى ، وإحكاماً في السبك ، كقوله تعالى : «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ

127) النمل 27 : 28

128) القصص 28 : 88

فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (129)» إن اللسان لايتعثر وإن الذوق لا ينفر من تكرار «بل» ثلاث مرات ، لأنها هنا محكمة ، متينة في نسقها ، تفيد التأكيد القوي للمعنى ، وهي تضفي طابع الإعجاب ، لقوة سبكها وسلاستها ، وإن كل معنى في جزء من أجزائها ، مرتبط كل الارتباط بالثاني ، ويقوم بدور التناسق «بل» ، التي تشير إلى حقيقة غبائهم. وبالعبارة طابع من الاحتقار ، ينصب على علمهم ، فلقد : «اجتمع علمهم على أن الآخرة لا تكون (130)» ويكون الرد على هذا الاعتقاد عنيفاً ، وكاشفاً لغبائهم وحمقهم بقوله تعالى : «بل هم في شك منها بل هم منها عمون» ، إنهم في عمى ، لا يبصرون. إن الغيب لا يعلمه إلا الله ، وما الإنسان إلا غيب ولغز في حد ذاته ، فهل أدركها وعرفها ؟ إن تكرار «هم» مرتين عقب «بل» ، وتقديم «في شك» على «منها» ، وتأخير «عمون» على «منها» ، يدل على تأكيد المعنى الذي عبرت عنه الآية. إن بالقرآن قصصاً وحوادث وقعت ومضت ، ويعرضها القرآن للعبرة والموعظة ، وهو في هذا العرض يراعي التسلسل المنطقي في جانب من جوانبها ، كقوله تعالى : «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (131)».

إن في هذه الآية إجمالا : «فكلاً أخذنا بذنبه» ، يعقبه تفصيل : «فمنهم... ومنهم... ومنهم إلخ الآية» ، وإحكاما مبنياً على أساس منطقي ، فقد ابتدئت بالحاصب : وهي ريح عاصف فيها حصباء ، وموجهة إلى قوم لوط ، والصيحة هي موجهة إلى قوم شعيب وصالح ، أي إلى مدين وثمود ، والخسف إلى قارون ، والغرق إلى قوم نوح وفرعون (132). والتسلسل المنطقي يبدو لي أنه حاصل من الحاصب ، حيث نزلت من السماء ، ومن الصيحة ، حيث وقعت على سطح الأرض ، ومن الخسف حيث غارت بهم داخل الأرض ، ومن الغرق حيث النزول بهم إلى أعماق البحر... سماء ، فسطح الأرض ، فالغور بالأرض فالبحر . وبهذا شملت السماء والأرض

129) النمل 27 : 66

130) تفسير ابن عباس . ص : 321

131) العنكبوت 29 : 40

132) الكشاف 454/3 — تفسير ابن عباس . ص : 335

والبحار ، وفيه تأكيد نوع العذاب بالدنيا. وأن تكرار «منهم» أربع مرات ، قصد منه التفصيل والتوضيح ، لأنه كان في الإمكان اختصار الآية بالشكل التالي فكلا أخذنا بذنبه : بالحاصب ، والصيحة ، والخسف والغرق. ونلاحظ حسن التعقيب في أن الله لم يكن ظالماً لعباده ، بل عباده هم ظالمو أنفسهم.

إن صفة الإحكام لا تدرك في كثير من الأحيان إلا بالذوق والشعور ، وبعد اختمار العبارة في الذهن. ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى : «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون (133)»... «وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون (134)» «وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين (135)» ...إلخ.

3) ـ القوة في عبارة القرآن :

إن قوة العبارة مصدرها القوة والدقة في التعبير ، وإننا نلمس في العبارة القرآنية حلول الألفاظ في مواضعها ، وترتيبها على حسب الأهمية ، ومتانة في سبكها ، وإحكاما في تركيبها ، وغزارة في معانيها ، وسلاسة في نسقها ، وتجدها تبعث في النفس اهتزاز مشبعاً بالإعجاب والقوة ، وتحفزها للتجاوب والتفاعل. يقول تعالى: «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ... قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم (136)».

هذه العبارات قد لا تحتاج إلى توضيح لقوتها ، فكل قارىء يلمس ذلك ، لأنها تملك الوجدان والحواس ، وتمس العقيدة والواجب ، وتعرض نماذج بشرية لا تستحق الحياة بشهادة خالقها.

فتزاحم الأفكار والمعاني ، وقدرة تسربها إلى النفس طواعية وشدة غضب الرحمان الذي ينفح من العبارات ، تضع قلم الدارس قاصرا عن التحليل : إنها قوة في المعنى ، قوة في الإثارة ، قدرة فائقة على التصوير ،

133) الأنبياء 21 : 98
134) النمل 27 : 35
135) الشعراء 26 : 173

دقة متناهية في التعبير ، تراص في الألفاظ ، وبراعة في السبك والنسق ، وقوة عنيفة في حفز الهمم.

ولا بأس أن نذكر بعض جوانبها الفنية التي أسهمت في هذه القوة ، فبدء الآية بـ «ألا» دفع للنفس إلى خط القتال ومس النفس من جانب عقيدتها ، وواجبها ، وخلقها وقيمها. فالعرب مجبولون على الوفاء بالعهد ، وقد انتهكت قريش ذلك ، ونكثت ونقضت ما عاهدت الرسول عليه ، وطعنت في دينهم وعقيدتهم. إن الروح الخفية التي تسري داخل العبارات ، والتي تشعر النفس بالنصر على كفار قريش ، تدفع النفس المؤمنة إلى التضحية في سبيل إعزاز دين الله. وهذه الروح أسهمت بجانب تلك اللفتات الفنية في قوة العبارة. وما يلحق بهذه اللفتات الفنية ، تكرار الضمير المتصل «كم» الذي يحدث جرساً خاصاً في النفس المؤمنة إبان نزولها ، وتحمل روح الحث المشوب بشيء من التوبيخ ، كذلك فإن المطالبة بمقاتلة أئمة الكفر صراحة ، وذكر ألفاظ صريحة في انخذال العدو وانتصار المسلمين، كلها تسهم في قوة العبارة.

وتأتي قوة العبارة من قوة مفرداتها في معانيها ، وما تحمله من قوة في الحركة والجرس ومن قوة ودقة في التصوير ، وعن طريق صوغ العبارة بالسؤال والجواب ، وتوجيه الخطاب لنفس القارىء ، كقوله تعالى : «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً(137)».

· تبتدىء الآية بـ «ويسألونك» ، ويكون الجواب : «فقل» التي تحمل أمرا إلهياً موجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتذكر بالآية لفظة «ربي» بدل الرب والله ، وهي مضافة إلى ياء المتكلم المفرد ، مع ما فيها من تأكيد بأن الذي أوحى له ، هو «ربي» الذي ينسف الجبال نسفاً ، أي «يجعلها كالرمل ، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذري الطعام (138)». إن لفظة النسف تحمل جرساً خاصاً ، وحركة سريعة ، تضع اللسان ـ عند النطق ـ يحدث صفيرا مشوباً بالتفاهة. وإذا نسفت الجبال بدت الأرض قاعاً : أي «مستوية (139)». وصفصفاً أي «أملس لانبات فيها(139)» .وجاء في الصحاح :

137) طه 20 : 105 ، 106 ، 107 ، 108
138) الكشاف 88/3

«إن كلا من القاع والصفصف بمعنى المستوي من الأرض ، فكان الصفصف تأكيد (140)». وهذا يشير إلى ما يحدثه النسف ، فيدع الحياة كلا حياة، لا جبال ولا أرض ولا نبات ولا بحور ولا وديان ولا بشر... وقد عبر عن ذلك بقوله: «لا ترى عوجاً ولا أمتاً (141) »: لا شقوقاً ولا نتوءات، بل استواء كاملا. وعند ذلك تخشع الأصوات للرحمان أي تخفض من شدة الفزع وتخفت (142)، فلا تسمع إلا همساً. والهمس هو: «من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت»: أي لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر. إنها صورة مهولة، استعان القرآن في تصوير ها بما يوجد في البيئة العربية من إبل ، وإن الناس أمام ربهم كالدواب تسير دون أن تعرف إلى أين!!. ولا تسمع منها إلا خفيف المشي.

إن قارىء هذه الآية ليشعر أن الخطاب موجه إليه مباشرة ، وأنه هو الذي يردد ما أمر الله به نبيه من الإجابة : «فقل ينسفها ربي نسفاً...» وإنها للحظات من الاهتزاز النفسي تنتهي بالاستسلام إلى جبروت العلي القدير.

وأحياناً تشع القوة في العبارة لفظة متعانقة مع أخواتها ، وهي أكثر قوة وإثارة ، كقوله تعالى : «فأخذه الله نكال الآخرة والأولى» (143). إن القوة التي تمتلكها العبارة ، والمشخصة في لفظة «نكال» ، تفيد سرعة الأخذ بصورة عجيبة تعدو لمح البصر. وإن الإحكام في سبك صيغة العبارة يأخذ مظهره بسرعة متناهية أيضاً، لا يحدث تعثرا عند النطق بها. إن دقة هذا الإحكام جعل العبارة تعدل عن أن تأخذ صيغة أخرى، كأن يقال : «فأخذه الله ونكل به في الآخرة والأولى» ، إلا أن الدقة استوجبت صيغة العبارة القرآنية ، لأنها أبلغ ، وأشد وقعاً ، وأكثر إثارة ، وأقوى عنفاً في أخذ الله بعباده الكافرين.

ونلاحظ في العبارة تقديم «الآخرة على الأولى» ، وعذاب الدنيا ـ كما هو معروف ـ أسبق من الآخرة ، ولربما يرجع ذلك إلى مراعاة القرآن للإيقاع والسجع. وهي في نظري تتعلق بأهمية المعنى ، فالله الذي نكل

140) الكشاف ، على هامش : 88/3
141) العوج : كناية عن الوديان والشقوق . تفسير ابن عباس ص : 266 .
الأمت: النتوء اليسير . الكشاف 88/3
الأمت: الشيء الشاخص من الأرض والنبات. تفسير ابن عباس: ص:266
142) الكشاف 89/3
143) النازعات 79 : 25

بفرعون بالإغراق في الدنيا، وبالإحراق في الآخرة (144)، وقدم عذاب الآخرة على عذاب الدنيا ؛ ليشعرنا بهول عذاب الآخرة ، وصدق وقوعه ، وليقطع الريب والشك الذي يحوم حول فرعون ، من أنه بنيله العذاب في الدنيا جزاء لاستكباره وعتوه ، ينجيه من عذاب جهنم . كذلك تتمثل القوة في المعنى العام للعبارة ، وفي دقة إحكام ألفاظها ، مع متانة في الرصف ، وجمال في السبك كقوله تعالى: «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً (145)».

يقول الزمخشري: «وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير. أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظاً بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين (146)» . إن لفظة «الحق» تحمل معناها في ذاتها بقوة وصلابة ووضوح ، إضافة إلى كونها تحتل قلب المؤمن ، والمؤمن في حد ذاته يحب الحق ، ويبتهج لصيغتها وجرسها ، وذلك لأنها مبدأ الإنصاف والعدل بالمجتمع ، ومصدر إشعاع الثقة بالنفوس والناس. وإن تقديم «بالحق» على كل من «أنزلناه» و«نزل» تفيدان أهمية في ذاتها ، ومعنيين مختلفين بحكم اختلاف الصيغة بعدهما. فالمعنى الأول يشعرنا بضرورة نزول الذكر الحكيم ، لأن حاجة الناس إلى كتاب سماوي وصلت نهايتها بعدما وقع التحريف والعبث بالكتب السماوية التي سبقت القرآن ، وإن الله لطيف ورحيم بعباده. ولذلك قال الله تعالى : «وبالحق أنزلناه». فإنزال القرآن من السماء إلى الأرض ، كان «بالحق».

والمعنى الثاني يفيد استيعاب القرآن للحق كله ، بأبعاده الواسعة ، ومعالمه الواضحة فمحتواه حق للبشرية ، وليس باطلا ، إذ فيه الهداية والرشد. وإن قوله تعالى: «وبالحق نزل» ، ولم ترد على صيغة «انزل» ، لكي يشعرنا بأنه مكتمل باكتمال فترة النزول . فبطبيعته ينزل ، كاكتمال الجنين بوصوله لحظة المخاض ، فهو ينزل بطبيعته دون إنزال. هذه الدقة المتناهية في التعبير ، وهذا الإحكام في ترتيب الألفاظ وتراصها ، وهذه الدقة في تحديد الصيغ ، وهذه الصلابة في المعنى ، تجعل العبارة قوية

144) الكشاف 696/4
145) الاسراء 17 : 105
146) الكشاف 698/2

وواضحة.

ولا ننسى أن ننوه إلى التناسق البديع بين عبارات الآية ، مع إنتهائها بقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ». فالرسول صلى الله عليه وسلم أداة تنفيذ ليس غير، يبشر بالجنة وينذر بعذاب الآخرة. ويحدد هذه المهمة الحصر « بما و إلا ».

إن القسم يفيد التأكيد والقوة كقوله تعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (147) ».

إن تراص الألفاظ في هذه العبارة ، ومتانة إحكامها ، وتأكيدها بالقسم الصريح « فورب » ، وإضافة هذا القسم إلى السماوات والأرض ، وبدء اسم الجلالة « بالفاء والواو » ، وتوفر التأكيد بأن الثقيلة ، ولام التأكيد في « لحق » وتعقيبها بأن الثقيلة ثانية ، تصبغ العبارة بطابع القوة والصدق والوضوح ، وتضع النفس أمام حقيقة محتواها ، وتهز الوجدان بلمس الواقع النفسي ، « إنه لحق مثلما أنكم تنطقون ». و « تنطقون » هنا تحمل مغزاها وشدة تأثيرها.

كذلك تتمثل القوة في طابع التحدي بالعبارة ، لأن التحدي يصدر من مركز القوة ، ومركز القوة في القرآن هو الله سبحانه وتعالى. يقول تعالى : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ، إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا (148) ».

إن التحدي العنيف بصريح القول : « قل » وإفادة العجز بـ « لو » ، وضخامة المعنى بـ « خزائن رحمة ربي » ، والسبك والتناسق البديع بـ « إذا » والتأكيد باللام في « لأمسكتم » ، ومخاطبة واقع النفس البشرية بـ « خشية الإنفاق » ، حيث أن طبيعة بني آدم فطرت على التقتير ، وحسن التعقيب بـ « وكان الإنسان قتورا » ، ووصف الإنسان بأنه « قتور » أي ممسك ، بخيل مقتر (149) ، إضافة إلى ما بالعبارة من أسس فنية ، كحسن الرصف في الألفاظ ، والإحكام في السبك — كلها تفيد القوة ، والتحدي المشوب بالتوبيخ.

وفي آية أخرى يقول تعالى : « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ

147) الذاريات . 51 : 23

148) الاســراء 17 : 100

149) تفسير ابن عباس ص : 242

بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ (150) ».

إن التحدي في هذه الآية تسهم فيه لفظتان ، هما : « ويأبى الله » و « ولو كره الكافرون » ، إضافة إلى طريقة عرض الآية التي ابتدئت بـ « يريدون » أي يرغبون ويتمنون بكل صدق، وإن هذه الرغبة يصورها القرآن بتعبير حسي ، ويعكس ظلالها ، إذ يتخذون من « أفواههم » البسيطة أداة لإطفاء نور الله ، وهي عاجزة عن إطفاء مصباح بسيط. ويأتي الرد العنيف ، بتحد عنيف أيضاً في قوله تعالى : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » ويزيد في غيظ الكافرين بقوله « ولو كره الكافرون ». إن هذا يحمل قوة في معنى الآية ومغزاها. يقول الزمخشري : « مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، بحال من ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق ، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه بنفخة ويطمسه» (151) . فالقارىء يشعر — وهو يتلو هذه الآية — بجرس قوي ، وتأثير في نفسه وحواسه ، يهز كيانه ، ليبتهج قلبه بنور الله ، ويبصر بمخيلته صورة من يحاولون إطفاء نور الله ، ونوره يعم آفاق المعمورة بدون حدود ، وبذلك توحي الآية بغباء وجهل من يحاول مثل هذه المحاولات. فالقوة من خصائص العبارة القرآنية ، وهذه الخاصية لا تقتصر على آية دون أخرى ، بل تعم القرآن كله ، وإن اختلفت درجات هذه القوة ، تبعاً لاختلاف مقوماتها وملابساتها ، فآيات الحرب والقتال والتحدي ومشاهد القيامة وصور جهنم والمستكبرين في الأرض... إلخ تطبع بطابع القوة والعنف ، وفي غيرها بقوة في التعبير ، وبهدوء في هذه القوة.

4) — التفنن في التعبير :

إن لفظة التفنن سبق لي أن أوضحتها عند حديثي عن المفهوم اللغوي والاصطلاحي للفظة الفن ، التي تعني ضروباً من القول ، أي عدم الالتزام بنوع واحد من التعبير ، وعبارة القرآن لا تلتزم ضرباً معيناً ، بل تخرج به إلى فنون من القول ، كلما تطلبت الحاجة ذلك في عرض شائق ، وأسلوب مثير ، وقوة في الإيضاح ، وهذا النوع ، يتوخاه القرآن قصد التدقيق في المعنى ، وإبراز معالم الفن والجمال ، وتحريك النفس لتعي ما تسمع ،

150) التوبة . 9 : 32

151) الكشــاف 265/2

وتدرك ما يقال. وليس في مقدور كل أديب أن يتفنن ، لأنه يستدعي خبرة في فن القول ، ومقدرة فائقة في اكتناه المعاني وصياغها في قالب يلفت النظر.

والقرآن وهو يمثل المعجم التركيبي للغة العربية ، توفر فيه التفنن في التعبير ، لا لأجل التفنن ، بل كأداة من الأدوات التي يسخرها في تأدية الغرض الديني. والأمثلة على ذلك كثيرة. يقول تعالى : «استغفرْ لهمْ أوْلاَ تستغفرْ لهمْ ، إنْ تستغفرْ لهمْ سبعينَ مرّةً فلنْ يغفرَ اللهُ لهمْ... الآيـة (152) » .

إن هذه العبارة كان يمكن اختصارها في جملة واحدة ، موجزة كل الإيجاز. كقولنا : «أعرض عنهم» ، أو «أنهم لا يهتدون» ، أو «لا يهتدون» ، أو غير ذلك من التعابير. وأسلوب العرض بالآية كان تمشياً لما في نفس محمد صلى الله عليه وسلم من أمل في الاستغفار ، ويفيد ذلك ما ذكره الزمخشري : «سألَ عبدُ الله بْن أبي رسُولَ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَسلمَ — وكانَ رَجلاً صَالحاً — أنْ يستغفرَ لأبيهِ في مرَضه ، ففعلَ ، فنزلَتْ ، فقالَ رَسُولُ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَسلّمَ : «إنّ اللهَ قدْ رَخّصَ لي ، فسأزيدُ على السّبْعينَ فنزلَتْ : «سواءٌ عليْهمْ أستغفرْتَ لهمْ أمْ لمْ تستغفرْ لهمْ (153) »، وبذلك انقطع الأمل وإن الله أعلم بما في القلوب.

إن التفنن في التعبير بهذه العبارة. اتخذ التبسيط في العرض ، وكررت لفظة «استغفر» ثلاث مرات ، لأهمية الاستغفار في نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وختمت بقوله تعالى : «فلنْ يغفرَ اللهُ لهمْ» «بلن» التي تفيد التأبيد عند الزمخشري. وهذا التبسيط في العرض ، قصد منه الإحاطة بجوانب الموضوع ، وليجد القارئ نفسه محصورة ، تردد لفظة الاستغفار ، وهي لا تخرج عن إطاره.

وفي آية أخرى يقول تعالى : «...إنّ زَلْزَلَةَ السّاعة شيْءٌ عظيمٌ. يوْمَ ترَوْنها تذْهلُ كُلّ مُرْضعة عمّا أرْضعَتْ ، وتَضَعُ كُلّ ذَاتِ حمْلٍ حمْلَها ، وترَى النّاسَ سُكَارَى ، وَما هُمْ بسُكَارَى ولكنّ عذَابَ اللهِ شديدٌ (154) . «سكارى وما هم بسكارى» في هذا المقطع

152) التوبة : 80
153) الكشاف 294/2
154) الحج 22 : 1 ، 2

من العبارة تفننَ ، قصد منه تحريك المخيلة ، وإثارة الوجدان ، ليتسع الأفق الذهني ، فيتشخص اليوم المهول بزلزلته ، ويعكس أمام بصيرته حقيقة الساعة ، التي تضع فيها الحامل حملها ، وتشرد المرضعة عما أرضعت ، وكلهم في حال سكر ، كما أنها تفيد حركة متموجة «سكارى وما هم بسكارى» .

«وترى الناس سكارى» : يحمل معنى السكر ، وإن الناس مغشي عليهم ، ثم يعقبها قوله تعالى : «وما هم بسكارى» ، تحمل صورة عكسية ، وكأنها تناقض الأولى ، فتحتار النفس ، وتتأمل وتتدبر ، ثم يأتي التعقيب موضحاً : «ولكن عذاب الله شديد». يقول الزمخشري : «وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما أرهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذي أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه (155)». والتفنن يقصد به أحياناً خلخلة النفوس ، وعدم المبالاة ، وإشعارها بالإعراض والإحتقار كقوله تعالى : «... قلْ آمنُوا به أوْلاَ تؤْمنُوا..» وهي جزء من الآية التالية : «وقرْآناً فرَقْناهُ لتقرَأهُ على النّاسِ على مُكْثٍ ، ونَزّلْناهُ تنْزيلاً ، قلْ آمنُوا به أوْ لاَ تؤْمنُوا ، إنّ الذينَ أوتُوا العلمَ منْ قبْله إذا يُتْلَى عليْهمْ يخرّونَ للأذْقانِ سُجّداً (156)».

إن خلخلة نفوس الذين لا يؤمنون بالقرآن يبثه المقطع الذي سبق ذكره . وفيه — كما قال الزمخشري — «أمر بالأعراض عنهم واحتقارهم ، والازدراء بشأنهم ، وأن لايكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه(157)» .

إن إيمانهم وعدم إيمانهم على حد سواء ، فهم أدنى من الحيوانات ، وإن كانوا في صورة آدمية ، فالحيوانات ينتفع بها ، وهؤلاء لا يصلحون للحياة ، وإنما هم نماذج تعرض ، ليدرك أولو الألباب.

ويقول تعالى : «ولَبثُوا في كهْفهمْ ثلاثَ مائة سنينَ وازْدَادُوا تسْعاً (158) .» كان يمكن أن يقال : «ولبثوا في كهفهم اثني عشر قرناً» أو «مائتي سنة وألفاً»... ولعل هذا التفنن يقصد به التروي للتأمل .

155) الكشاف 142/3
156) الاسراء 17 : 106 ، 107
157) الكشاف 699/2
158) الكهف 18 : 25

والتدبر، فبه شيء من الغموض يدعو للتوقف ، وإعمال الفكر وتحريك العقل ، ليجري عملية حسابية بسيطة ، ولكنها عظيمة في مغزاها ، وصعبة في إدراكها وتشخيصها» ولا بأس أن نذكر بعض آيات دون تحليل لوضوح معالم التفنن بها كقوله تعالى : « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى (159)» ، « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (160)» ، « اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً (161)» « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (162) » إلخ.

د) — التصوير في عبارة القران : دقته وقوته :

إن من خصائص لفظة القرآن أنها تشع بالحياة ، وأعني بذلك أنها تكون تارة مصورة ، وثانية ناطقة ، وثالثة معبرة ، ورابعة موحية وخامسة جامعة بين بعضها أو كلها. وعبارة القرآن تحتوي على نفس هذه الخاصية ، وتأخذ أبعادها — بحكم دلالتها الجماعية — ، وتعمق المعنى ، وتدعه مشخصاً ، وكأنه يُرى بالباصرة. والإشعاع بالحياة صفة حية لأسلوب كل أدب رفيع خالد ، ولا تتحلى به العبارة إلا إذا استطاع المعبر — بثاقب رأيه — أن يلج إلى منافذ التأثير ، ومواطن التحريك والحياة بالعبارة.

وسوف أتناول هذه الخاصية في عبارة القرآن من حيث دقتها وقوتها ، على خلاف لفظة القرآن ، بحكم ما للعبارة من تشخيص للمعنى العام ، وإن هذا المعنى يسهم فيه التركيب بكل مفرداته وخصائصه . إن إشعاع الحياة بالعبارة يتم عن طريق التصوير ، والتصوير أفضل أداة في القرآن لعرض حقائقه ، وإن هذه الحقائق تأخذ صورتها البعيدة في صيغتها التعبيرية ، عن طريق الدقة والقوة في التصوير.

أ — دقة التصوير :

إن الأمثلة هي التي توضح خصائص القرآن ، وإن ما توفر بالعبارة من خصائص في تأليفها ونظمها أو في ترتيب ألفاظها ، أو في الصور التي تمثلها هذه الألفاظ ، أو في السبك والإحكام تسهم دوماً في إبراز أية خاصية في

159) الأنفال 8 : 17
160) الرعد 13 : 5
161) يوسف 12 : 9
162) البقرة 2 : 24

التعبير القرآني. فقوله تعالى : « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (163) ». إن الآية محكمة كل الإحكام في ترتيب ألفاظها ، ورصفها ، الواحدة تلو الأخرى ، وإن لكل منها مغزى تختلف دقته عن الأخرى ، وتحتل مكانتها المخصصة لها ، وإن التوالي في تراص الألفاظ ومعانيها في كل من المشبه والمشبه به دقيق للغاية ، وإن الدقة في التصوير تجسم صورة معنوية ومادية بصورة حسية. الأولى هي الحياة ، لها طرف معنوي ، لا يحيط به الإنسان ، وإن أدركته المخيلة عن طريق التجارب البشرية ، وطرف مادي ، وهو الجزء من الحياة الذي يعيشه الإنسان ، ويلمسه في محيطه المحسوس ، وبمجموعهما تتألف الحياة التي دقق القرآن في وصفها وتمثيلها ، ثم صورت هذه الحياة بصورة حسية ملموسة ، تدركها الأبصار ، وهي أنها كغيث هاطل ، روى الأرض ، فأعجب الكفار نباته. والكفار قيل أنهم الزراع (164) وقيل : « هم الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات (164) » .

والأخذ بأي من المعنيين يؤدي الغرض المقصود ، ويعطي الصورة أبعادها ، وهو أن ذلك النبات الذي نما وترعرع ، وعندما نضجت ثمرته ، بعث الله « عليه العاهة ، فهاج واصفر وصار حطاماً (165)». وإثر هذا الحطام قوي في النفس الجاحدة الكافرة ، أو الزراع الذين وضعوا آمالهم فيه. والدقة في هذه الصورة ، هو أن الحياة بمغرياتها ، لها نهاية ، وأن النبات الذي نما بفضل الغيث المدرار ، وأعجب به ، له نهاية ، ونهايته ، إما طبيعية ، إذ يؤتى أكل ثمراته وينتفع بها ، وإما أن يبعث الله عليه عاهة ، فيذره هباء منثورا. البداية واحدة ، والنهاية واحدة ، والمظاهر بين البداية والنهاية واحدة ، والمغزى واحد أيضاً. وهذا هو ما أعنيه بالدقة والإصابة في التصوير.

إن تصوير الحالات النفسية الدقيقة ، كلحظات بلوغ الروح إلى الحناجر لتغادر أجسادها ، تحتاج إلى دقة على غاية من الإعجاب .يقول

163) الحديد 57 : 20
164) تفسير ابن عباس . ص : 458 — انظر الكشاف . 479/4
165) الكشاف 479/4

تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ، أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (166) ».

إن القلم ليصعب عليه تصوير لحظات الموت بحركاتها وانفعالاتها ، لأنها دقيقة كل الدقة ، وليس في الإمكان إدراكها إدراكاً حقيقياً ، لأن لحظات الموت يعيشها الميت ، والميت ليس بعائد إلى الدنيا ، لينقل إلينا اللحظات النفسية الرهيبة ، وهنا تأتي الدقة في التصوير بهذه العبارة ، لأن دقة اللحظات النفسية لا يعبر عنها إلا الدقة في التعبير ، ولا تصورها إلا الدقة في التصوير ، لتجسد دقائقها ، وتدركها النفس بكل دقة أيضاً ، ليكون الأثر شديدا وقوياً.

إن دقة تصوير لحظات الموت في هذه العبارة ، تجسده : «في غمرات الْمَوْتِ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ، أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ...» إنّ لفظة «غمرات» تتصل بدلالتها الحسية ، حيث أن أصل الغمرة هو «ما يغمر من الماء (167) ». «وسمي الماء الكثير بالغمر لأنه يغمر ما تحته ..... فاستعيرت (أي الغمرة) للشدة الغالبة(168)» ، لتؤكد شدائد الموت وسكراته. وهذه اللفظة دقيقة في تصوير سكرات الموت عندما تنزل بالظالمين، وتشعرنا بأنهم غرقى لا منجاة لهم من لجة شدائد سكرات الموت. ثم يزداد هذا التصوير دقة وتشخيصاً بقوله تعالى : «والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم» ، إن الملائكة لهم بالمرصاد وهي باسطة أيديها ، وهو مشهد مهول إضافة إلى هول لحظات الموت ، وهي تقول : «هاتوا أرواحكم اخرجوها إلينا من أجسادكم (168) » . ويعلق الزمخشري على مغزى ذلك بقوله : «وهذه عبارة عن العنف في السياق ، والإلحاح ، والتشديد في الإرهاق ، من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله (169) ». إن هذا التصوير يضعنا تبصر الصورة ومشاهدها ، وندرك دقائقها ، ثم يقول تعالى : «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

166) الأنعـام 6 : 93

167) الكشاف 46/2

168) معجم مقاييس اللغة 392/4

169) الكشـاف 47/2

الْهُونِ» إن سرعة التحام غمرات الموت بالعذاب الهون الذي هو «الهوان الشديد ، وإضافة العذاب إليه (170) » يعطي الصورة دقة تصويرها وهولها وفزعها. ويعزز هذا المعنى هذه الصورة المليئة بالحركة ، والمعبرة عن فزع النفس ، في لحظات الموت الرهيبة في قوله تعالى : «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (171) » إنها حركة جنونية ، حركة جماعة أصابها الصرع ، حركة كبش يتخبط في دمائه ، إنهم يضربون وجوههم وأدبارهم بدون تمييز. لقد فقدوا وعيهم ، وجابهوا أعمالهم التي تقودهم إلى السعير. ويزيد المعنى قوة وفزعاً ابتداء الآية بـ «فكيف» التي تفيد التعجب في استغراب مهول ، يحمل معه توبيخاً مزرياً بالنهاية التي انتهوا إليها. إن التصوير بالصور الحسية ، النابعة من البيئة العربية ، تستمد قوتها مما يجري في تلك البيئة ، فالحمار – عند العرب – مثل للحماقة والبلادة ، وقد استنكر القرآن صوته بقوله : «وَإِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (172)» ، ويتخذه القرآن ليمثل به علماء اليهود في قوله تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (173)» .

إن الحمار يحمل أثقالا من الكتب ، وهو لا يفقه ما فيها ، ويقاد إلى حيث قدر له ، وهو لا يشعر في ذلك إلا بالكد والتعب ، وإن سألته والأثقال : فليس هناك من مجيب ، صورة تتحرك وتقاد ، غايتها في الحياة حمل الأثقال ، وإشباع البطون ، وهي رهن الانقياد . هذه الصورة تجسد حملة التوراة ، وهم اليهود ، يدعون العلم ، ولا يفقهون ما بالتوراة ، وبالتوراة تبشير بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وتجسيد لصفاته ، وإذا جوبهوا بحقيقة ذلك ، تنكروا وركبوا رؤوسهم ، وادعوا أنهم أعلم من غيرهم ، وأنهم لا يؤمنون بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كنبي وخاتم الأنبياء. وهم بهذا العمل ، يصدق في حقهم هذا التعبير الفني في قوله تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» ، بصيغة «حمّلوا» المبنية للمجهول ، والمشددة في الميم ، والتي تحدث جرساً ونطقاً ، تشعران بأنهم حملوا التوراة عن ثقل في أرواحهم ونفوسهم ،

170) الكشـاف 47/2

171) محمد 47 : 27

172) لقمان 31 : 19

173) الجمعـة 62 : 5

وإن هذا النقل يبين مأتاه عدم حبهم في نزول كتاب سماوي عليهم ، وإنما مأتاه ، أنهم يودون ذلك تظاهراً ، لتحقيق مآربهم الشخصية. فالتوراة تنص على أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم للأنبياء ، وفي هذا التنصيص — من وجهة نظر علماء اليهود — اغتصاب وهدر لمكانتهم ، مع أن الله هو الذي أنعم عليهم بذلك ، وهو القادر على كل شيء. إن الآية دقيقة في تصوير كل أجزائها ، وهي تشير إلى غباء وحماقة اليهود ، وتوحي بالاحتقار والتوبيخ.

كذلك فإن بالآية تفننا في قوله تعالى : « ... حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا »، وهذا تعبير صادق عن نفوس اليهود المخزية. إن التصوير الحسي يستمد قوته من مادة الصورة المحسوسة ، ونوع هذه الصورة ومدى وقعها على النفس. يقول تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (174)».

إن أولئك الذين يحملون قلوباً خالية من النور والإيمان ، ولكنهم يحملون أجساماً وهياكل ضخمة . والذين حكى عنهم الزمخشري بقوله : « كان [illegible] ابن أبيّ رجلا جسيماً ، فصيحاً ، ذلق اللسان ، وقوم من المنافقين في مثل صفته ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر ، وفصاحة الألسن ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم (175) ». هؤلاء دقق القرآن في تصويرهم بالخشب المسندة إلى الحائط ، وهي متروكة بدون أن ينتفع بها ، « فشبهوا به في عدم الإنتفاع (175)». وللخشب المسندة معنيان آخران : الأول أنهم كـ «الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان(175)» ، فيكون التشبيه في جمال الصورة وقلة الجدوى. والثاني : قيل عن اليزيدي أنه قال في « خشب » جمع خشباء؛ « والخشباء : الخشبة التي دعر جوفها (176). شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم (176) »

وعلى أية حال ، فإن دقة التصوير تضع الأجسام الضخمة ، والخاوية

174) المنافقون 63 : 4
175) الكشاف 540/4
176) الكشاف 540/4 .. دعر : فسد (الصحاح)

من الإيمان على هامش الحياة ، فهم عالة على المجتمع ، وجراثيم تنخر هيكله ، وهم كلما سمعوا صيحة أو لاحظوا حركة ، ظنوها واقعة بهم ، فالجبن ملأ نفوسهم وأفقدهم أعصابهم ، لا عقيدة ولا إيمان ، ولكنهم دواب تعيش، تفزع وتفر من أقل حركة. إنهم بهذه الصفات شبهوا بالخشب المسندة ، التي لا حراك بها ، وإن أية حركة أو هزة تبعثرها وتفقدها نظامها ، وتطرحها أرضاً فتحدث أصواتاً شبيهة بالطلقات السريعة المتتابعة. ومما يزيد في عمق المعنى أن الخشب تصلح للسقوف والستر ، والأجسام الضخمة التي لا عقول بها ، تصلح أيضاً أن تكون سقوفاً وأستارا ،وفي هذا احتقار وامتهان وتقليل من شأنهم كبشر، لهم مهمة في الحياة ، نص عليها القرآن في عديد من آياته.

إن دقة التصوير تؤديها أحياناً الحركة المنبعثة من العبارة ، كلفظة « انفضوا » في قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (177)».

إن ذكر سبب نزول هذه الآية تعطي دقة التصوير أبعادها. يقول الزمخشري : « روي أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد ، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقاموا إليه ، وخشوا أن يسبقوا إليه ، فما بقي معه إلا يسير، قيل ثمانية، وأحد عشر، وأربعون ، فقال عليه السلام : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ خَرَجُوا جَمِيعاً لَأَضْرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَاراً ». وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، فهو المراد باللهو. وعن قتادة فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير(178) ». إن هذه الرواية تعرض طبيعة النفس البشرية المحبة للدنيا ، أمام المغريات المادية للحياة ، مستعينة في ذلك بصيغتها المشددة ، وجرسها ، وما فيها من حركة سريعة ، حيث أنهم بعد أن كانوا في حال استماع إلى خطبة الرسول ، إذا بهم قيام ، محدثين ضجة الإنفضاض ، غير مبالين بالرسول وخطبته وأوامره وآداب الإستماع. فهبتهم السريعة لغاية حاجة دنيوية ، تدقق في تصويرها عن طريق الحركة لفظة «انفضوا » ، فهي التي بعثت في الصورة الحركة والحياة ، وهزت النفس لترفعها من أسفل إلى فوق.

177) الجمعة 62 : 11
178) الكشاف 540/4

ب – القوة في التصوير :

إن مصدر القوة في التصوير نابع من داخل العبارة بمفرداتها الحية الموحية ، بجرسها وحركاتها ، وبتزاحم أفكارها ، وقوة مغزاها ، وما تحمله من إحكام في السبك والتناسق. يقول تعالى : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(179)»

إن الآية صورت من يشرك بالله بالذي يقع من السماء ، وهذا الوقوع يتميز بسمة الخرّ ، فخرّ تؤدي معنى : اضطراب وسقوط مع صوت. فالخرير صوت الماء. وعين خرّارة وقد خرت تخرّ. «ويقال للرجل إذا اضطرب بطنه قد تخرخر. وخر إذا سقط (180)». إن ما تحدثه «خرّ» من صوت – وما لدلالتها الحسية ومشتقاتها من نغمة خاصة – تبعث الارتباك في الأعصاب والحواس. إن المشرك وهو يخر ، تختطفه الطير ، أو تلوح به الريح في مكان سحيق ، ولئن كانت هذه الصورة قوية في مغزاها ووقعها ، فهي أشد حينما يستسلم المرء إلى شيطانه ، ويشرك بخالقه ، ويبتعد عن طريق التوحيد ، فيصبح ملك هوى الشيطان ، بدل أن يكون كل شيء ملك نفسه. يقول الزمخشري : « يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركباً ، فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق موزعاً (181) في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة. وإن كان مفرقاً ، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة (182)».

فقوة التصوير آتية من قوة المعنى وتصويره وقوة مفرداته ، وجرسها وإيقاعها في « خر » و « سحيق » ، قوة السرعة في اختطاف الطير لهم ، وقذف الريح لهم وتلويحهم.

---

179) الحـج 22 : 31

180) معجم مقاييس اللغة 149/2

181) موزعا . مفرده موزعة بالضم : أي قطعة لحم (الصحاح)
المطـاوح : المقاذف .

182) الكشاف 155/3

إن جو الآية يوحي بقوة ضاغطة على النفس ، من أعلى إلى أسفل ، وتكاد تفتت كيانها. يدرك هذا الإيحاء كل من يردد الآية ويقف عندها.

إن قوة المعنى وهوله يزيدان في قوة التصوير . يقول تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (183) ».

إن قوة التصوير في هذه الآية هي تلك الاستحالة في تفتح أبواب السماء للذين كذبوا بآيات الله ، وتولوا مستكبرين عنها ، وأن الجنة لا تطؤها أقدامهم . وتعزز هذه الاستحالة استحالة ولوج الحبل الغليظ – وهو ما يسمى بالقلس الغليظ ، لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة (184). « وتشد به السفينة (185) » – في سم الخياط ، أي في ثقب وهي ضيقة المسلك . وفسر الجمل بالحيوان المعروف ، إلا أن تفسيره بالحبل الغليظ أنسب . هذا التصوير يدع المخيلة في حركة دائبة ، كلها تأمل ، وإعجاب بدقة التصوير وقوته ، فهي لا تترك للعقل منفذا للعدول عن تصور حقيقة القرار الإلهي . وإن الصورة المهولة التي تعقب الآية تضفي على هذا التصوير قوته ودقته ، إذ تعرض أمامنا صورة مشخصة لفراش وغطاء هؤلاء ، الذي اتخذ من نار جهنم ، فسماؤهم نار محرقة ، وأرضهم نار محرقة ، وهم وقود هذه النار المحرقة.

إن ما بالآية من جوانب فنية ، تمثله « حتى » وتقديم « من جهنم » على « مهاد » و « فوقهم » على « غواش » ، وما يطبع الآية من دقة في التعبير ، وقوة في المعنى ، كلها سخرت لأداء المغزى المقصود.

إن لجرس وإيقاع مفردات العبارة أثرا على التصوير وقوته كما في قوله تعالى : « وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، إِنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا (186) » . إن ما تشتمل عليه هذه العبارات من إيقاع وجرس قوي ، وما تحدثه عند النطق من قوة في الضغط على اللسان والنفس ، وإن انتهاء كل عبارة بنغمة الدال ، مشددة تارة ، ومخففة أخرى كـ « ولدا » و « إدّا » و « هدّا » وما في بعض مفرداتها من قوة في

---

183) الاعـراف 7 : 40 ، 41

184) الكشـاف 103/2

185) تفسير ابن عباس ، ص : 127

186) سورة مريم 19 : 88 ، 89 ، 90 ، 91

الجرس والإيحاء والمعنى ، كـ «يتفطرن» و « تنشق» و «تخر» ، وما تضفيه هذه المفردات من معان ، « فيتفطرن » التي بمعنى « يتشققن (187) » ، « والتفطر من فطره ، إذا شققه وكرر الفعل فيه(188)» وتنشق أي «تتصدع الأرض (187)» ، و« تخـر » أي « تسير » (187) ، تـذهـب وتجيء. وكـذلك لـفظـة ، « الإدّ » ، وهـو القول المنكـر العظيم (187) ويقـال أدت الناقة إذا رجعت حنينها (189) و«الهد» أي « الكسر » (190) وهي كلمة تدل على « كسر وهضم وهدم » (191) كلها تضفي على جو الآيات طابعاً من الهول الشديد ، وكلها تعبر عن فظاعة ما ينسب إلى الخالق من أولاد.

وقد استعمل القرآن لفظة « تـكاد » ليشعرنا أن ما يحدث من تفطر للسماوات ، وانشقاق للارض ، هو تعبير صادق عن سخطها ، واستعظامها واحتزازها لما ينسب إلى الخالق من أولاد.

إن العرض المثير الذي يبتدىء بـ «وقالوا» ، ويكون الرد بالمواجهة المباشرة ، ومخاطبـة نفوسهم بقوله تعالى : «لقـد جئتم» في الأول بصيغة الماضي ، وفي الثاني بصيغـة الحاضر ، وذلك للمباغتة والمباكتة ، ووضع أسلوب العرض حياً مثيرا.

إن استنطاق الجماد ، وطبعه بطابع الحوار ، حيث السؤال والجواب ، يقرب المعنى إلى الذهن كما في قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (192) ». إن استنطاق جهنم ، وهي جماد لا حراك بها ، وتوجيه السؤال من الخالق إليها بلفظة « يوم نقول » ، على الإجابة ، التي استمدتها من منطقها بقولها : « هل من مزيد » ، وصوغ الحوار بصيغة الماضي ، وبطابع العرض دون المواجهة المباشرة ، تعطي التصوير القوة والحيوية ، لأن الحوار وسيلة من وسائل التشخيص والتخييل. وإن طرق عرض الحوار تختلف باختلاف الموضوع والتأثير. يقول الزمخشري: « وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته (193) ».

187) تفسير ابن عباس ص : 259
188) الكشاف 44/3
189) معجم مقاييس اللغة 1 / 11
190) تفسير ابن عباس ص : 259
191) معجم مقاييس اللغة 7/6
192) ق . 50 : 30
193) الكشاف 388/4 ، 289

إن هذه العبارة توحي بهول جهنم ووسعها ، وبجبروت الخالق وقدرته ، وأن كل شيء تحت تصرفه.

إن مما يعتمد عليه التصوير هو التخييل ، وذلك لتحريك المخيلة ؛ فتخيل البعيد قريباً ، ومصورا حاضرا. يقول تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (194) ». إن هذه العبارة تضع القارىء أمام حقيقة وقوع الساعة ، وتدع مخيلته تتصور أنها وقعت ، وأننا في واقعها بكياننا المادي ، ونتصور في الوقت نفسه انشقاق القمر ، وهو يطالعنا كل ليلة ، ونستغرب عندما لا نرى تصدعاً وانشقاقاً ، فإن « اقتربت » و« انشق » بصيغتيهما الماضيتين تضفيان على هذا الشعور صدق الوقوع والانشقاق. إنها صورت البعيد ـ نسبياً ـ والمستقبل قريباً ، وإن سحر العبارة القرآنية ، بحكم ما تملكه من قوة الإثارة ، وإن قوة أسلوبها في العرض ، واستيعابها بحقيقة الإيجاز الذي هو غزارة المعاني في قليل من الألفاظ (195) ، جعلت قوة التخييل تصور الساعة وهي أقرب من لمح البصر. إنها تثير الوجدان والحواس ، وتحرك العقل والمخيلة. ويعزز هذا المعنى قوله تعالى : «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (196)». على سرعة لمح البصر ، نتخيل الساعة ، وكأننا نعيش على دَقَّاتِهَا ، وإن قوله تعالى : « ...وهو أقرب » يزيد في توسيع المخيلة لإدراك آفاق الصورة ، ومشخصاتها ، ويتعاون على هذا التشخيص : الحس الوجداني ، وصدق التعبير التخييلي. فأمر الساعة ، كلمح البصر أو هو أقرب وبأسلوب هذا التعبير تفنن أيضاً. إن بهذه العبارة تناسقاً عجيباً في المعنى ، وفي السبك ، والنسق ، فلقد سبق أمر الساعة بعلم الله للغيب ، وعقبت بقدرة الله على كل شيء. إنها توسطت ، ليكون التأثير على الوجدان قوياً وشديدا ، أما النسق والسبك ، فإن الوحدة التأليفية بين هذه المعاني ماسكة أواصرها.

إن تصوير البعيد قريباً ، وتشخيص معالمه ، وتخييل الحياة التي لم نعشها بعد ـ ونشعر والقرآن يعرض أبعادها ـ أننا ندركها بوجداننا ومخيلاتنا أكثر من إدراكنا للحياة التي نعيشها اليوم ، حيث أنها تضعنا في

194) القمر 54 : 1
195) صبح الأعشى 332/1
196) النحل 16 : 77

أعماق سحر القرآن ، وإبداعه الفني ، كما في قوله تعالى : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ، فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (197) » .

« اقترب الوعد الحق » بصيغة الماضي ، وبوصف الفاعل بصدق حقيقة الوصف : « الوعد الحق » . إنها صورة متحركة ، تقترب ، وقد اقتربت ، وإذا بلفظة « شاخصة » تؤدي دقة هذه الصورة ، فالذين كفروا شاخصة أبصارهم ، أي « ذليلة لا تكاد تطرف (198) » ، باهتة ، غشيتها غمامة من ضباب العمي ، وذهبت بها ، لتنقل حالتهم النفسية المذهلة ، التي فقدت حواسها وأعصابها ، واستسلمت لأمر ربها.

إن الدقة الفنية في التعبير بـ « فإذا » التي تفيد سرعة المفاجأة ، وهي أداة فنية ربطت حقيقة معنى « واقترب الوعد الحق » بصورة الحياة فيها ، وإن « هي » في « فإذا هي » : « ضمير مبهم توضحه الأبصار وتفسره (199) ». والابهام والغموض يفيدان – أحيانا – في التعبير الفني ، وان ما يعلو من أفواه الذين كفروا ، التي تجسده لفظة « يا ويلنا » بصيغتها وجرسها وايقاعها النفسي – تنلق بهول النفس وفزعها . ان كل ذلك يزيد الصورة قوة في التصوير والتخييل ، ودقة في تحليل دقائق الأبعاد النفسية ، ووضوحا في المغزى العـام .

إن التخييل ليس عملية خيالية ، فهو جناح من أجنحة التصوير في القرآن ، اعتمد عليه القرآن لتحريك المخيلة ، لتدرك ما لا يدركه العقل ، إن الصورة التي تعرضها هذه الآية « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (200) » تدع المخيلة تتصور بسرعة البرق الخاطف عملية العروج : « أي الصعود (201) » وتستعين بالعقل لإجراء عملية رياضية : « خمسين ألف سنة ». إن التخييل من مقومات التصوير وقوته.

6) – الإيحاء في عبارة القران :

إن الإيحاء في العمل الأدبي ميزة رئيسية ، لأنها تبعث الحركة ، وتظلل الصور بظلال من الحياة ، وتجعل العبارة حية ناطقة ، والمعنى غزيرا خصباً

197) الأنبياء 21 : 97
198) تفسير ابن عباس ص : 275
199) الكشاف 135/3
200) المعارج 4/70
201) لسان العرب مادة «عرج»

مشخصاً ، وتشرك المخيلة لتتخيل أبعاد الصورة وآفاقها ، وتنزل إلى عمق مغزاها ، فتستجيب لها النفس ، وتلتحم ، وإذا بالفكر يلتذ ، ولذة الفكر لا تحدها حدود ، لأن الفكر لا يلتزم بالحدود والقيود . إن المتعة الفنية الأصيلة الخالدة من مستلزمات الأدب الحي الخالد ، وهي في عبارات القرآن تجمع بين المتعة الفنية حيث الفكر والعقل ، والمتعة النفسية والوجدانية حيث النفس والوجدان والعاطفة ، والمتعة الخيالية حيث المستقبل الذي يصبو إليه قلب المؤمن الصادق والطافح بالإيمان. وهذه المتعة تستمد قوة دلالتها من المتعة الحسية التي تخضع لواقع الحياة البشرية ، وتستعين لتقريب المتعة الخيالية إلى مداركنا وحواسنا.

إن المتعة الفنية ، والنفسية ، والخيالية ، والحسية ، تتعاون بواسطة قوة ودقة التصوير بشيء من البطء ، إلا أن الإيحاء فيها يدعها جميعاً متلاحمة متكاملة في سرعة عجيبة ، تتحول النفس بعدها إلى لحظات روحية وحالات صوفية ، وهي ما يعبر عنها بنشوة الفكر والوجدان ، وتنتقل في هذه اللحظات إلى الإدراك العميق الذي يفسر ماهية الوجود الإنساني في هذه الحياة في إطارها الفلسفي الواقعي ، الذي ينتهي بها إلى عالم حقيقة الآخرة في صورتها المتخيلة.

إن الإيحاء في عبارة القرآن يضع مخيلتنا في سلسلة من المعاني ، كل معنى يحمل مغزى ، ويتداعى كل معنى ومغزى إلى صور وحياة ، تطل من خلالها على روحنا التي تتوق – دوماً – إلى ميتافيزيقية الوجود ، ولكنها في التعبير الفني تتوق إلى معرفة ما وراء الحروف والكلمات ، وبناء الصيغة ، وما فيها من جرس وإيقاع ، وما تحمله من ظلال ومشاهد. فقوله تعالى : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (202) ». توحي بحال الأرض والجبال ، واستسلامها وخنوعها للواحد القهار ، وبهول يوم الساعة ، وجبروت الخالق. ويأخذ هذا المغزى ظلاله الموسعة ، بتحليل الآية. فرجت بمعنى : « حركت تحريكاً شديداً ، حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء (203) » وهي كلمة تدل على الإضطراب (204) . وبست بمعنى « فتتت حتى تعود كالسويق ، أو سيقت ، من بس الغنم إذا ساقها (203) » ويورد ابن عباس في تفسيره معاني عديدة كسير الجبال سير السحاب ، أو قلعها ، أو جثها أو فتها بصيرورتها

202) الـواقعة 56 : 4 ، 5 ، 6
203) الكشـاف 456/4
204) معجم مقاييس اللغة 374/2

يابسة كيبس السويق أو علف البعير (205). إن كل هذه المعاني يحددها قوله تعالى: « فكانت هباء منبثاً »، أي غبارا متطايرا متفرقاً، يرجع إلى ذ اته الأولى ... واستمداد هذا المعنى من بيئة الإنسان الحسية، تضفي على المعنى دقة وقوة وإثارة، حيث أن هباء يعني: « غبارا كالغبار الذي يسطع من حوافر الدواب، أو كشعاع الشمس يدخل في كوة تكون في البيت، أو خرق يكون في البيت (205)».

فرج الأرض، وبس الجبال، وورود هذه الحركة المثيرة والمعجزة بصيغة البناء للمجهول، وما تحمله الألفاظ: « رجت » و « بست » و « هباء منثورا » من قوة في الجرس والإيقاع، تعرض تفاهة الحياة بسمائها وأر ضها وجبالها وعمرانها وأبنائها، وإن اندثارها وصيرورتها هباء منثورا قيد أمره تعالى: كن فيكون. إن تفاهة الدنيا – بعمق معانيها – توحي به الآية، وتنطق به النفس عندما تأمل، وتمعن في هذا التأمل، ويبدو أن هذه الخاصية تستمد في الغالب قوة الإيحاء من الواقع المحسوس يقول تعالى: « إنَّ المُجْرِمِينَ في ضَلالٍ وسُعُرٍ، يومَ يُسْحَبُونَ في النّارِ على وجُوهِهِم، ذُوقُوا مسَّ سقَرَ (206) ».

إن سحب المجرمين يوم القيامة بواسطة الزبانية – على وجوههم وهي تصطلي نارا – توحي بالصورة العكسية لحالتهم في الدنيا، حيث أن هذه الوجوه، كانت أنوفها شامخة إلى السماء، استكبارا وأنفة، ولم تكن جباههم خاشعة راكعة ساجدة، بل أنفت أن تمس وجوهها التربة التي خلقوا منها. ولكي يكون للمعنى وقع شديد فإن هؤلاء المجرمين يجرون – يوم القيامة – على وجوههم، وهم « في هلاك ونيران (207)»، وإن تلك الوجوه التي أبت أن تخضع للواحد القهار، وتمس التربة التي انطلق منها أبناء آدم، يسحبون عليها اليوم، وتردد الزبانية على أسماعهم: « ذوقوا مس سقر ». واختيار لفظة سقر التي هي «علم لجهنم (207)»، وآتية «من سقرته النار، وصقرته إذا لوحته (207) »، لتأكيد شدة حرقة جهنم، ووقعها على النفس، ولإغاظة نفوسهم اللئيمة.

وقد تقوم بالإيحاء لفظة واحدة داخل العبارة، كقوله تعالى: « هذَا كتابُنا ينْطِقُ عليْكُمْ بالحقِّ، إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تعْمَلُونَ (208) ». إن لفظة « تستنسخ » توحي بالمراقبة الإلهية الخفية، في السر والعلانية، وإننا في غفل عنها، والقدر يتابعنا بدقة، لا تقدر على تدقيقها. إن هذا الإيحاء يضع النفس في موجة من الحرارة تنتهي ببرودة، فتنتاب الأعصاب والحواس: استسلاماً وإذعاناً لعين القدرة، التي تراقب دقائق الجزئيات، واعترافاً باحتلال الخالق نفوسنا، وإننا إن لم نعتبر، ونطبع حياتنا بهذا المعنى، فنحن في عداد المجرمين في حق نفوسنا، التي فطرت على الانصهار في أحضان القدر، وهي في ظلال هذه الروح تعمل وتجهد في العمل، لأن العمل مقياس التحلي بهذه الروح الإلهية، فالذي يشعر بالقوة الإلهية في نفسه، وهي تستنسخ كل أعماله، يفني جسمه وروحه في العمل المتواصل، إحقاقاً لحق خالقه ونفسه ومجتمعه وأفراده.

إن الإيحاء في العبارة القرآنية يضع النفس أمام حقيقة الآية، وما يكتنفها من ظلال، لتشبع النفس وجوها بقوة إشعاعها، فمهمة التعبير الفني بالقرآن تقوم على أساس التجاوب النفسي، وفتح آفاق الفكر، وبواطن الوجدان لتعيش النفس في رحاب الآية، وفي سعة مغزاها، وحقيقة هدفها. يقول تعالى: « فلمَّا رأوْهُ زُلْفةً سيئتْ وُجُوهُ الذينَ كفرُوا، وقيلَ هذَا الذي كُنْتُمْ به تدّعُونَ (209) ».

إنهم لما رأوا الوعد قريباً – بعد أن تساءلوا عن حقيقة وقوعه، في غباء ومكر: « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (210)» – وبدأ حقيقة ثابتة أمام الحواس، تغيرت ألوانهم، فسيئت وجوههم، وعلتها: « الكآبة، وغشيها الكسوف والقترة، وكلحوا، كما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب (211) ». وقيل لهم: « هذا الذي كنتم به تدعون »، أي « تطلبون وتستعجلون به (212) »، أو « كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون (212) ».

إن بناء « سيئت » للمجهول، و « قيل » التي تفيد الإبهام، و « تدعون » على وزن « تفتعلون » وما تحمله من جرس، وتفيده من دلالة الافتعال، حيث الزعم الباطل، تسهم في إبراز الإيحاء بشكل يخزي ويبني الضمائر

---

205) تفسير ابن عباس ص: 453

206) القمر 54: 47، 48

207) الكشاف 440/4

208) الجاثيـة 45: 29

209) الملك 67: 27

210) الملك 67: 25

211) الكشـاف 582/4

212) المصدر نفسه 582/4، 583

الإنسانية ، حيث أن العبارة توحي بمعنى مزدوج ، يعبر عن ازدواجية النفس الكافرة ، فهي متغطرسة ، مستبشرة في اللحظة التي تكون فيها بعيدة عن وعد الله بالحق ، وهي في حال هلع نفسي ، في اللحظة التي تباغت فيها بالوعد الحق. كذلك توحي الآية بهول ذلك اليوم ، وانخذال النفس الكافرة ، واعترافها بما اقترفته.

الفصل الرابع

التناسق لغة :

جاء في لسان العرب (1) ما يأتي :

نسق الشيء ينسقه نسقاً ، ونسّقه : نظمه على السواء ، وانتسق هو وتناسق ، والاسم النسق ، وقد انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض ؛ أي تنسقت، ويقال : رأيت نسقاً من الرجال والمتاع أي بعضها إلى جنب بعض.

والعرب تقول لطوار الحبل إذا امتد مستوياً : خذ على هذا النسق أي على هذا الطوار. وثغر نسق : إذا كانت الأسنان مستوية.

ونسق الأسنان : انتظامها في النبتة وحسن تركيبها.

وثغر نسق وخرز نسق : أي منتظم.

ومن هذه الدلالات الحسية قيل : «والنسق ما جاء من الكلام على نظام واحد»، «والكلام إذا كان مسجعا قيل : له نسق حسن». وعندما نستقرىء تاريخ هذه اللفظة «النسق» نجدها قد استعملت بمعنى «كواكب مصطفة خلف الثريا يقال لها الفرود»، وهذا المدلول يرجع بنا تاريخياً إلى العصور العباسية ، عصور ازدهار الحضارة العربية ، وتأثر الحياة العامة بالتقاليد الفارسية.

ومن كل هذا يمكننا أن نقول : أن التناسق هو الانسجام والانتظام والتلاحم ، وضم الأشياء بعضها إلى بعض في نسق وصورة منتظمة.

التناسق الفني :

اهتم علماء البيان بالنسق والانسجام ، ومعرفة الفصل والوصل ، وبراعة التخلص في الكلام العربي ، وإنها إذا تمت فيه ببراعة وحذق ، فإن الجمال الفني يسود التعبير.

ولأهمية هذه الظواهر الفنية ـ في مجال التناسق الفني ـ سأحاول أن أعرض بإيجاز تعاريفها وأهميتها عند العرب.

يقول ابن أبي الأصبع المصري في توضيحه لحسن النسق في محاسن الكلام : «وهو أن تأتي الكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات

1) لسان العرب مادة «نسق»

متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً ، لا معياً مستهجناً ، والمستحسن من ذلك أن يكون كل بيت إذا أفرد قام بنفسه ، واستقل معناه لفظه ، وإن ردفه مجاوره ، صار بمنزلة البيت الواحد ، بحيث يعتقد السامع أنهما إذا انفصلا تجزأ حسنهما ونقص كمالهما وتقسم معناهما ، وهما ليسا كذلك ، بل حالهما في كمال الحسن وتمام المعنى مع الإنفراد والإفتراق كحالهما مع الإلتئام والإجتماع (2) ». ويمثل لحسن النسق في الشعر بقول أبي نواس (الكامل) .

وإذا جلست إلى المدام وشربها   فاجعل حديثك كله في الكاس
وإذا نزعت عن الغواية فليكن   لله ذاك النزع لا للناس

ويعلق عليهما بقوله، «فإن حسن النسق لاءم فنين متضاربين في هذين البيتين وهما المجون والزهد حتى صارا كأنهما فن واحد(3) » .

وهو في حديثه عن الانسجام يكاد تعريفُه ينطبق على حسن النسق إذ يقول : «وهو (أي الانسجام) أن يأتي الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم ، بسهولة سبك ، وعذوبة ألفاظ ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع في النفوس ، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره مع خلوه من البديع وبعده عن التصنع (4)». وتخصيص ابن أبي الأصبع المصري بابا خاصاً لكل من حسن النسق والإنسجام يدل على أن بينهما فرقاً دقيقاً ويخيل إلي أن هذا الفرق يتمثل في أنه في الإنسجام يمس الشكل الظاهري للكلام عامة ، حيث الربط ومتانة بين أجزائه ، ويكون تأثيره منصباً على منبهات النفس ولا سيما الحواس منها. أما النسق فهو – إضافة إلى هذه الخواص – يمس مباشرة ملكة الذوق ، والحس الفني ، فيكون الوقع أشد ، والاستجابة النفسية أكثر . ومع كل هذا قد تلتقي – في نظري – خصائص حسن النسق بالانسجام ، ويكادا ن يلتحمان ويؤديان معنى واحدا ، إذا تُوخي في العمل الأدبي أسلوب التأثير والإثارة ، حيث الفن والجمال وروعة الأداء.

ويعرف السيوطي الانسجام بقوله : «أن يكون الكلام لخلوه من العقادة متحدرا كتحدر الماء المنسجم ، ويكاد بسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة » . ثم يقول : «والقرآن كله كذلك (5) ».

2) تحرير التحبير ، ص : 425
3) المصدر نفسه : ص : 427
4) المصدر نفسه ص : 429
5) الإتقان في علوم القرآن 87/2

ويرى الزركشي أن المناسبة بين آي القرآن متوفرة : «ومرجعها – والله أعلم – إلى معنى رابط بينهما ، عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ونحوه. أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر(6) »... ويرى أن فائدة المناسبة هي : «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله لحال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء(7) ».

وقد صنف في معرفة المناسبات بين الآيات أبو جعفر بن الزبير شيخ الشيخ أبي حيان ، كتاباً أسماه : «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن(6)» وأشار الزركشي إلى أن الشيخ أبا الحسن الشهراباني قال : «أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم تكن سمعناه ، هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري(6)» المتوفى سنة 324هـ/935م ولدقة معرفة المناسبة بين الآيات ، خفي على الكثيرين ، وإن أدركوه بالذوق ، ويعد فخر الدين الرازي «ممن أكثر منه (7) » وقال في تفسيره : «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط (6) ».

فالمناسبة وإن كانت دقيقة ، استطاع الفضلاء من علمائنا ودارسي القرآن أن يدركوها ، ويضعوا قاعدة لمعرفتها : «قال بعض المتأخرين الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرآن والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الإستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية وفي كل سورة (8)». وموضوع الفصل والوصل يحتل مكانته هنا ، وذلك لأهميته وصلته بالتناسق الفني : «وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز ، وهو مبثوث في الكتاب العزيز من

6) البرهان في علوم القرآن 35/1
7) المصدر نفسه 36/1
8) الإتقان في علوم القرآن 110/2

أوله إلى آخره (9) »... وقد ميزت البلاغة بالتمييز بين الفصل والوصل يقول الجاحظ : «خبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان وحدثني محمد بن أبان — ولا أدري كاتب من كان — قالا — قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل (10)» وقد جاء في الصناعتين أن البلاغة: «إذا اعتزلتها المعرفة، بمواضع الفصل والوصل، كانت كاللآلئ بلا نظام (11)» .

إن الفصل والوصل حلية الكتابة وجمالها ، والمعرفة الدقيقة بمعاني النفس في الصيغة التعبيرية. و«قال المأمون : ما أتفحص من رجل شيئاً كتفحصي عن الفصل والوصل في كتابه ، والتخلص من المحلول إلى المعقود ، فإن لكل شيء جمالا ، وحلية الكتاب وجماله إيقاع الوصل موقعه، وشحذ الفكرة وإجالتها في لطف التخلص من المعقود إلى المحلول(12)»، والنحويون يسمون حروف العطف حروف النسق لأن الشيء إذا عطفت عليه شيئاً بعده جرى مجرى واحدا (13).

ويسمى الفصل والوصل ببراعة حسن التخلص في جوانبه الكثيرة ، ويعرف ابن الأثير التخلص بقوله : «وهو أن يأخذ مؤلف الكتاب في معنى من المعاني ، فبينا هو فيه ، إذ أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً (14)» .

إن اللغة العربية لغة تجسمت فيها الدقة في الفصل، والدقة في الوصل. يقول الدكتور إبراهيم أنيس : «لا نغالي حين نقرر أن اللغة العربية لغة الوصل ، ففيها من أدوات الربط ما لا نكاد نراه في غيرها ، كالواو والفاء وثم... إلخ وقد اشتركت في هذا إلى حد ما كل اللغات السامية التي لا تكاد تبدأ جملة من جملها بغير واو العطف. فالوصل خاصة من خصائص اللغات السامية ، لا نكاد نراها في اللغات الأوربية (15)» .

ويمكننا بعد كل هذا أن نقول : أن التناسق الفني في الكلام هو

9) تحرير التحبير ص : 433
10) البيان والتبيين 87/1
11) الصناعتين ص : 438
12) المصدر نفسه ص : 441
13) لسان العرب : مادة نسق
14) المثل السائر 258/2
15) من أسرار اللغة ص : 310

الصيغة التي تتوفر فيها وحدة من الإنسجام ، في صورة جميلة أخاذة ، تسترعي الإنتباه ، وتريح الحواس ، وتتماشى والذوق الرفيع ، بحيث لاخلل ولا فوضى ، بل تراص والتحام في فن بديع.

والتناسق الفني في القرآن نابع من طبيعة اللغة العربية ، وفطرة عقلية العرب البيانية ، فإن العربي ، كان ينطق وكأنه نبع فياض ، لا تكلف ولا إجهاد في الفكر والعقل ، بل سلامة في سبك متين ، وانسجام وتناسق في الأجزاء ، على غاية من الإبداع ، وبساطة الفطرة وتفاوتها.

وهذه الروح تسود القرآن كله في الآية الواحدة ، والآيات المتعددة ، والسورة كاملة. وسبق أن أكدت هذا بقول من أبي الأصبع المصري (16) والسيوطي (17).

والقرآن يحتاج إلى دقة لمعرفة هذه الروح ، وتلمس معالمها. وهذه الدقة لا تتوفر إلا بإمعان النظر ، والتدبر والتبصر، والدربة والممارسة.

إن هذه الوحدة من التناسق وضعت دارسي القرآن — فنياً — ، يشعرون كأنهم في استطاعتهم أن يستغنوا — في حل القرآن — عن الرجوع إلى أسباب النزول ، والظروف التاريخية لآي القرآن. وهذا الشعور — وإن لمسه ويلمسه كل دارسي القرآن — يحمل مغزى كبيرا هو أن القرآن ، نصاً أدبياً ، توفرت فيه أصول الوحدة العضوية في ألفاظه ومعانيه وصوره وأجزاء عباراته ، وموضوعاته ونغمه ومناسبته للسياق والجو. يقول الدكتور صبحي الصالحي : «وما على قارىء القرآن — لتستبين له وجوه التناسب بين الآيات — إلا أن يحتكم إلى ذوقه الأدبي تارة ومنطقه الفطري تارة أخرى ، وحينئذ يقع على ربط عام أو خاص ، ذهني أو خارجي ، عقلي أو حسي أو خيالي ، من غير أن يقوم بهذه الألفاظ في نفسه مدلولات اصطلاحية أو فلسفية ، فكثيرا ما يدور التلازم بين الآيات دوران العلة والمعلول ، فإن لم تتلاق ويستلزم بعضها بعضاً تقابلت تقابل الأضداد ، كذكر الرحمة بعد ذكر العذاب ، ووصف الجنة بعد وصف النار ، وتوجيه القلوب بعد تحريك العقول ، واستخلاص الموعظة بعد سرد الأحكام (18)».

إن التناسق الفني في القرآن لا يقف عند حدود التعاريف ، — وإن

16) تحرير التحبير ص : 433 .
17) الاتقان 87/2 .
18) مباحث علوم القرآن . ص : 170

أسهمت التعاريف في تقريب صورة التناسق – بل يتجاوزها إلى النسق الداخلي والخارجي ، إلى الشكل والمبنى ، إلى الإطار والمضمار ، ولذلك سأتناول الموضوع من الجوانب التالي بيانها :

1) التناسق بين المفردات.
2) التناسق بين المعاني .
3) التناسق بحسن التذييل.
4) التناسق بين الصور.
5) التناسق في الصيغة التعبيرية.
6) التناسق في النغم والإيقاع.

إلا أن القسم السادس وهو الأخير سأتحدث عنه في الفصل الخامس من الرسالة وهو: « الإيقاع الموسيقي في القرآن » وذلك لما يتطلبه الموضوع من بسط الكلام في السجع والفاصلة والنغم والجرس والإيقاع.

1 – التناسق بين مفردات العبارة :

يتم التناسق بين المفردات باحتلال كل لفظة مكانها بالجملة العربية ، وتلاؤمها مع السياق والمعطيات : من معنى ومغزى وصور وظلال وإيحاء ، بحيث تتداعى الألفاظ ، وتتقارب في الأذهان بمجرد السماع ، وهي متسلسلة متناسقة ، لا تحمل خللا بل إحكاماً وأداء متيناً. يقول تعالى : « لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ المَصِيرُ(19) ».

إن لفظة : « معجزين » التي تعبر عن صلافة كفار مكة ، في تحديهم آيات الله ورسوله – لتبعث الطمأنينة في نفس الرسول ، في أنهم لا يقدرون على تعجيز الله في أرضه ، معززا هذا المعنى بقوله : « ولا تحسبن » بالنهي بلا ، والتأكيد بالنون الثقيلة. وإن مثل هذه الصلافة ، والمكر ، والعناد ، والتجبر ، يحرك العقل لإدراك ما يناسبها من جزاء. أما الحس الفني ، فإنه يتحرك ليدرك ما يلائم « معجزين » من مفردات تعبر عن الصورة الفنية ، باكتمال التناسق بينها ، وهنا يأتي الجزاء في قوله تعالى : « ومأواهم النار ولبئس المصير ». إن المقطع الأول : « ومأواهم النار » مسبوق بحرف عطف يعود على « لا تحسبن... » ، ومحدده مستوى معجزي الله ورسوله في الأرض ،

19) النور 24 : 57

ثم يعقبه مقطع ثان ، معطوف على « ومأواهم النار » ، لتأكيد سوء ما حل بهم من عذاب ، ويؤكد فعل « بئس » باللام ، وهي لفظة تدل على سوء المصير ، وبهذا يتم التناسق بين عمل كفار أهل مكة والجزاء الذي يستحقونه بألفاظ مستوحاة من العمل نفسه ، فالذي يتكبر في الأرض صلفاً ، وعنجهية ، يناله عذاب جهنم ، ولبئس المصير.

وتستمد الألفاظ قوتها وأداءها من المعنى العام للآية ، وتمد ذهن القارىء بقدرة على تتبع منطق المحتوى وتسلسله. إن شدة تلاحم أجزاء العبارة ، وتراص مفرداتها في وحدة متناسقة ، يدعان تداعي المفردات سهلا ويسيرا . يقول تعالى : « إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (20) ».

إن معالم وجوه الكفار تنطق بحالتهم النفسية عندما تتلى عليهم آيات الله ، فهي وجوه كالحة مسودة منكرة . والمنكر هو : الفظيع من التجهم والبسور (21). إنها مملوءة حقدا وانتقاماً ، فهي تكاد تسطو بالذين يتلون عليهم آيات الله ، ويزداد هذا المعنى قوة وإثارة بلفظة : « يسطون » ، التي تفيد الوثب والبطش (21) وهي من سطا : تدل على القهر والعلو يقال سطا عليه يسطو ، وذلك إذا قهره ببطش.

ويقال سطا الراعي على الشاة إذا مات ولدها في بطنها فسطا عليها فأخرجه. ويقال سطا الماء إذا كثر (21). وتحمل جرساً مشبعاً بروح الإنتقام ونزوة البطش ، وهي تناسب كلوح الوجوه الكافرة المنكرة ، بل هو تعبير طبيعي لما في هذه النفس المتجهمة والحاقدة على الرسول وأصحابه. وتفيد لفظة « يكادون » أنهم على أهبة السطو والبطش. إن هذه الحال غير الطبيعية التي يعيشون فيها ، هي في نظر القرآن شر على نفوسهم ، فيأتي بلفظة « قل » للتنبيه ، ولتأكيد حقيقة ما مينا لهم ، بأن ما يعانونه هو بسيط إذا قيس بجزاء الآخرة ، حيث مصيرهم نار جهنم ، ويزيدها تأكيدا قوله تعالى : « أفأنبؤكم » بثقل جرسها ونطقها وصيغتها : « قل أفأنبؤكم بشرّ من ذلكم النار » ، باسم الإشارة « ذلكم » بدل « ذلك » ،

20) الحـج 22 : 72
21) الكشـاف 170/3
– التجهم والبسور : كل منهما كلوح الوجه (الصحاح)

لأنها تحمل جرساً وإيقاعاً أشد أثرا في النفس ، ولأنها أكثر فظاعة ، حيث التنصيص بالجمع في قوله « شر من ذلكم » ، أي : « من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم. أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم (21) ». بعد ذلك يأتي قوله تعالى : « وعدها الذين كفروا » ، وهي تفيد « استئناف كلام (22) » ، فكأن القرآن يريد إشعارهم بضغط على النفس ، لتعود بالذاكرة إلى ما كان يتلى عليهم من آيات ، فتتصعد منهم الحسرات والتنهدات ، ثم تتراكم بمقطع يؤكد ما لأجله تحسرت النفس وتنهدت بقوله تعالى : « وبئس المصير » ، وهي تأتي مباشرة عقب إخبارهم أن النار التي سيصطلونها ، هي وعد على الله ، ووعد الله حق وعدل وصدق. إن التناسق بين مفردات هذه العبارة أحدث تزاحماً وتراصاً في المعنى ، وأمد الآية بقوة عجيبة ، من تسلسل منطقي لصيغة التناسق التي تتم في عبارة القرآن.

إن لفظة « بئس » تناسب مفردات مطبوعة بطابع العناد والعتو ، والتمرد على الذات البشرية ، التي انحرف أصحابها عن طبيعتها وفطرتها ، وعدم الإذعان للخالق ورسله وكتبهم السماوية وأوامرهم ونواهيهم ، وهذا التناسب يتم بربط الحدث وما يستوجبه من جزاء ، في صيغة فنية ، تراعي السياق ، ووحدة الأجزاء ، وتلاؤم الخاتمة لما قبلها : معنى ولفظاً وتناسقاً.

وقد وردت لفظة « بئس » كثيرا في القرآن ، وذلك لأنها — لدقة معناها — تحدد بوضوح المصير. ولا بأس أن أذكر بعضاً منها بدون تحليل يقول تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (23) ». « وَكَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (24) ». « ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (25) » ، « فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (26) ». « بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا (27)... »

(22) الكشاف 170/3

(23) التغابن 64 : 10

(24) المائدة 5 : 79

(25) غافر 40 : 76

(26) آل عمران 3 : 187

(27) الجمعة 62 : 5

« ...فَبِئْسَ الْقَرَارُ (28) ». « وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (29) ».

ونجد في القرآن لفظة « نعم » وهي مقابلة لـ « بئس » في معناها ومغزاها وأبعادها ، وتستمد محتواها من مفردات العبارة في تناسق عجيب يقول تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (30) ».

إن « نعم » هنا التي هي ضد بئس أجملت فضل الله على عباده المخلصين إن الله عندما يجازي عباده ، ويفي بما يعدهم به ، تلهج « بالحمد لله » ألسنة النفوس المؤمنة عن طبيعة ، وتتم في تناسق نفسي كامل ، لتشكره على أنه أورثهم الأرض ، والوراثة نعمة ومنة ، وعلى أنه بوأهم الجنة ، حيث يشاؤون ، فكأنها حق من حقوقهم ، وإن « نتبوأ » بجرسها وإيقاعها ، وثقل حق التبوء الذي توحيه ، تجعلها تتناسب وما بعدها « حيث نشاء » من قوله تعالى : « نتبوأ من الجنة حيث نشاء ».

إن المجازاة فضل من الله ، ونعمة على عباده ، وقد انصبا في العبارة على أجر العاملين المستحقين ذلك. فكانت لفظة « العاملين » للذين بذلوا جهودهم في طاعة الله ، وهكذا يتم التناسق بين مفردات العبارة ولفظة « نعم » التي تبعث الإنشراح والطمأنينة.

إن لفظة القرآن تقوم بمفردها — أحيانا — بإيجاد تناسق في الصيغة ، وفي أجزاء العبارة ، بإحكام الربط بينها. يقول تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (31) » واللفظة في هذه الآية : طوبى ، وهي مصدر من « طاب ، كبشرى وزلفى ، وتعني أصبت خيرا وطيباً (32) ». وهي عند ابن عباس تفيد معنيين : « الأول الغبطة ، والثاني أن يقال طوبى : شجرة في الجنة ، ساقها من ذهب ، وورقها الحلل ، وثمرها من كل لون ، وأغصانها متواليات في الجنة ، وتحتها كثبان المسك ، والعنبر ، والزعفران . (33) ». ويبدو أن المعنى الأول أنسب ، ويؤكد قوله تعالى : « وحسن مآب ». إن لفظة طوبى أحدثت تناسقاً فنياً نابعاً من

(28) سورة ص 38 : 60

(29) البقرة 2 : 206

(30) الزمر 39 : 74

(31) الرعد 13 : 29

(32) الكشاف 528/2

(33) تفسير ابن عباس ص : 208

التجاوب النفسي ، وهو سريان المعنى في النفس بانشراح ، وفي مجراه الطبيعي ، وذلك بحكم دقة وضعها واختيارها ، وتلازم معناها لسياق الآية.

إن الربط الفني الذي تحدثه لفظة القرآن ، بحكم التناسق بين مفردات العبارة ، ويجعلها لوحة فنية ، تقوم فيها الألفاظ بأداء مهمتها ، وهي جزء لا يتجزأ من العبارة. فلفظة «لاجرم» في قوله تعالى : «... وَيَجْعَلُونَ لله ما يَكْرَهُونَ ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى ، لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (34) »، والتي هي بمعنى «حقاً (35) » ، ربطت المعنى العام بحق الجزاء فالذين ينسبون إلى الخالق ما تكرهه نفوسهم ، هم – بحق – أهل لنار جهنم ، وأنهم مفرطون. ومفرطون : «قرىء مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشددا. فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها ، من أفرطت فلاناً ، وفرطته في طلب الماء إذا قدمته. وقيل منسيون متروكون ، من أفرطت فلاناً خلفي ، إذا خلفته ونسيته ، والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي ، والمشدد من التفريط في الطاعات وما يلزمهم (36)». ويناسب المعنى العام للآية أن يكونوا متروكين منسيين ، لأن في ذلك امتهاناً واحتقارا لشأنهم. وقد ذكر الزركشي أن «لا جرم» جاءت في القرآن في خمسة مواضع ، مرة في كل من سورة هود (37) وغافر (38) وثلاث مرات في سورة النحل (39). ويقول أن الزمخشري أورد أربعة معان فيها ونبه إلى أن معناها عند جُل المفسرين «حقاً» ، وبذلك تكون لاجرم كلمتين ركبتا وصار معناهما «حقاً (40)».

إن التناسب بين مفردات العبارة ، يحدث تسلسلا في المعنى بالصيغة التعبيرية ، ويستمد هذا المنطق في التسلسل من المنطق النفسي في المعنى. يقول تعالى : «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنَاً خَلِيلاً (41)»

إن مما يبعث على «العض» الندم والتحسر ، والعض يحدث بالنفس

34) النحل 16 : 62
35) تفسير ابن عباس ص : 226
36) الكشاف 614/2/ انظر تفسير ابن عباس ص : 226
37) رقم الآية : 22
38) رقم الآية : 43
39) رقم الآية : 23 ، 62 ، 109
40) البرهان في علوم القرآن 362/4 ، 363
41) الفرقان 25 : 27 ، 28

ألما وجرحاً ، فناسبه قوله تعالى : «يا ليتني» ، لأن التحسر يبعث على التمني المشوب بالفوات. ويردفها القرآن بآية تؤكد ذلك ، وهو قوله تعالى : «يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنَاً خَلِيلاً» ، فالعض حركة انفعالية يحدثها الندم ، والندم يحدث في النفس تأوهات وتحسرات وويلات ، ولذلك يلاحظ أن النَّفَسَ الطبيعي في صياغة العبارات ، يأخذ مجراه ، بحكم مفرداتها ودقتها في أداء المعنى ، وما يقتضيه من مراعاة لأصوله الفنية بمحتواها النفسي. وبحكم هذا التناسق يوحي المعنى إلينا أن النفس البشرية ، تحاسب نفسها بنفسها ، فتعض على اليد ، وتتمنى أن لو عدلت عن ارتكاب ما تحاسب عليه.

إن مسايرة الوضع النفسي ، تقوم بتحقيقها وحدة التناسق في التعبير الفني ، يقول تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً (42) ».

إن تحدي البشر لخالقهم ، يعبر عن نفسية مستكبرة ، وعن عتو كبير. والعتو هو الإستكبار (43) ، وهو تجاوز الحد في الظلم (44) ، «وقد وصف العتو بالكبير ، فبالغ في إفراطه ، يعني أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم ، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار ، وأقصى العتو (44)». ولذلك نجد تناسقاً في العبارة ، قامت به مفرداتها ، إذ أنها سايرت الوضع النفسي للذين لا يرجون لقاء الله. فكأن الاستكبار والعتو صدى للوضع النفسي ، وتابعان عنه.

ويزداد هذا وضوحاً في قوله تعالى : «يَوْمَ يَرَوْنَ المَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً. (45)»

إن الذين سبق ذكرهم ، تقف منهم الملائكة قائلة : «لا بشرى يومئذ للمجرمين». فتحديهم وعتوهم واستكبارهم جزاؤها أن ليست لهم بشرى بالجنة يوم القيامة ، والتعبير «لا بشرى» يغلق أمام النفس كل أبواب الغبطة والسرور والرحمة ، ولذلك تنطق نفوسهم بحقيقة واقعهم ، إذ : «يقولون حجرا محجورا» ، بمعنى «حراماً محرماً أن تكون لهم

42) الفرقان 25 : 21
43) معجم مقاييس اللغة 224/4
44) الكشاف 273/3
45) الفرقان 25 : 22

بشرى (46) » ، « وهي من حجره إذا منعه (47) » ، « وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور أو هجوم نازلة أو نحو ذلك ، يضعونها موضع الاستعاذة (48) » ، « لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه ، فكأن المعنى : أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجرا (47) » . ويوجز الزمخشري المعنى بقوله : « إنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة ، كرهوا لقاءهم ، وفزعوا منهم ، لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون ، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموتور وشدة النازلة. وقيل هو من قول الملائكة ، ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى. أي جعل الله ذلك حراماً عليكم (49) ». هذا المعنى الذي أوجزه الزمخشري ، يشير إلى سد منيع ، قائم بين المجرمين والبشرى بالجنة ، وأن التعبير : « حجرا محجورا » يعزز هذا المعنى ، ويؤكد استحالة دخولهم الجنة ، وأنهم خالدون في النار. ومن هنا يتضح كيف تأخذ الألفاظ محالها ، لتضع المعنى في نصابه ، وتدقق في أدائه ، ليكون السبك متيناً ، وأجزاء العبارة متناسقة ، ذات وحدة فنية مكتملة. إن لفظة القرآن تحدث في العبارة تناسقاً عميقاً ، في صورته الفنية والنفسية معاً. يقول تعالى: « إلا قيلاً سلاَماً سلاماً(50) ». لقد سبقتها آيات عديدة ، إذا حصرناها لا تتعدى سبع عشرة آية ، عرض فيها أصحاب الجنة ونعيمهم وخيراتهم ، ثم انتهت بقوله تعالى : « إلا قيلا سلاَماً سلاَماً ». ولفظة السلام هنا تشع الراحة والأمن في النفس ، فإن أهل الجنة « يحيي بعضهم بعضاً بالسلام والتحية من الله (51) ». فهذه اللفظة تشعرنا بقوة وعمق التناسق بينها وبين السياق ، وهو مستوحى من الحالات النفسية التي عليها أهل الجنة... وإن جرس هذه اللفظة ونطقها تشعرنا بانفتاح الفم والنفس ، وما هو إلا ابتهاج واستبشار يمس النفس في أعماقها.

إن التناسق الذي تحدثه الألفاظ ، وتقوم مفردات العبارة بعرضه ، ليسهم في توضيح المعنى ، وليستمد وضوحه من الواقع الحسي. يقول تعالى :

46) تفسير غريب القرآن ص : 312
47) الكشاف 274/3
48) الكشاف 273/3
49) الكشاف 274/3
50) الواقعة 56 : 26
51) تفسير ابن عباس ص : 454

« الذينَ يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى جهنَّمَ ، أولئكَ شرٌّ مكاناً وأَضَلُّ سبيلاً (52) ».

إن الصورة الحسية التي تمثلها الآية ، وهي حشر أهل جهنم على وجوههم ، التي أنفت الخنوع لخالقها ، – تستوحي مغزاها من واقع المجرمين على أرض الدنيا ، ويحسن القرآن ربط هذا المعنى في الصيغة التعبيرية بأولئك بدل « هؤلاء » ، احتقارا وامتهاناً. ثم يعقب ذلك ما يناسبها ، وهو أن منزلتهم في الآخرة « شر مكاناً ». ولفظة « شر » التي هي خلاف الخير ، وأصلها يدل على الانتشار والتطاير (53) – وقعها الخاص على النفس ، إذ أن في الدنيا طريقين ، خيرا أو شرا ، وأن من يعد شره خيرا ، فذاك هو العمى والضلال. ولذلك تختم الآية بقوله تعالى : « وأضل سبيلا » أي : « عن الحق والهدى » (54). فهم في مسلك ضال عن الحق ، الحق الذي يمثل فيه العدل والسير في الطريق الطبيعي لفطرة الإنسان ، وضال عن الهدى حيث الهداية والإرشاد والنور. وهنا تتم صورة التناسق بين الحشر على الوجوه ، وهو أسوأ ما يصل إليه أهل جهنم عند سوقهم إلى النار – واحتلالهم شر مكان في الدنيا والآخرة ، وأنهم على ضلال مبين.

إن التناسق يعني تتابع الألفاظ وتداعيها وتولد اللفظة من غيرها بحكم ما تملكه من حس قوي ، يمس ملكة الفن والذوق ، وتحدث فيه تجاوباً عميقاً. يقول تعالى : « تلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فيها كالحُونَ (55) » ، إن هؤلاء هم الذين يصدق فيهم قوله تعالى : « وَمَنْ خفَّتْ موَازِينُهُ ، فأولئكَ الذينَ خسرُوا أنْفُسَهُمْ في جهنَّمَ خالدُونَ (56) ». إن تلفح بمعنى تسفع ، وقال الزجاج : « اللفح والنفح واحد ، إلا أن اللفح أشد تأثيرا (57) ». و « يقال لفحته النار بحرها والسموم ، إذا أصابه حرها فتغير وجهه (58) » ، لذلك استعمل القرآن في الآية تلفح ، لتأكيد شدة التأثير عندما تلفح النار وجوه الذين خسروا أنفسهم ،

52) الفرقان 25 : 35
53) معجم مقاييس اللغة 180/3
54) تفسير ابن عباس . ص : 303
55) المؤمنون 23 : 104
56) المؤمنون 23 : 103
57) الكشاف 204/3
58) معجم مقاييس اللغة 259/5

وإن الذي يناسب لفح الوجوه بالنار وهي أن : «تضرب وجوههم وتحرق عظامهم وتأكل لحومهم النار (59)» — يناسبها الكلوح في قوله تعالى : «وَهُمْ فيها كالحُونَ»، وذلك لأن الكلوح من كلح : وهو أصل يدل على عبوس وشتامة في الوجه. من ذلك الكلوح وهو العبوس. ويقال : وما أقبح كلحته أي إذا كلح فقبح فمه وما حواليه وربما قالوا للسنة المجدبة كلاح (60). وهذا المعنى يصوره الزمخشري بقوله : «ان تقلص الشفتان، وتشمرا عن الأسنان، كما ترى الرؤوس المشوية (61)». ويعزز هذه الحقيقة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «تَشْوِيهِ النَّارُ، فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ العُلْيَا، حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ (61)». ويفسرها ابن عباس بقوله : «وكلحهم سواد وجوههم وزرقة عيونهم(62)».

إن النار عندما تلفح الوجوه، تبدو سودا والأعين زرقاً، وهذه الحال تعرض صورة التناسق الذي تحدثه المفردات.

إن القرآن يعمد دوماً إلى التقابل بين الآيات، لتبدو الصور واضحة؛ وإن التقابل الذي يمثل التضاد — وبالضد تعرف الأشياء وتتضح — نلحظ بوساطتها التناسق بين عبارات القرآن. يقول تعالى : «... فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (63)». إنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وإن لأصحاب جهنم عذاباً مهيناً، أي «يهانون به، ويقال شديد (64)». وهذا التناسب والتناسق اللذان يحدثهما كل من المقطعين الأخيرين، يعطيان عبارة القرآن حقيقة أدائها للمعنى، وإن الألفاظ تسير عقب المعنى ولا تسبقه، فجنات النعيم يقابلها عذاب مهين وقد اتخذ القرآن طريقة التقابل وسيلة للإيضاح، ولتقف عند مفترق طريقين : فإما جنة وإما جهنم.

إن التناسق يحدث — أحيانا — عن بداهة في المعنى، ويؤدي هذا

(59) تفسير ابن عباس. ص : 290
(60) معجم مقاييس اللغة : 5/134، 135
(61) الكشاف 3/204
(62) تفسير ابن عباس. ص : 290
(63) الحج 22 : 56، 57
(64) تفسير ابن عباس. ص : 282

المعنى للفظ يناسب معنى السياق كما في قوله تعالى : «وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ، وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (65)». إن الجبال القائمة والراسخة على الأرض، تشعر أن الأرض ستغور وتضطرب، ولكن هذا الشعور ينتفي بقوله تعالى : «أن تميد بهم» أي لئلا تميد بهم، فلا يقع اضطراب. لأنها محكمة في وضعها وبنائها. إن لفظة : «تميد» تناسب قيام الرواسي على الأرض، والعقل عندما يتشبع بهذه الفكرة، يندهش لوجود وديان وبحور وأنهار وطرق بالأرض، لكن هذا الاندهاش يتلاشى، عندما يتروى العقل، ويدرك أن «تميد» التي تفيد الحركة والاضطراب، وانتفت بقيام جبال على الأرض، يناسبها أيضاً ما بالأرض من فجاج وهي : «الطريق الواسع (66)». وعند ابن عباس : «أودية (67)»، لأن ذلك يؤكد طبيعة الحياة، وطبيعة الإنسان فيها. فالإنسان وجد ليسلك بالأرض سبلا عديدة، والأرض مسرح له، وأن هذا السلوك لا يحدث اضطراباً بالأرض، فقد روعي في بنائها كل ما يلزم لإقامة البناء. ويناسب الفجاج والسبل، عمل الإنسان بالحياة، فهو يهتدي بها في مجيئه وذهابه.

2 — التناسق بين المعاني :

إن المعاني تبعثها الألفاظ إلى الوجود، في صيغة تعبيرية، وتثبت معالمها بجلاء ووضوح الوحدة التركيبية التي تقوم على أساس «النظم» بمحتواه الفني، وتدع المعاني متداعية، واحدة تلو الأخرى، تبعاً لمقتضيات محتوى العبارة، لأنها — بذلك — تضمن أفضل صيغة فنية للتعبير عن معاني النفس. إن التعبير الفني لا يكتمل إلا إذا توفرت فيه وحدة تناسقية عميقة؛ تربط المعاني بعضها ببعض، ليستجيب لها العقل، وتنساب إليها النفس، وتشعر أن التعبير الفني قد استطاع أن ينقل معاني النفس ومشاعرها بدقة وأمانة.

إذا صيغ المعنى بهذه الطريقة الفنية، فاحكم أن الألفاظ أمسكت بزمام العبارة، ووضعت نفسها في الموضع الذي يجب أن تكون فيه، وأحكمَ التناسق بين أجزائها، وطبع صيغها بطابع الانسجام، والوحدة الفنية.

(65) الأنبياء 21 : 31
(66) الكشاف 3/114
(67) تفسير ابن عباس ص : 271

والتناسق بين المعاني يعني الاستجابة الفنية للعمل الفكري والنفسي. يقول تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ (68)».

إن التسلسل في المعنى الذهني، وتموج الفكرة بالذهن والنفس يتضح عند تدبر هذه الآية. فمغزى «يحذر» «ويرجو» يتلاءم كل التلاؤم مع المعنى السابق الذي يمثل قمة العمل في الطاعة، حيث القنوت والخشوع والقيام بالليل، والحذر من الآخرة، والأمل في رحمة الله. وبعد رسوخ هذا المعنى، وتغلغله في النفس، يتموج الفكر، لينتهي إلى إدراك الحقيقة، بأسلوب المقايسة، والمسبوق بالخطاب المباشر بلفظه «قل»، وهي تحمل أمرا إلهيا، وحقيقة ربانية: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون».

إن إحداث رجة نفسية، بالربط بين أجزاء الصياغة الفنية، وبأسلوب يغاير أسلوب السياق، لمما يؤكده القرآن في تعابيره، ويكمن فيه سر من أسرار سحر القرآن. وبعد أن لفت النظر إلى المقايسة، أشار إلى أن الإدراك بالتذكر والتدبر يدركه أولو الألباب، قال تعالى: «إنما يتذكر أولو الألباب» أي ذوو العقول المدركة. قلب الشيء: خالصه وما ينتقى منه (69). إن وحدة التناسق التي تمت في الآية بالنسق الحاصل «بقل»، «وإنما»، وتزاحم المعاني وتسلسلها على حسب درجة التأثير والإثارة، وضعت العبارة في تناسق فني عميق.

إن القرآن يحرص – بحكم كون نزوله منجماً – أن يتبع المعنى بالعبارة ترتيب المعاني بالنفس. يقول تعالى: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (70)». إن استئصال القوم الظالمين، الذين يمثلون خطرا على الكيان الإسلامي، يحدث ارتياحاً في نفوس المؤمنين المخلصين. «فقطع» ببنائها للمجهول، تفيد السرعة في محق دابرهم، وترفع النفس إلى الروح الإلهية، لتنقل شكرها وعرفانها، وإذا بها تردد: «والحمد لله رب العالمين». إن إضافة «الرب» للعالمين في هذه العبارة، تؤجج النفس، لتصعد حرارتها إلى أوجها، ثم تنطفىء في بوتقة الإله،

68) الزمر 39 : 9
69) معجم مقاييس اللغة 200/5
70) الانعام 6 : 45

رب العالمين، الذي استطاع بجبروته محق دابر القوم الذين ظلموا.

إن الحمد اعتراف النفس بالفضل، وليس أفضل عند المسلم الحقيقي من استئصال أعدائه، وقد ورد في الآية أنه: «إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القسم (71)».

وقد تم التناسق بين المعاني في هذه الآية في تسلسل فني: حيث الوحدة الفنية التي احكمت أجزاء العبارة، وتسلسل نفسي: حيث استجابة التعبير الفني لما يجول بالنفس.

إن التسلسل في المعنى يأخذ قوته بحكم سرعة تزاحم المعاني وتراصها. يقول تعالى: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ. كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (72)».

إن طوى يدل على إدراج شيء حتى يدرج بعضه في بعض ثم يحمل عليه تشبيهاً. «والطوى: البئر المطوية (73)».

إن طي السماء بثقلها وكبرها وسعتها يحصل بسرعة هائلة ومثيرة، وإن المخيلة لتندهش لما تؤول إليه السماء، ويزداد اندهاشها في عملية الطي كيف يكون؟ ولماذا؟ وإذا القرآن يقرب صورة الطي بصورة حسية: «كطي السجل للكتاب» عسى المخيلة تهدأ؛ ولكنها في الحقيقة يتضاعف اندهاشها، لأن التعمق في الصور الحسية يقرب المعنى، ولا يمكن من إدراك جوهره، والإنسان ميال بطبعه إلى إدراك الحقائق... كل هذا يتم في حدود قوله تعالى: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ» ..ثم إن المخيلة تهدأ وتستسلم، عندما يعرض القرآن جهلنا بخلقتنا الأولى، يوم لم تكن أرض ولا سماء ولا بشر بقوله تعالى: «كما بدأنا أول خلق نعيده». إن بدء الخلق مجهول، وإعادته أكثر غموضاً، لكنها أكثر وضوحاً وصدقاً عند أولى الألباب، ويزداد هذا المعنى قوة وصدقاً بقوله تعالى، في نغمة الهية: «وَعْداً علينا إنا كنا فاعلين». ووعد الله حق وصدق، وأي حق وصدق؟! ومن أصدق من الله حديثاً!. إن نون الجمع في «علينا» و«إنا» و«كنا» و«فاعلين»، تحمل حديث الله

71) الكشاف 24/2
72) الأنبياء 21/ : 104
73) معجم مقاييس اللغة 429/3

وعده ، بنغمة ربانية مثيرة . إن تزاحم المعاني في تناسق قوي ، من حيث الصيغة والتسلسل ، وإن قوة السبك وسرعة التصور ، وجو العبارة الذي طبع بالإثارة ، وصدق النغمة الإلهية الذي تثيره « نطوي » « بدأنا » و « نعيده » و « علينا » و « إنا » و « كنا » و « فاعلين » ، يضع العبارة في وحدة من التناسق والانسجام والالتحام في الصيغة أو في المعنى أو في ايحاءاتها .

ان التناسق ليحدث سرعة في تداعي المعاني ، يقول تعالى : « وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (74) » . على لمح البصر تتصور حياتين : حياة الدنيا ، ونحن على أرضها نعيش ، وحياة الآخرة ونحن على مسرحها نحشر . ان قوله تعالى : « ذراكم » الذي يعني : « خلقكم وبثكم بالتناسل (75) » – وهي لفظة حسبة تفيد البذر والزرع (76) – تعرض أمامنا حياة البشر ، وهم منتشرون على أرض المعمورة ، لا يحصى عددهم ؛ وهذه صورة ضخمة ، تضعف النفس أمامها ، وتقر النفس الكافرة باستحالة محوها ، ولكنها سرعان ما تبدو ضئيلة هزيلة وبسيطة إذا قيست بالقدرة التي أوجدتها ، والتي في استطاعتها افناءها وقبرها في طرفة عين ، ولذلك تمت سرعة المعنى بقوله تعالى : « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » . حياة فانية يعقبها فناء ، وفناء تعقبه حياة خالدة ؛ انها لقدرة العزيز الجبار .

ان التسلسل المنطقي في المعنى ، يتم بتناسق دقيق في عبارات القرآن ، وانه يحتاج إلى شيء من الإمعان لإدراك دقائقه والصلة المنطقية التي تربط بين المعاني . يقول تعالى : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (77) » .

ان تناسق المعنى في هذه الآية يبتدىء بالتساؤل المشوب بالتوبيخ : « ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله » ، لم لا تنفقون يا معشر المؤمنين في طاعة الله ، انه يملك السماوات والأرضين ، وكل شيء يرجع إليه ، فهو الواهب والقابض والوارث . وهذا المعنى يمس الوجدان ، ولذلك خاطب القرآن النفس في بخلها ، ثم أشعرها أن الله مالك كل شيء ، فإنفاقك تمهيد لإنفاق

74) المؤمنون 23 : 79
75) الكشاف 199/3
76) معجم مقاييس اللغة 352/2
77) الحديد 57 : 10

الله عليك في جنة الخلد ، بإغداق النعم والخيرات ، فهو الذي يرث الأرض ومن عليها . . . ثم تميز الآية بين الذين انفقوا قبل الفتح وقاتلوا ، فهؤلاء في أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ؛ وتأتي لفظة « كلا » لتضع كل فريق في مستواه ، وان الله وعد كلا منهما بالحسنى ، ثم تنتهي بتعقيب وهو قوله تعالى : « والله بما تعملون خبير » . ان علم الله يحيط بكل شيء ، فما تقدمه النفس من عمل ، يعلمه الله ، وهو خبير بالخفايا والدقائق... هكذا يتم التناسق بين المعاني في تسلسل منطقي ، وفي وحدة من الإنسجام الفني بين ألفاظ عباراتها .

ان التدرج في المعاني يحكمه التناسق بين المعاني نفسها ، فان التدرج المنطقي يكتمل إذا اكتملت في العبارة وحدة الانسجام والاتساق . يقول تعالى « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (78) » .

نلمس التدرج من خفايا الغيب إلى خفايا حياتنا المادية ، فالساعة خافية عنا ، لا يعلمها إلا الله ، وقد ابتدأت بها الآية ؛ ثم يعقبها نزول الغيث وهو خفي عنا وان لمسنا آثاره ، فطريقة انزاله وتوقيته ، وما إذا كان نافعا أو مضرا ، أمور لا يعلمها إلا الله . فالساعة ونزول الغيث يعقبهما القرآن بعلم الله تعالى لما في الأرحام ؛ وكل انسان بقي في رحم أمه ، وهو لا يدرك ذاته ، كما أن الأم وإن حملت الجنين لا تدرك طريقة نموه ، ولكنها تلمس في نفسها شعورا خاصا ، وانتفاخا يتزايد يوما بعد يوم ، وهي لا تعرف كيف يتم كل ذلك ؟

وهنا تمس الآية واقعنا المحسوس ، وتحرك فينا منبهات الإدراك ، بعد أن عرضت علينا تدرج المعاني في تسلسل منطقي ، وتربط كل ما سبق بما هو ألصق بحياتنا بقوله تعالى : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » . ان الكسب طلب الرزق ، وهو عمل يومي ، والموت حقيقة واقعة ، نكاد نشاهدها كل يوم ، فأكدهما القرآن بـ « وما تدري نفس » ، وكررها مرتين ؛ النفس لا تدري ، لأنها لغز في حد ذاتها ، وخالية من المعرفة والدراية ، ومرتبطة

78) لقمان 31 : 34

بخالقها ، وعالم ما يحيط بها . . لذلك نبه القرآن العقول بتعقيب على ما سبق ذكره ، يقول تعالى : « ان الله عليم خبير » ؛ فالعلم والخبرة مقتصران على الله ، فهو : « عليم بخلقه ، خبير بأعمالهم وبما يصيبهم من النفع والضرر (79) » . بهذا التعقيب تطمئن النفس بعد حيرتها وتساؤلاتها النفسية المتموجة ، وتنقلها في عالم الغيب بتدرج منطقي ، يشهد بعجز النفس حتى في أبسط أمورها ، كالكسب اليومي . . . وهذه الخفايا ، تلتزم فيها النفس بإقرار نسبة علم الغيب لله ، وانه الوحيد الذي يمثل وحدة الوجود في أوسع معانيها . ولعل سبب النزول الذي ذكره الزمخشري يوضح ذلك : « روي أن رجلا من محارب وهو الحارث بن عمر بن حارثة ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أخبرني عن الساعة متى قيامها ؟ واني قد ألقيت حباتي في الأرض وقد أبطأت عنا السماء ، فمتى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها : أذكر أم أنثى ؟ واني علمت ما علمت أمس ، فما أعمل غدا ؟ وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت ؟ فنزلت . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس » وتلا هذه الآية (80) » . هذا السبب ، يجعلنا ندرك بعمق طبيعة النفس البشرية : حيث الاستفسار والتنقيب في أدق الأمور الحيوية التي تتصل به وبمصالحه مباشرة ، وبسعة علم الله في كل ما هو كائن في هذا الوجود .

ان التناسق بين المعاني يدع النفس تنساب لحقيقة ما فيها ، إنها بذلك تملك الحواس والعقل والوجدان . يقول تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون (81) » .

ان زعماء أهل مكة كانوا يملكون ثراء كبيرا ، وقد عرضوا ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم مقابل تنازله عن عقيدته ودعوته ، وكان إصراره صلى الله عليه وسلم على الرفض التعبير الصادق عن صلابته في عقيدته ، ولذلك نلاحظ ابتداء الآية بالخطاب المباشر بلفظة « قل » ، وهي صريحة في محتواها ومغزاها ، حيث الإصرار على موقف الرسول الصلب

79) تفسير ابن عباس ص : 347
80) الكشاف 504/3
81) الأنعام 6 : 50

من زعماء كفار مكة ، وما تحمله « قل » من أمر إلهي . وما دام الثراء والأموال تسيطر على عقلية قريش ، فقد أصبح الجانب المادي الشغل الشاغل ؛ والقرآن يراعي دوما الحالات النفسية ، لذلك أعقب « قل » بما هو مهم عند قريش بقوله تعالى : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله » ، فلست إلا بشرا بسيطا ، لا يملك إلا قلبا طافحا بالإيمان ، وصلابة في العقيدة ، وان الثراء عرض زائل ، يغري ويفسد الضمائر . ثم أعقب القرآن الجانب المادي بقوله تعالى : « ولا أعلم الغيب » ان الغيب لله . وما كان التنصيص على هذا المقطع من الآية إلا لينفي الرسول (ص) ما يتردد على ألسنة كفار مكة ، من أنه يدعي علم الغيب ، ويعلم ما لا يعلمه البشر . ثم يأتي المقطع الثالث ، وهو قوله تعالى : « ولا أقول لكم اني ملك ، ان أتبع إلا ما يوحى إلي . . » ليثبت به أنه صلى الله عليه وسلم ليس ملكا على البشرية ، ذا سلطة مادية ، ولكنه رسول يوحى إليه ، اختاره الخالق ليكون وسيلة بينه وبين خلقه . وهنا يمس القرآن حواسنا بعرض صورة عميقة في دلالتها بقوله تعالى : « قل هل يستوي الأعمى والبصير » ، قل يا محمد ، هل يستوي النور والظلام ، والحق والضلال . وهذا المقطع قصد به الإثارة والتأثير ، ليعيش الوجدان ويدرك الفروق بين الصورتين ، ويربطهما بحقيقة النبوة ، وسلامة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . ولم يكتف القرآن بهذا الغمز في الوجدان ، بل اعقبه بلمسه في العقل ، ليتحرك ويتدبر في قوله تعالى : « أفلا تتفكرون » ، أفلا تدعون فكركم بفطرته وطبيعته يفكر ويتأمل ليتعظ ويعتبر . .

هذا التسلسل في المعنى ، وهذا التدرج على حسب الأهمية ، يأخذان صورتيهما الكاملة ، بفضل وحدة التناسق في المعنى ، ووحدة الأداة الفنية للتعبير الفني في عبارة القرآن . ان في التناسق وحدة في المعنى بتعلاتها وتوجيهاتها ، بحيث ينتقل القارىء من معنى إلى ثان وهو لا يشعر بهذا الانتقال ، لخلوه من الثقل والخلل ، فهو وحدة متراصة ، كسيلان المياه في الأنهار والبحور . يقول تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (82) » . فسر الزمخشري الفساد في البر والبحر بنحو : « الجدب والقحط وقلة الريع في الزراعات ، والربح في التجارات ، ووقوع الموتان

82) الروم 30 : 41

في الناس والدواب ، وكثرة الحرق والغرق ، واخفاق الصيادين والغاصة ، ومحق البركات من كل شيء ، وقلة المنافع في الجملة ، وكثرة المضار (83) ». ان فشو الفساد مصدره — كما تنص الآية — ما كسبت أيدي الناس ، وجنته من أعمال لا ترضي الضمير والمجتمع والخالق ، وحصل هذا الفساد لإذاقة الذين تسببوا فيه ، بل في بعضه : « لنذيقهم بعض الذي عملوا » ، والهدف الأساسي لذلك هو « لعلهم يرجعون » ، أي يتوبون ، ويرجعون إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها . ان التناسق واضح في كل آي القرآن ، ولكنه يبدو أوضح للعيان في الآية التي تجمع شتات المعنى ، فتصوغ حقيقته ، وغايته وسببه ، ثم تنبه بالتعقيب ، ليبدو ما ذكر وكأنه اختبار للنفس. يقول ، تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (84) » .

تصدر الحكم أول الآية ، وهو حظر النظر إلى أزواج غيرنا ، اللائي هن زهرة الحياة الدنيا عند الأزواج ، الذين لهم وحدهم حق التمتع بهن .

ان عد الزوج زهرة في نظر زوجها ، له في القرآن هدف معين ، وقد نص على ذلك بقوله « لنفتنهم » أي : « لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم ، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه (85) » .

وان مغزى ما سبق ذكره ، يؤكده القرآن بتعقيب على غاية من التناسق مع السياق والصيغة الفنية ، وهو قوله تعالى : « ورزق ربك خير وأبقى » ، إذ الحياة لهو وتفاخر وتكاثر في الأموال ، وكلها إلى الزوال ، وما يبقى إلا ما ادخره المرء من ثواب ، وقدمه من طاعة ، وقام به من عمل صالح . وعندما نربط الخاتمة بالسياق نلمس تفاهة الحياة في أعز ما تحبه النفس البشرية ، إلا أن هذه النفس بحكم طبيعة تكوينها ، ميالة إلى تحقيق غرائزها ، وإن الذي يستطيع تحديد هذه الطاقة الضخمة هي ضخامة الطاقة الروحية ، التي تربط الإنسان بربه في كل لحظة من لحظات حياته .

ان متانة السبك في هذه الآية ، واحكام الربط بين أجزائها ، ودقة بلاغة معناها ، تضع التناسق بين المعاني في وحدة فنية رائعة . .

ان ربط أجزاء العبارة ، بإيجاز ذي ايقاع متنوع ، يعطي التناسق أبعاده

(83) الكشاف 482/3
(84) طه 20 : 131
(85) الكشاف 98/3

وأحكامه ، يقول تعالى : « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ، وَهُوَ الْحَقُّ ، قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ، لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (86) » .

إن الضمير في « به » قيل يعود على العذاب (87) ، وقيل على القرآن (88) وقريش كذبت بذلك ، مع أنه الحق . وهذا التكذيب ، يأخذ مغزاه في الآية ، ليكون الرد عليه في تناسق تام ، ولذلك أوصت الآية الرسول (ص) بأن يتخذ موقفا نفسيا يحطم به عنجهيتها بقوله تعالى : « قل لست عليكم بوكيل » . انه أمر من الله ، تبلوره لفظة « قل » ، وان ما يصدر منك يا محمد ، ما هو إلا وحي يوحى ، يعمل بمقتضاه في الحياة الدنيا ، ويحاسب على قدر عمله وانصياعه للحق . وان الذين كذبوا به ، فقل لهم يا محمد : « فسوف تعلمون » .

ان هذا المقطع يحمل تهديدا يشوبه توبيخ عنيف ، فهو صادر من الخالق إلى مخلوقاته . إن ما في هذه العبارات من ايجاز دقيق ، ومن ايفاء بالمعنى ، هو في حد ذاته صواعق من التهديد والتخويف .

إن هذا التراص في المعنى والصياغة ، وهذا الإحكام في الربط بين أجزاء العبارات ، ومتانة السبك بين مفرداتها ، وسلاسة الإنتقال من مقطع إلى آخر ، تجسد مظاهر التناسق في المعنى والصياغة الفنية في التعبير القرآني .

ان من مهام التناسق في العبارة القرآنية الوضوح والتأثير ، وذلك بالربط ، ودقة التعقيب . يقول تعالى : « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (89) » . انهم ينسبون لله اناث الملائكة ، ويخصون نفوسهم بالبنين من البشر ، ولذلك بدئت الآية بالهمزة التي تفيد الإنكار في قوله تعالى : « أفأصفاكم » ، كذلك نلاحظ الفعل « أصفى » بدل « اختار » ، إذ الأولى : من الصفاء . وأصله يدل على خلوص من كل شوب . من ذلك الصفاء وهو ضد الكدر . يقال صفا يصفو إذا خلص (90) . وهي أدق من « اختار » ، وتفيد القساوة ، ثم الاستحقاق — وهي في الآية تعبر عن نفسية الكافرين عن مدى ما تعتقده في نسبة الإناث للخالق ، فساد الآية طابع من الاحتقار ، احتقار الله لمن ينسب

(86) الانعام 6 : 66 ، 67
(87) الكشاف 34/2
(88) تفسير ابن عباس ص : 111 — الكشاف 34/2
(89) الاسراء 17 : 40
(90) معجم مقاييس اللغة 292/3

إليه هذه المعتقدات. وعندما نمعن النظر في الآية نجد التناسق يتم بـ « إنكم » ، ان الثقيلة ، وبالخطاب المباشر بالضمير المتصل « كم » ، وتعقبها شهادة إلهية : « انكم لتقولون قولا عظيما » . انه قول عظيم ، بكل ما في لفظة قول من نطق حقيقي ، وما في لفظة « عظيم » من فظاعة وتشنيع . ان اللام في « لتقولون » ووصف القول بالعظيم تفيدان التأكيد ، ليزداد طابع التشنيع وضوحا وفظاعة .

ان المقطع الذي عقبت به الآية تُحكم ربط السياق ، وتتناسق والمعنى العام ولغرض الإثارة ، لأن النفس عندما تتحرك ، تدرك مدى ما تصل إليه النفس الكافرة من الاختلاق ، والتخيل البعيد عن التصور ، ومن سخافة في التفكير . ومن مهام التناسق في المعنى ، وهو يحدث بفعل القول ، ويسوده طابع من النقاش والحوار والجدل ، وينتهي بتنبيه ، ينزل بالنفس إلى أعماق الحقيقة — من مهامه الوضوح ، وتبديد الغموض الذهني والفكري . يقول تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (91) » .

ان الآية تعرض صورة التذبذب والنفاق : انهم يتمنون القتال ، فإذا فرض عليهم القتال نفروا منه ، وخشوا الناس كخشية الله ، أو أشد خشية . وان هذا التعبير : « أو أشد خشية » ، تنطق بأن الإيمان الصادق بالرسائل السماوية عن طريق الرسل — لا يتحقق بمحتواه السماوي إلا في القليل من البشر ، وأن الكثرة بعيدة عن ذلك وان رددت شعاره ، وتظاهرت بتطبيق مبادئه.

ان وحدة التناسق بين عبارات الآية اكتملت في صورة جدال ونقاش ، وان فعل القول يقوم بهذا الجدل .

انه بعد عرض صورة التذبذب والنفاق ، في نماذج بشرية معينة ، ربط السياق: بـ « قل » في قوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل . . . » ، وفيه عرض لحقيقة الحياة، حيث تفاهة جوهرها الذي يجب أن يقابله الإخلاص والاستماتة في أداء الواجب في سبيل الله، «وان الآخرة خير لمن اتقى الكفر والشرك والفواحش (92) »، وان الناس وما يقدمونه من عمل، لا يظلمون

91) النساء 4 : 77

92) تفسير ابن عباس . ص : 75

فيه فتيلا ، أي أن الله « لا ينقص من حسناتهم قدر فتيل ، وهو الشيء الذي يكون في شق النواة ، ويقال هو الوسخ الذي يكون بين أصابعك إذا فتلت (92) » . ويقول الزمخشري : « ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال ، فلا ترغبوا عنه (93) » .

نلاحظ في المقطع الثاني من الآية الذي يبتدئ بـ « قل » وينتهي بـ « فتيلا » ، تسلسلا في المعنى ، وانسجاما في الصياغة الفنية ، وإيجازا جامعا ، وغزارة في المعنى في صورة تزاحم وتراص . كل ذلك ، قصد به الوضوح والتأثير.

ونلاحظ الجدال بعنف في قوله تعالى : « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (94) » .

ان الموت حقيقة واقعة ، تصيب كل كائن حي ، ولو احتمى هو وغيره في بروج مشيدة حصينة ، لأن إرادة الله تنفذ دون أن تحدها سدود. ثم عرضت الآية نماذج بشرية منحرفة عن فطرتها ، إن اصابتها حسنة قالوا هي من عند الله ، وان أصابتها سيئة قالوا هي من عندك أنت يا محمد: « يعنون من شؤم محمد وأصحابه (95) » . ويأتي التعقيب عنيفا بفعل القول : « قل كل من عند الله » ، ويؤكد بتهكم ساخر بقوله تعالى : « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » . ان التعبير « لا يكادون » يعبر عن تحجرهم وبلادة اذهانهم ، اذ انهم أوشكوا ألا يفقهوا أي حديث.

ان وحدة التناسق واضحة جلية ، يعززها تناسق بين أجزاء العبارة بـ « قل » و « فمال » . والآيات القرآنية كثيرة في هذا المجال ، حيث عنف الجدال ، وقوة فعل القول ، وشدة الردود العنيفة والاستنطاق التلقائي ، اذكر منها هذه الآية بدون تحليل ، يقول تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (96) » .

ان من مهام التناسق في المعنى أنه يفيد التوكيد. يقول تعالى : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ

93) الكشاف 536/1

94) النساء 4 : 78

95) تفسير ابن عباس ص : 75

96) الأنعام 6 : 30

أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً (97) » .

ان الآية تجمع بين توكيدين : توكيد يتمثل في صيغة التعبير الفنية ، وتوكيد تحققه العبارات نفسها .

عندما نمعن النظر في صيغة التعبير الفنية نجد الحصر بالنفي والا ، ونجد لام التأكيد في « ليجمعنكم » ، وصيغتها المؤكدة بالنون الثقيلة ، وقوله « لا ريب فيه » . ومن جهة ثانية نلمس التأكيد من داخل العبارة بحكم طريقة تركيبها ، وحسن نظمها ، ودقة تناسقها . . ان تأكيد ان الله واحد ، وترداد الصيغة الإلهية في التأكيد في قوله تعالى : « الله لا اله إلا هو » كل هذا يسير في وحدة متناسقة ، يعززها تأكيد قوي لافت للنظر ، يمس عقيدة المؤمن ليختبرها ، وهو قوله تعالى : « ومن أصدق من الله حديثا » . ان هذا التأكيد بالصيغة التركيبية باستفهام مبكت ، يضع النفس المؤمنة أمام حقيقة ربانية ، لا يشوبها شك أو ريب في أن حديث الواحد القهار ، يفيد الصدق وأكثر من الصدق ، وانه خال من الكذب وبوارقه .

ان التماسك في معنى العبارة وقوة السبك فيها ، ومتانة التناسق في أجزائها وأجزاء الصيغة الفنية للعبارة ، تفيد التأكيد أيضا .

ان تأكيد المعنى من داخل العبارة ومن جملها ، متوفر في عبارات القرآن . يقول تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً (98) » .

بالآية أربع تأكيدات ، فان دخول الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ربهم ، أكد بلفظة « خالدين » و « أبدا » المقترنتين ، وبقوله « وعد الله حقا » التي تشمل مصدرين مؤكدين : « الأول مؤكد لنفسه ، والثاني مؤكد لغيره (99) » .

أما التوكيد الرابع فهو « ومن أصدق من الله قيلا » ، وهو توكيد بليغ (99) . . . والفائدة من هذه التوكيدات النابعة من العبارة هي إحداث تناسق بين أجزاء معنى العبارة ، حتى تستحيل الآية إلى سبك متين في الصياغة ، لا يعتورها أي خلل فني .

فالذي يردد العبارة ، لا يشعر بخلل في ربط أجزائها ، لأن صلة

(97) النساء 4 : 87

(98) النساء 4 : 122

(99) الكشاف 67/1

« وعد الله حقا » بما قبلها ، و « من أصدق من الله قيلا » بالمعنى العام ، ذوي علاقة وطيدة ، مع أن الأولى تفيد التأكيد في أن وعد الله حق لعباده في ادخالهم جنات الخلد ، والثانية تفيد صدق وعده سبحانه وتعالى .

ان تناسق المعنى يفيد التأكيد ولا سيما بحسن التعقيب الذي يتلاءم والجو العام للآية . يقول تعالى : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ » . (100) .

إن تأكيد المعنى في تناسق بديع بقوله تعالى : « وهل نجازي إلا الكفور » ، يزيد المعنى وضوحا وتحديدا ورسوخا .

وفي هذا المقطع لفظة « كفور » على صيغة فعول ، وهي معرفة بالألف واللام ، تتناسب و « كفروا » في المقطع الأول . وكل منهما يحمل جرسا واحدا ، وان اختلفت درجة الأداء في المعنى . . . ثم ان « ذلك » التي ابتدأت بها الآية ، سبقها قوله تعالى : « فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (101) » . – تحدث نسقا بين الآيتين ، لأنها ربطت بين المعنى العام للآية الأولى وما يناسبه من جزاء في الآية الثانية .

وهذا النوع كثير في القرآن كقوله تعالى : « إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (102) » . ان المقطع الأخير – المؤكد في حد ذاته بلن التي تفيد نفي المستقبل (103) ، وتفيد التأبيد عند الزمخشري – يعني عدم وجود نصير للمنافقين عندما يكونون في الدرك الأسفل من النار ، تؤكد المقطع الأول من الآية . . . كذلك قوله تعالى : « أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (104) » .

هذه الآية تعرض – في استفهام يفيد الإنكار والاستغراب – الرغبة في حكم الجاهلية ، ثم يعقبها بصيغة مثيرة : « ومن أحسن من الله حكما » . فحكم الله هو الأحسن والأفضل ، ولكن لمن ؟ . . . « لقوم يوقنون » ، للذين يصدقون بالقرآن (105) وعند الزمخشري : « فإنهم الذين يتيقنون

(100) سبأ 34 : 17

(101) سبأ 34 : 16

(102) النساء 4 : 145

(103) المخصص . المجلد الرابع . السفر الرابع عشر . ص : 55

(104) المائدة 5 : 50

(105) تفسير ابن عباس ص : 95

ألاّ أعدل من الله ولا أحسن حكما منه (106)». هذا المعنى يصاغ كله في تناسق متين، بل سلاسة في تسلسل المعنى المشوب بلفت النظر. ويقول تعالى: «وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً (107)». ان مغزى المقطع الأول يفيد سرعة فطرة الإنسان في طلبه للشيء وعدم اتزانه في ذلك، ويأتي تأكيد ذلك بوصف حقيقة هذه النفس بقوله تعالى: «وكان عجولا». ويصدر هذا المقطع بفعل «كان» على صيغة الماضي، وهي تعبر عن الإستجابة الطبيعية لمغزى المقطع الأول للتأكيد والتنبيه.

3 — التناسق بحسن التذييل:

أعني بذلك التناسق بين البداية ومطلق نهاية الآية، وان ما تمتاز به العبارة القرآنية من استيعابها لوحدة التناسق في المعنى، والربط بين أجزائه وأجزاء الصيغة الفنيـة في التعبير، ووحدة التناسق في الألفاظ، تضع العلاقة متينة بين البداية والنهاية... وبعبارة أوضح أقول: يمكن أن نحدد حسن التذييل بأنه انتهاء الآية القرآنية بما يدع المعنى مستساغا، ومسايرا للسياق، ومقبولا في النفس، وقادرا على الإثارة والتأثير، بتحريك العقل، ومس الوجدان، واثارة النفس والمخيلة، لتتدبر وتتفاعل وتتجاوب في عمق.

وحسن الخاتمة في النثر والشعر نوه بالاهتمام به أهل البلاغة والنقد. يقول ابن أبي الأصبع المصري: «يجب على الشاعر أو الناثر أن يختم كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى من الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال. فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها، وقد رأيت القاضي الفاضل عبد الرحيم رحمه الله تعالى — كثيرا ما كان يحترز في ذلك ويتوخاه، فيأتي منه بكل نكتة، ترقص لها القلوب، وتغني عن النسيب المحبوب (108)». وفي حديثه عن خواتم السور القرآنية قال: «وجميع خواتم السور القرآنية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى في النفوس بعدها تطلع ولا تشوف إلى ما يقال (109)...».

يقول تعالى: «إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، وَلَوْ

106) الكشـاف 642/1

107) الإسـراء 17 : 11

108) تحريـر التحبير ص : 616

109) المصـدر نفسه ص 620

سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيـرٍ (110)».

ان هـذه الآية تعرض صورة الآلهة، وهي صم بكم لا حراك بها، وتحمل معها يوم القيامة وثيقة البراءة مما نسب إليها من ألوهية، وبذلك تجسم أعمال المشركين، وهي هباء منثور. وهذا المعنى يؤكده الخالق بتعقيب يدع الضمير الإنساني يصدق تلقائيا، وهو قوله تعالى: «ولا ينبئك مثل خبير». فالله خبير بخفايا الأمور ودقائقها، وما تخفيه الصدور، وهو الذي ينبئك بما يحدث للآلهة المصطنعة، وللذين يتخذونهم أربابا من دون الله. وهذا التعقيب يتناسق والمعنى العام للآية، فان استنطاق الجماد، واستشهاده على أنه براء مما نسب إليه من الوهية، يحتاج إلى صدق في الخبر وصدق في المخبر، والمخبر هنا هو الله سبحانه وتعالى، ومن أصدق من الله قيلا وخبرا. ثم انها صيغت في تعبير، يحمل في ذاته قوة النفاذ إلى مسارب النفس، وذلك لأن في «ولا ينبئك» نغمة نفسية مؤكدة بصدق الخبر وقائله.

ويقول تعالى: «رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً (111)».

ان التعقيب بقوله تعالى: «قد أحسن الله له رزقا» يؤكد لطف الله بعباده ومنّه عليهم بالنعم. والتناسق في الصيغة التعبيرية بـ «قد أحسن»، وارتباطه بوحدة فكرة الموضوع لما يحمله من معنى يلائم المغزى العام، تعطي لحسن التعقيب جمالا وفنا: خفة النطق، وتسلسل المعنى في الوحدة التعبيريـة.

ان حسن التذييل يبعث الدهشة والإستغراب، ويسجل حالا نفسية، تنقل بسرعة نماذج غريبة في الحياة، وتتناسق والسياق في وحدة تامة. يقول تعـالى: «أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِـداً، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَـابٌ» (112).

ولعل ذكر سبب نزولها يوضح ما سبق ذكره. «روي ان اسلام عمر رضي الله تعالى عنه، فرح به المؤمنون فرحا شديدا، وشق على قريش،

110) فاطـر 35 : 14

111) الطـلاق 65 : 11

112) سـورة ص 38 : 5

وبلغ منهم ، فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ، ومشوا إلى أبي طالب ، وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، يريدون الذين دخلوا في الإسلام ، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا ابن أخي ، هؤلاء قومك يسألونك السؤال ، فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا يسألونني ؟ فقالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا ، وندعك وآلهتك ، فقال عليه السلام : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، أَمُعْطِيَّ أَنْتُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ ؟ فَقَالُوا نَعَمْ وَعَشْرًا ، أي نُعْطِيكَهَا وَعَشْرَةَ كَلِمَاتٍ مَعَهَا فَقَالَ : قُولُوا لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ ، فَقَامُوا وَقَالُوا : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (113) »

هذه الرواية تضع لفظة « عجاب » في موضعها الدقيق ، من حيث عمق التعبير وقوة التصوير ، والدقة في أداء المعنى ، اضافة إلى وزن صيغتها « فعال » التي تدل على المبالغة ، ومعناها : « بليغ في العجب . » وقرىء عجاب بالتشديد كقوله تعالى : « مَكْرًا كُبَّارًا » وهو أبلغ من المخفف . ونظيره كريم وكرام وكرام (114) . ثم ان صيغة التعبير في : « ان هذا لشيء عجاب » تتماشى والموضوع ، لذلك أكد بأن الثقيلة ، وأكد خبرها باللام ، ووصف بعجـــاب .

وحسن التذييل يعمد دوما إلى التوضيح ، ويتخذ في سبيله ما يلائم الموضوع . فالقرآن يتبع أحيانا أسلوب المقايسة ، وتأكيد أحد جانبي المقايسة ، ليتضح المغزى من الآيات . يقول تعالى : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (115) » . تشير الآية إلى عدم الاستواء بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، وكرر في العبارة أصحاب الجنة التي ربطت المقطع الأول بالثاني ، وكان في تكرارها تأكيد الفوز لأصحاب الجنة ، وما تتطلبه الدقة الفنية في ربط أجزاء الآية ، وذلك لتتضح في الذهن الصورة الخيرة لأصحاب الجنة ، والصورة المضادة لأصحاب النـــار .

113) الكشـــاف 72/4 ، 73
114) الكشـــاف 73/4
115) الحشـــر 59 : 20

وتزداد العبارة القرآنية وضوحا كلما ازدادت وسائل التوضيح نصاعة . يقول تعالى : « وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (116) » . بالآية عرض لحقيقة الحياة الدنيا ، فبدئت « بهذه » ، و « فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها (117) » .

ووصفت باللعب واللهو ، لأنها بحكم سرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها ليست : « إلا كما يلعب الصبيان ثم يتفرقون (117) » .

وتأتي المقايسة ، لتقابل الحياة الدنيا بحقيقة الدار الآخرة في أنها « حيوان » ، وهذه اللفظة دقيقة في وضعها واختيارها وأداء معناها ، لأن هذا الوصف يعني « أن ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة ، لا موت فيها ، فكأنها في ذاتها حياة (117) » .

ان اختيار هذه اللفظة يتمثل في صيغة بنائها ، إذ أن : « في بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والإضطراب ، كنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك . والحياة حركة ، كما أن الموت سكون ، فمجيؤه على بناء دال على معنى الحركة ، مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة (118) » . وان الذين يدركون حقيقة الدار الآخرة هم الذين يصدقون بها ، ولذلك كان التعبير القرآني : « لو كانوا يعلمون » .

ان « لو » داخل العبارة تؤكد الجهل والغباء ، وتخص الذين يعلمون ويصدقون بالدار الآخرة بحيوية العقل والنفس والوجدان . ان هؤلاء يصدقون ، ولكن أولئك « لا يعلمون ولا يصدقون بذلك (119) » ، وهكذا يتم التناسق ويحكم التعقيب والربط بين الأجزاء . وحسن التعقيب — وهو يتوخى التوضيح — يعمد إلى تحريك العقل والمخيلة . يقول تعالى : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (120) » . ان نكس تدل على قلب الشيء . ومنه النكس وهو قلبك شيئا على رأسه . (121) .

116) العنكبـــوت 29 : 64
117) الكشـــاف 463/3
118) الكشـــاف 463/3
119) تفسير ابن عباس ص : 338
120) ســـورة يس 36 : 68
121) معجم مقاييس اللغة 477/5

انها صورة حية واقعية ، نعايشها ونلمسها في نفوسنا وفي غيرنا من بني آدم . يقول الزمخشري في تفسير «ننكسه» في الخلق : «نقلبه فيه ، فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك انا خلقناه على ضعف في جسده، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ، ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق ، فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده ، وقلة عقله ، وخلوه من العلم ، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله (122) » . وهذه الصورة الملموسة ، يعمق معناها الدلالة الحسية لننكسه ، والتي هي من نكس السهم أي جعل أعلاه أسفله . ان القرآن ينبهنا لتدبرها ، ويحرك فينا العقل لتعقل ، والمخيلة لتتخيل أبعاد الصورة ودقائقها . ولذلك كان السياق متناسقا والتعقيب في قوله تعالى : «أفلا يعقلون» . و«قرئت أفلا تعقلون (123) » ، وكلاهما يمس العقل والمخيلة ، لتتحرك وتدرك أبعاد الحياة الثانية . . .

وان التعقيب بالاستفهام ، ينقل النفس إلى حال الإستنطاق التلقائي ، والإستسلام لحقيقة ما لأجله انتهت الآية بالتعقيب المحرك «أفلا تعقلون» . وأحيانا يضع حسن التعقيب النفس أمام تخييل حسي يكاد يكون واقعا مشهودا ، كقوله تعالى : «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (124) » .

ان التعقيب هنا بقوله تعالى : «أليس في جهنم مثوى للكافرين» – بعد التشنيع بالذي يكذب على الله ، بأن جعل له ولدا وشريكا ، ويكذب بالصدق أي بالقرآن والتوحيد – (125) ، هذا التعقيب ينقل النفس إلى حال وجدانية ، يشعر فيها المرء انه أمام واقع حسي ، تعدى صورة التخييل ، فهزت كيانه ومشاعره ، ونقلته إلى حقيقة كلها يقين وصدق . ويعزز هذا المعنى بداية التعقيب بالإستفهام المقترن بالنفي : «أليس» ، وهي بداية تشعر القارىء وكأنه يعلم مقدما عاقبة من يكذب على الله ، ويكذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا الشعور المفاجىء يضع النفس في حال انسجام كامل مع جو الآية ، لأنها تملك احساسه ومشاعره وأعصابه . يقول الزمخشري :

122) الكشاف 25/4
123) الكشاف 26/4
124) الزمر 39 : 32
125) تفسير ابن عباس ص : 388

«واللام في للكافرين اشارة لهم (126) » ، يعني أنها لم ترد بالشكل الآتي : « . . . مثوى الكافرين» . وفي هذا التخصيص – فيما اعتقد – ما يشير إلى شدة التنكيل لفظاعة عملهم ، وان في تقديم الجار والمجرور ما يؤكد ذلك : «في جهنم مثوى للكافرين» ، ومثوى اسم مكان من ثوى ، وهي كلمة تدل على الإقامة (127) .

ان حسن التعقيب في هذه الآية يتناسق والمعنى العام ، فالعمل الفظيع يناسبه تعبير فني ، يمس الوجدان والنفس والعقل ، لتشارك بمجموعها في استيعابها لحقيقة المحتوى ومغزاه . وهذا معناه أن التعبير الفني في القرآن مسخر كله لغرض محتوى القرآن وأهدافه وأبعاده .

والقرآن انما يحسن التعقيب ، لكي يؤثر ويثير ، والنفس إذا تأثرت عرفت الحقيقة وأدركتها . إن القرآن لا يعلم الإنسان بالتلقين ، بل يعلمه بعد الإثارة والتحريك لكل منبهات النفس والوجدان ، لينصهر في الحقيقة ويدركها بشعوره وحواسه وعقله . يقول تعالى : «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (128) » .

ان الآية تذكر الإنسان بمراحل خلقته : نطفة ، فعلقة ، فمضغة فعظاما ؛ وهذه المراحل تمر في ظلمات ثلاث ، وهي ظلمة البطن والرحم والمشيمة (129) ، وقيل «الصلب والرحم والبطن (130) » . . وهذا التعبير دقيق ومثير للمخيلة . . وتذكر الآية أيضا ما من الله به على الإنسان من خلق الأنعام ، ليتمتع بها ، ثم تلفت النظر بعد ذلك إلى أن دقة هذه الخلقة تؤكد وحدانية الخالق ، ووحدوية الإرادة : «ذلكم الله ربكم ، له الملك ، لا اله إلا هو» . وان «ذلكم» هنا أحدثت تناسقا فنيا ، فربطت المعنى العام بتحريك العقل ، ليدرك الخالق الجدير بالقيام بالخلق ، ثم تنتهي الآية بمس الوجدان ، بأداة استفهام في قوله تعالى : «فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» ، «أي يصرفون عن الحق

126) الكشاف 128/4
127) معجم مقاييس اللغة 393/1
128) الزمر 39 : 6
129) تفسير ابن عباس ص : 386 – الكشاف 114/4
130) الكشاف 114/4

ويعدلون (131) » ، « فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره (130) » ، كيف – بعد كل هذا – تجعلون لله شريكا ، ان خاتمة الآية أضفت على السياق ، وهو المعنى العام للآية ، صورة حية متحركة ، بدل اقتصارها على أسلوب العرض الهادئ . وان أدوات الاستفهام لتحتل مركز الحيوية في مقطع التعقيب ؛ لأنها تبعث على الاستفهام والتساؤل ، وتذكر وتلفت النظر ، وهذا الأسلوب يسهم في الإثارة والتأثير ، وهو متوفر كثيرا في عبارات القرآن،التي أذكر بعضا منها كقوله تعالى : « وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (132) » ، وهي تفيد التحسر والمباغتة . وكقوله تعالى : « ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (133) » ، وهي من « أفك الرجل عن كذا إذا عدل عنه . وأرض مأفوكة أي محرومة المطر والنبات . كأن ذلك عدل عنها وصرف (134) » ، وهي تفيد التهويل والتوبيخ . وكقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (135) » ، وهي تفيد الاستسلام . وكقوله تعالى : « فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ (136) » . كذلك قوله تعالى « أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (137) » ، « أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (138) » ، « أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (139) » ، « أَفَلاَ تُبْصِرُونَ (140) » .

وحسن التذييل يعمد دوما إلى التذكير والتدبر بمختلف الأساليب التي يقتضيها الموضوع ، كقوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (141) » ، « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (142) » ، « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (143) » ، « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (144) » ، « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (145) » ، « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى (146) » . « فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (147) » ، « فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (148) » ، « انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (149) » .

وان أسلوب المباغتة ينبع من العبارة وجرسها ، كقوله تعالى : « فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (150) » .

ان « بل » عند النحاة تفيد الإضراب (151) ، وهي في مقطع التعقيب تؤدي وظيفتها الفنية والبلاغية في قوله تعالى : « بل هي فتنة » ، حيث تفيد إنكار الكلام السابق (152) ، وتحدث هزة في النفس ، ومباغتة عنيفة تنتهي إلى الصدم وسد منافذ تقولات النفس ، وان الله أعطى هذه النماذج البشرية لتفتن ، وما الفتنة إلا « ابتلاء وامتحان لك ، أتشكر أم تكفر ؟ (153) » ، وأصل فتن يدل على ابتلاء واختبار . ويقال فتنت الذهب بالنار إذا امتحنته (154) . ثم تنتهي الآية بقوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، انهم في جهالة عمياء ، وهذا يناسب المعنى العام السالف الذكر .

فالتعقيب بقوله تعالى : « بل هي فتنة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » تمثل تناسقا بالصياغة الفنية في التعبير ، وترتبط بالسياق ، فلا يشعر فيها الذوق بأدنى خلل فني ، ولا العقل بخلل في المعنى . وعلى طريقة المباغتة

131) تفسير غريب القرآن ص : 145
132) الفجر 89 : 23
133) غافر 40 : 62
134) تفسير غريب القرآن ص : 145
135) غافر 40 : 69
136) غافر 40 : 81
137) الأنبياء 21 : 44
138) الأنبياء 21 : 67
139) القصص 28 : 71
140) القصص 28 : 72
141) الزمر 39 : 42
142) الزمر 39 : 52
143) المرسلات 77 : 50
144) الحشر 59 : 2
145) سبأ 34 : 19
146) طه 20 : 128
147) القصص 28 : 40
148) النمل 27 : 14
149) المائدة 5 : 75
150) الزمر 39 : 49
151) البرهان في علوم القرآن 4 /258
152) الكشاف 133/4
153) المصدر نفسه 134/4
154) معجم مقاييس اللغة 472/4

نفسها يرد قوله تعالى: «فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة، بل ضلوا عنهم، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون (155)»، وأحيانا تأخذ المباغتة شكلا آخر كقوله تعالى: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (156)»، «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (157)».

فالتعبير بـ «ألا ... ولكن ...» يعبر عن أسلوب عنيف في في مباغتة النفس يتلوه وصف يوحي بالغباء والتحجر والعمى، ولبئس ذلك من مصير وعاقبة. ان ألا: تأتي للاستفتاح، وفائدته التنبيه على تحقيق ما بعدها.. وهي مركبة من همزة الإستفهام ولا النافية.. «والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقا (158)»، وقد ترد «ألا» في صيغة تختلف عما سبق ذكره في تناسق عجيب، قد ينفرد الذوق بإدراكه كقوله تعالى: «فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (159)».

ان «الا» هنا أمسكت وحدة التعبير، تركيبا ومعنى، وبذلك كانت أبلغ وأشد تأثيرا ووقعا على النفس، كما أنها امتن وأكثر سبكا واتساقا مع السياق. وهذا يدلنا على أن القرآن ينتقي الأسلوب والصيغة الأكثر تلاؤما لمحتوى العبارة، وأشد تناسقا مع السياق، ووصلا لأجزاء العبارة.

فالمؤمنون في حال استبشار دائم يوم القيامة. وأراد القرآن أن يؤكد ديمومة هذا الاستبشار، بحيث لا يعتورهم خوف أو حزن، فأحسن التعقيب بقوله: «ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

ويقع حسن التذييل بمقطعين مختلفين، كل مقطع يؤكد الثاني مع تسلسل وتناسق بين الأجزاء. يقول تعالى: «وأخرى تحبونها، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (160)». ويعني بأخرى تحبونها

155) الاحقاف 46 : 28
156) البقرة 2 : 11، 12
157) البقرة 2 : 13
158) البرهان في علوم القرآن 235/4
159) آل عمران 3 : 170
160) الصف 61 : 13

أي: «نعمة أخرى عاجلة محبوبة اليكم (161)»، بالإضافة إلى النعمة المذكورة في آية قبلها (162)، وهي المغفرة من الذنوب والثواب في الآخرة. والفتح القريب قيل هو «فتح مكة. وقال الحسن: فتح فارس والروم (161)». ويرى الزمخشري في صيغة تحبونها: «شيئا من التوبيخ على محبة العاجل (161)».

ان السبك المتين بين أجزاء العبارة بصيغة موجزة كل الإيجاز، وبإيقاع خاص، يزيدان في تناسق أجزائها، ويبرزان حسن التعقيب فيها، الذي يرتبط مباشرة بحب نعم الله ونصره، ومنه بالفتح، وكلها بشرى للمؤمنين. وصيغت البشرى هنا بفعل الأمر: «وبشر!»، وهو اشعار بصدق الوعد وصدق البشرى.

ونجد في العبارات القرآنية تعقيبا عنيفا يوازي عنف السياق، يقول تعالى: «ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير» (163).

ان أخذ الله لعباده الكافرين، والتنكيل بهم جزاء ما كسبوا، والذي يفيده قوله تعالى: «ثم أخذت الذين كفروا»، لا بد أن يناسبه تعقيب يوازيه قوة وعنفا، ويؤكد مغزى السياق. ولذلك كان قوله تعالى: «فكيف كان نكير» تعبيرا على غاية من التناسق مع المعنى السابق، يعززه الإستفهام «بكيف» ولفظة «نكير»، والتناسق الفني في الصيغة بحرف الفاء في «فكيف» التي تفيد سرعة التعاقب. وان مغزى التعقيب يفيد شدة التعذيب والتنكيل بالقوم الكافرين.

ونلمس التفنن في التعقيب كقوله تعالى: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (164)». فالآية لم توضح هوية أهل الدار الاخرة توضيحا معينا، بل وصفتهم بالذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا. ويأتي التعقيب في قوله تعالى، «والعاقبة للمتقين»، بالتنصيص على «المتقين» الذين من صفاتهم ألا يعلوا في الأرض، ولا ينشروا فسادا في ربوعها. والتعقيب هنا يعمد إلى التوضيح وطمأنة النفس.

وقد يأخذ التعقيب صورة الوصف، لتأكيد نوع فعل السياق كقوله

161) الكشاف 527/4
162) الصف 61 : 12
163) فاطر 35 : 26
164) القصص 28 : 83

تعالى : «فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (165)» .

ان نغمة «قدرنا» و «القادرون» تتماثلان ، وتتم صورة النغمة بلفظة «نعم» ، ويتناسق المعنى وكأنه لحمة واحدة ، ويأتي التعقيب ليصف يد القدرة التي تقدر ، وقد أحسنت التقدير ، وكان لا بد للقادر من قدرة فائقة ، فكان قوله تعالى : «فنعم القادرون» .

وأحيانا لا يعود التعقيب على المعنى العام ، بل على المعنى الذي يحذوه ، لأن هذا الجزء من المعنى يرتبط بالسياق ، وهو أداة وصل بين مقطع التعقيب ومقاطع الآية . يقول تعالى : «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (166)» .

فالتعقيب «وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» ، يتصل مباشرة بقوله تعالى : «وعدهم» . ومما يشمله الوعد هنا ما يقوم به الشيطان من استفزاز لمن استطاع أن يملك نفسه بالصوت أو بالخيل أو بالرجل أو بالأموال أو بالأولاد أو غير ذلك ، وكل هذا داخل في عمل الشيطان ازاء ابن آدم ، فناسب أن يعود التعقيب على : «وعدهم» ، وهذه اذن على السياق . وهكذا يتم التناسق في وحدة متكاملة ، متصلا بعضها ببعض مباشرة . ومن التعقيب نوع يوجد كثيرا في عبارات القرآن ، وإذا قيس بما سبق ذكره ، فإنه يحتل المرتبة الأولى ، وهذا النوع هو انتهاء الآية بأوصاف الهية ، وعند التدقيق بشيء من الإمعان ، ندرك صلة الخاتمة بالمعنى العام للآية .

يقول تعالى : «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (167)» .

يقول الزمخشري : «والمعنى انكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام وفي بيت المقدس ، فقد جعلت لكم الأرض مسجدا ، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها ، فان التولية فيها ممكنة في كل مكان لا يختص امكانها في مسجد دون مسجد ، ولا في مكان دون مكان (168)» .

ان الله خالق الكون ، وهو مالكه ومدبره ، وهو موجود حيث ما

(165) المرسلات 77 : 23
(166) الاسراء 17 : 64
(167) البقرة 2 : 115
(168) الكشاف 180/1

اتجهنا : «فأينما تولوا فثم وجه الله» ، وهو بهذا المعنى واسع عليم ، واسع : «الرحمة ، يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم (168)» ، فهو يحيط بالكون ، ونحن في الكون كسمكة في بحر ، وعليم : «بمصالحهم (168)» .

وهنا أعرض نموذجين في تحليل صلة الخواتم بالسياق ، احدهما لابن أبي الاصبع المصري ، والآخر للأستاذ سيد قطب .

يعلق ابن أبي الاصبع المصري على قوله تعالى : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (169)» بقوله : «فإنه سبحانه لما قدم نفى ادراك البصر له عطف على ذلك قوله «وهو اللطيف» خطابا للسامع بما يفهم ، إذ معترف العادة ، ان كل لطيف لا تدركه الأبصار . ألا ترى أن حاسة البصر لا تدرك إلا اللون من كل متلون ، والكون من كل متلون ، فإدراكهما أنما هو مركبات للمركبات دون المفردات ، ولذلك لما قال : «وهو يدرك الأبصار» عطف على ذلك قوله «الخبير» ، تخصيصاً لذاته سبحانه بصفات الكمال ، لأن كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشيء (170)» . أما سيد قطب فيقدم لنا تحليله لقوله تعالى : «ان الله عزيز حكيم» في الآية الآتية : «فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (171)» .

يقول : «وتذكيرهم بأن الله «عزيز» يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة ، وانهم يتعرضون لقوة الله ، حين يخالفون عن توجيهه . وتذكيره بأنه «حكيم» ، فيه ايحاء بأن ما اختاره لهم هو الخير وما نهاهم عنه هو الشر ، وانهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه . فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير في هذا المقام (172)» .

نلاحظ في تحليل كل منهما عمقا يختلف فيه أحدهما عن الآخر ، فابن أبي الأصبع المصري يراقب الآية من حيث المعنى والمحتوى ، والمفكر سيد قطب يراقب المعنى والإيحاء خاصة ؛ فالأول في تحليله يحرك العقل ، والثاني يجمع بين العقل والمخيلة واثارة النفس .

(169) الانعام 6 : 103
(170) تحرير التحبير ص : 363
(171) البقرة 2 : 209
(172) في ظلال القرآن 142/2

4 ـ التناسق بين الصور:

ان ما تتميز به عبارة القرآن هي أنها تشع بالصور الحية ، وظلال المشاهد المتحركة . وكان لا بد لهذه الصور أن تتناسق ، إذ تتمثل في التناسق وحدة الانسجام من حيث الدقة والقوة ، ومن حيث الإثارة والتأثير ، ومن حيث الهدف الذي من أجله صيغت الصور ، ونبعت من محيط البيئة العربية ، لتظلل الذهن البشري بظلال الصور الحسية ليدرك المغزى ، ويزداد عمقا في فهم كنه القرآن في تعابيره الفنية وأسلوبه وخصائصه وفلسفته .

وفي القرآن عديد من الآيات التي تتناسق فيها الصور . يقول تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُـــونَ (173) » .

ان الذين يعبدون غير الله ، ويتخذون الأوثان آلهة ، يحتمون بها ، ويقدمون لهـا القرابين ، مثلهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا .

لقد أخذ التشبيه قوته ومعالم صورة من البيئة العربية ، فالعنكبوت في حد ذاتها غير محبوبة ، وشكلها مخيف ، كما أن ما تقيمه من بيت لا يستغرق مدة طويلة ، وان أضعف البيوت لبيت العنكبوت .

وهذه الصورة تنطبق تماما على الذين خلت قلوبهم من الإيمان والعبادة الحقيقية التي ترجع بهم إلى الخالق الحقيقي لهـذا الكون . فهم في نظر القرآن دواب ، انحرفوا بطبيعتهم ، واتجهوا نحو عبادة الأوثان . وهذه الآلهة وهي جماد لا حراك بها تتحكم فيهم ، وتتبرأ منهم يوم القيامة ، لأنها تسبح بحمده سبحانه وتعالى من حيث لا يفقهـون ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (174) » . كما أن ما تقدمه من قربان وتقديس لا يلبث أن يكون سدى . وشبه كل هذا ببيت العنكبوت في ضعفها وانهيارها وعدم قدرتها على حماية نفسها . فالآلهة لا تملك قدرة الدفاع عنها ، ولا تنفع أو تضر أصحابهـا ، وإن العنكبوت لا تملك القدرة أيضا على حماية بيتها من الانهيـار لأقل حركـة .

---

173) العنكبـوت 29 : 41

174) الاسـراء 17 : 44

ان هذا التناسق بين الصورتين والدقة في إحكام كل منهما ، حيث التطابق بين الأجزاء ، وان المغزى واحد ، كما أن النهاية واحدة ، تضع الصورة على غاية من الدقة والقوة .

والآية تعمد إلى توضيح المشبه به ، ليتضح في معالمه أبعاد المشبه ، ثم تنتهي الآية بقوله تعالى : « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » ، لتؤكد غباءهم وجهلهـــم .

إن من يحل في قلبه الإسلام ، فقد حل به نور يستضاء به ، ومن ضل عن الهدى ، فنور قلبه يتلاشى ، ويفقد الرحمة على نفسه ، فينحرف ويقسو قلبه ، ويشمئز من ذكر الله . فالمؤمن في نور ، والكافر في لجة من الظلام الحالك : ضلال وعمى . هاتان الصورتان المتناسقتان يمثلهما قوله تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (175) » . إن التناسق عجيب في الآية فبالتقابل بين الصورتين ، والربط بين أجزائهما بـ « فويل للقاسية » ، وتعقيب بـ « أولئك في ضلال مبين » ، أعطت الصورتين تناسقاً أعمق وأوضح .

فالصورة الأولى يناسبها مثل لفظة « شرح » و « نور » ، والصورة الثانية تناسبها مثل لفظة « ويل » بجرسها وهول نطقها ومدلولها . قال ابن عباس في تفسيرها ، أنها : « شدة عذاب ، وقيل واد في جهنم من قيح ودم (176) » وكذلك لفظة « القاسية » و « في ظلال » .

وبذلك تتناسق الصورتان وتبدوان جليتين واضحتين .

إن القرآن يتخذ من المقابلة ، والتناسق بين الصور ، وسيلة للتوضيح والتشخيص والتأثير . فالذي سبق أن أوضحته في الآيتين السالفتي الذكر ، تؤكده الآية الآتية : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، قُلْ : اللهُ ، قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَراً ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشَابَهَ

---

175) الزمـر 39 : 22

176) تفسير ابن عباس ص : 387

الخَلْقُ عليهِمْ ، قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شيْءٍ ، وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ (177)».

وإن الصور لتزداد تناسقاً بحسن العرض ، وجمال الأسلوب الذين تصاغ بهما ، كالحوَار بقُل ، وضرب الأمثلة بالمقابسة ، وحسن النسق بين أجزاء الآية مع تعقيب يرتبط عضوياً بالمعنى العام للآية.

إن قوة التناسق بين الصور التي يعمد إليها القرآن تتناول تفصيلا في إحدى الصورتين ، وإيجازا مستوفياً لأبعاد الصور في الصورة الأولى ، وتكون على شكل مقابسة كقوله تعالى : «مَثَلُ الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ ؛ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى . وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثمرات ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِم كَمَنْ هُوَ خالِدٌ في النَّارِ ، وَسُقُوا ماءً حميماً فَقَطَّعَ أمْعاءَهُمْ (178)».

تعرض الآية صورة الجنة وأهلها ، وهم يتمتعون بكل خيراتها وثمراتها وتقصر – بشيء من التفصيل – نعم الله على عباده المتقين ، وما من به عليهم من مغفرة ورضوان – يقابسها القرآن بنقيضها ، ويوجز محتوى هذه الصورة بقوله : « كمن هو خالد في النار ، وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » .. إنها صورة تنقبض لها النفس ، وهي تتخيل بالمخيلة حال من أخلد إلى نار جهنم ، شرابه فيها من ماء حميم . إن هذا النوع من الماء الحميم لشديد الأثر حتى : « قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم ، وانمازت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم (179)» . إن صورة الماء الحميم ، وهو يقطع الأمعاء ، تذهل الإنسان ، فيكاد يصاب بدوران وانهيار في الأعصاب ، ويشعر بهذا كل من يتعمق في الصورة ويدقق في أجزائها ، وكيف تقطع الأمعاء ، وينخر هيكل الإنسان من الداخل وهو لا يقدر على منع الأذى عنه وعلى وقاية نفسه ، وتكرر الحال ، لأن الكافر خالد في النار .

هاتان الصورتان تتمان في تناسق رائع ، صورة تقابلها صورة ، وحال تقابلها حال ، فالجنة تقابلها جهنم ، والمتقون يقابلهم الكفار ، وخيرات الجنة التي تبعث الإنشراح النفسي في أعماق الإنسان ، يقابلها نار جهنم ،

---

177) الرعـد 13 : 16

178) محمـد 47 : 15

179) الكشـاف 4/322

وشرب الماء الحميم الذي يأخذ منهم كل مأخذ ، فيقطع ، ويمزق ، ويشوي ، ويحـــرق . . .

وقد اعتمدت الصورتان على الواقع الحسي ، ليكون التأثير ابلغ وأشد وقعا وتحريكا للعقل والمخيلـة .

وعبارة القرآن تعمد أحيانا إلى عرض واقع نفسي ، ثم تنهيه بلفظة تضع الصورة وظلال مشهدها في تناسق ووضوح . فلفظة « بور » في قوله تعالى : «بَلْ ظَنَنْتُمْ أن لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالمُؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَــوْماً بُــوراً (180)» .

ان التناسق يتم عندما تطلق عنان المخيلة لإدراك الصورة ؛ التي تجسد أمامنا الواقع النفسي للمنافقين ، فقد ظنوا – واستحال ظنهم إلى عقيدة – بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرجع من الحديبية إلى المدينة ، وان الله ليس بناصره ، وان مثل هذا الإعتقاد المبنى على ظن وهمي ، يؤكده وصف القرآن اياهم بقوله : « وكنتم قوما بورا » . والبور هي الأرض التي لا تصلح للحرث والزرع بحكم فساد تربتها ، فعقول المنافقين ونفوسهم ونواياهم فاسدة ، تستوجب سخط الله وعقابه ، ويوم القيامة يهلكون . . .

وبذلك تدرك المخيلة مدى التناسق بين الصورتين : صورة المنافقين وقد أضلهم الله ، وظنوا في الرسول خلاف الواقع الصحيح والتي توحي بخواء وفساد عقلي وروحي ونفسي – بصورة الأرض البور التي خلت تربتها من مادة الإنتاج ، وهي الخصوبة وقابلية النمو .

وإن هذا الذي تستوحيه المخيلة ، نابع من العبارة القرآنية ، وتشير إليه الألفاظ والأوصاف ، دون أن تقوم العبارة بضرب مثل أو مقابسة كمـا سبق أن أوضحنـا .

ان الدقـة في التصوير تسهم في التناسق بين الصور ، بحيث يشعر القارىء وكأن الصورة الاولى لا تعطيها حقيقتها وأبعادها وآفاقها الواضحة إلا الصورة الثانية لا بديل عنها . يقول تعالى : « فَتَرَى القَوْمَ فِيهـا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (181)» .

ان القوم في حال صرع ، فقدوا وعيهم وأعصابهم ، وهم في حركة

---

180) الفتـح 48 : 12

181) الحاقـة 69 : 7

مضطربة عاصفة . هذه الصورة لا تناسبها إلا صورة تماثلها قوة ودقة ، لتناسق الأجزاء والأبعاد ، وتلتقي في وحدة مصورة بظلال مشاهدها . . . انها صورة أعجاز نخل خاوية ، متطايرة ، تنزل وترتفع في غير نظام ، والريح العاصف يذهب بها كل مذهب .

ان أفضل ما تتميز به الصورة في العمل الأدبي هو الدقة ، والدقة في هذا الميدان تحتاج إلى القدرة الفائقة ، والعقل الثاقب ، والإبداع في الملكة التعبيرية للإيصال والإبانة والتوضيح والتأثير . وهي في العبارة القرآنية أصيلة وأكثر دقة ، لأن الدقة تنبع من الخبرة بالحياة ، والقرآن يستوعب هذه الخبرة في أوسع معانيها ويصوغها بأداة فنية رائعة . وان كل الآيات التي سبق ذكرها تمتاز بهذه الخاصية ، وتشاركها القوة أيضا ، لأن ما كان دقيقا لا بد أن يكون قويا . يقول تعالى : « مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ في هذهِ الحياةِ كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ فأهْلَكَتْهُ ، وما ظَلَمَهُمُ اللهُ ولكِنْ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (182) » .

الصر هو الريح الباردة (183) . وعند ابن عباس : حارة أو باردة (184) .

ان الصورة التي تعرضها الآية تشخص الذين ينفقون في هذه الحياة ، باذلين في ذلك الجهد ، وليس في انفاقهم نفع ولا فائدة ، لأن قلوبهم خلت من روح القرآن ، فكان ما ينفقونه بمثابة زرع ، أهلكه ريح عاتية ، فبوغت أصحابه . ويشهد عليهم القرآن بأنهم ظلموا أنفسهم ، إذ لم يعطوا حق الله في الحرث ، وحق نفوسهم في التعب والكد . ان عنصر المباغتة الذي يداهم النفس وهي – بعد – على يقين من جني ثمرة الحرث والزرع ، تزلزل النفس البشرية ، ولا سيما تلك التي كفرت بربها ، وربطت مصيرها بأرضها ودنياها . أما النفس المؤمنة ، فهي وان تألمت ، تسلم أمرها إلى خالقها ، فهو المدبر الوحيد لشؤونها .

ان دقة التناسق تكتمل في صورة منتظمة ، حيث التحمت صورة انفاق أهل الشرك في الحياة بما لا يجدي نقيرا ، بصورة من يملك حرثا ، وهو ينتظر بسرور وشغف عطاءه ، وإذا بريح فيها صر تدعه حطاما ، كأن لم يكن بالأمس ، ولم يشاهد البتة .

---

182) آل عمران 3 : 117
183) الكشاف 403/1
184) تفسير ابن عباس ص : 54

5 – التناسق في الصيغة التعبيرية :

ان ما سبق ذكره من وجود تناسق محكم بين مفردات العبارة ومعانيها وصورها ، وبين البداية والنهاية ، ليصاغ في وحدة تركيبية ، تحل فيها الصيغة التعبيرية ، لتمثل أصول الفن التعبيري في القرآن ، وأصول جماله .

ان الوحدة العضوية داخل الوحدة التأليفية في عبارة القرآن ، يجسمها إلى حد كبير تنوع أدوات الربط التي تجاوزت حدود مصطلحاتها ، إلى أداء وظيفتها الفنية في التعبير الفني ، وكذلك يهتم القرآن بالصيغة الفنية للإثارة والتأثير ، وهذا الإهتمام يستوجب عناية في أسلوب العرض وتنوعه تبعا للموضوع .

ان التناسق في الصيغة التعبيرية يعم كل القرآن : في الآية الواحدة ، والآيات المتعددة ، وكذلك السورة كلها .

يقول تعالى : « وَهُوَ الَّذي أحْياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ إنَّ الإنْسانَ لَكَفُورٌ (185) » .

إن الإحياء والإماتة ، واعادة الحياة ثانية ، تستغرق فترة زمنية ، والصيغة الفنية بالقرآن دقيقة في الأداء ، فكان الربط في العبارة بين أجزائها بـ« ثم » ، التي تفيد التعقيب ببطء . ولإثارة المشاعر ، وتحريك النفوس اتبع القرآن الخطاب المباشر بـ« أنكم » لتتأمل النفس ، وتدرك أغوارها ، ولتنطق بحقيقة واقعها المؤلم أمام خالقها ، فحسن التعقيب من الجانب الفني ثم بـ« أن » الثقيلة والتي تفيد التأكيد إضافة إلى لام التأكيد في « كفور » ، وصيغة وزنها « فعول » التي تفيد المبالغة . وفسرها الزمخشري بقوله : « لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم (186) » . وذلك ليتجاوب مغزاها مع خطاب الله للنفس البشرية « بكم » ، التي يعمق تفكيرها في خليقتها وفي احياء الكائن البشري ، بعد أن كان : « جمادا ترابا ، ونطفة وعلقة ومضغة (187) » ، وكذلك في الإماتة والإعادة . وعلى العكس ، فلمس التعاقب بسرعة عجيبة بـ« الفاء » ، مع تخييل صوري حسي ، ووحدة في تسلسل المعنى في قوله تعالى : « فاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً ، فأرْسَلْنا إلَيْها رُوحَنا ، فتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً (188) » ، على سرعة البرق الخاطف تحتجب مريم ابنة عمران ، فيرسل إليها الروح ، ويتمثل أمامها

---

185) الحج 22 : 66
186) الكشاف 169/3
187) الكشاف 169/3
188) مريم 19 : 17

بشرا سويا . والوظيفة الفنية «للقاء» هنا هي أنها تستجمع قوى النفس ، لينصهر العقل والوجدان في آفاق المخيلة حتى يرسم لنفسه الصورة وظلالها وأعماقها ، ويدرك ما تحمله العبارة من مغزى ، وسمو في المعنى .

أما حسن النسق بالواو ، وهو كثير في القرآن ، فيعرضه علينا ابن أبي الأصبع المصري في قوله تعالى : «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (189)» . يقول : «فأنت ترى اتيان هذه الجمل معطوفا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة ، لأنه سبحانه بدأ بالأهم ، إذ كان المراد اطلاق أهل السفينة من سجنها ، فلذلك بدأ بالأرض ، فأمر بالابتلاع ، ثم علم سبحانه أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء ، تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها (وربما كان ما ينزل من السماء مخلفا لما تبتلعه الأرض ، فلا يحصل انحسار) . فأمر سبحانه السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع ، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض ، وانقطعت مادة السماء وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين . ثم قال تعالى : «وقضي الأمر» أي هلك من قدر هلاكه ، ونجا من قضيت نجاته ، وهذا كنه الآية ، وحقيقة المعجزة ، ولا بد أن تكون معلومة لأهل السفينة ، ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها ، وخروجهم منها موقوف على ما تقدم ، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل ، وكذلك استواء السفينة على الجودي ، أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقرارا لا حركة معه ، لتبقى آثارها آية بعد أهلها وذلك يقتضي أن يكون بعدما ذكرنا ، وقوله سبحانه : «وقيل بعدا للقوم الظالمين» . هذا دعاء أوجبه الإحتراس مما يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق ، فدعا سبحانه على الهالكين ووصفهم بالظلم احتراسا من هذا الإحتمال وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما تقدم (190) » .

إن أدوات الوصل تمثل العلاقة الفنية بين العبارات ، ومن يحسن وضعها في الكلام ، فقد أحسن السبك والنسق بين أجزاء الكلام ، وان هذا الحسن لا يتحقق إلا إذا ساير ترتيب المعاني في النفس . يقول تعالى :

(189) سورة هود 11 : 44

(190) تحرير التحبير ص : 425 ، 426

«وَلَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (191)» .

ان تكرار «لتجدن» مرتين ، وان صيغتها وتأكيدها باللام ، والنون الثقيلة ، تفيد وضوح التقابل في المعنى : ففي الأولى اليهود وأهل الشرك ، وفي الثانية أهل الإيمان والمودة . . . ثم يتم ربط المعنى بالسياق باسم الإشارة «ذلك» ، ليفسر المغزى من أن النصارى أقرب مودة للذين آمنوا ، وان فطرتهم سليمة ، وهذه السلامة يؤكدها قوله تعالى : «وانهم لا يستكبرون» «عن الإيمان بمحمد والقرآن (192)» . ويتم الوصل «بأنهم» في تناسق عميـــق .

وتلاحظ تقديم كل من «أشد الناس» على اليهود ، وهؤلاء على الذين أشركوا ، وكذلك تقديم «أقربهم مودة . .» على «الذين قالوا إنا نصارى» . وكل ذلك لتأكيد نوعية النفوس في خبثها وطيبتها . يقول الزمخشري : «وصف الله شدة شكيمة اليهود ، وصعوبة اجابتهم إلى الحق ، ولين عريكة النصارى وسهولة أرعوائهم وميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين ، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا ، وكذلك فعل في قوله : «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» . ولعمري انهم لكذلك وأشد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله» (193) .

ويتم حسن الربط بـ«أن» ، ويكاد الذوق بمفرده يدرك سلاسته وخفة وصله برشاقة ، ومتانته في النسق كـ«إن هم الا يظنون» في قوله تعالى : «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» .

فالانتقال من السياق إلى الخاتمة بالوصل «بأن» يتبع بعمق ترتيب المعنى في النفس ، حيث لا خلل ولا ثقل على اللسان والنفس ، بل سلاسة متناهية ، على غاية من الرشاقة ، والإبداع ، والروعة .

(191) المائدة 5 : 82

(192) تفسير ابن عباس ص : 99

(193) الكشاف 668/1

وبشارك «أن» في هذه الخاصية، من حيث سلاسة الربط، ورشاقة الإنتقال أدوات مثل «ذلك» و«كذلك» و«أولئك»، والجمع بين الأخيرة و«الا» وغيرها من الأدوات. والأمثلة على ذلك كثيرة، أذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنَ النَّارِ (194)». «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ، ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ (195)» ... «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (196)»، «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ (197)» ... «ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (198)» ... «... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (199)»، «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (200)»، «... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (201)»، «وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا مُفْتَرِينَ (202)»، «وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (203)» ...

و«بكذلك» أذكر قوله تعالى: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (204)»، «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (205)»، «... كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ (206)»؛ «كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (207)».

أما «بأولئك» فكقوله تعالى «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (208)»، «أُولَئِكَ

194) سورة ص: 38 : 27
195) التغابن 64 : 9
196) الحشر 59 : 13
197) الحشر 59 : 14
198) البينة 98 : 5
199) البينة 98 : 8
200) سورة ص 38 : 64
201) التغابن 64 : 9
202) الاحقاف 46 : 28
203) الحشر 59 : 17
204) الأعراف 7 : 58
205) الأنبياء 21 : 88
206) البقرة 2 : 113
207) الزخرف 43 : 11
208) البينة 98 : 6

هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (209)»، «أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (210)»؛ «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (211)». وأحياناً يزداد الربط روعة وبلاغة حين يشارك مع «أولئك» «ألا»، كقوله تعالى: «أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (212)»، «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ... أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (213)» ويتم الربط أيضاً بتلك، كقوله تعالى: «تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ» (214). «تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (215)». إضافة إلى هذه الأدوات، لدينا أدوات أخرى يدركها من يستقرىء القرآن الكريم. ولست هنا إلا مجملا أكثر مني مفصلا، وبوجه عام يمكن القول: ان أدوات الوصل في القرآن، تصل الكلام في وحدة متناسقة عجيبة، يعسر على قلم الكاتب محاكاته في فطرة سلاسته، وطبيعة اتساقه بالسياق. ان هناك وسائل أخرى تخص فن الأسلوب، واتساق الكلم بعضه مع بعض حيث تحدث بلاغة في الوصل بالصيغة الفنية، وذلك كقوله تعالى: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (216)».

ان المقطع «صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ» قام بمفرده بوصل عبارات الآية بعضها ببعض، وتناسقت بالسياق، فالجبال التي نحسبها جامدة غير متحركة، هي تمر مر السحاب، وهذا يشهد بقدرة الخالق في صنعه، وابداعه في هذا الصنع، فناسب السياق لفظة تشهد على المقدرة الفائقة، والمعجزة لبشره، وكانت هذه اللفظة «صنع» في قوله تعالى: «صنع الله الذي أتقن كل شيء».

كذلك نلاحظ التعبير «وما يدريك» في قوله تعالى: «اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ

209) البينة 98 : 7
210) المجادلة 58 : 20
211) آل عمران 3 : 116
212) المجادلة 58 : 19
213) المجادلة 58 : 22
214) الرعد 13 : 35
215) الجاثية 45 : 6
216) النمل 27 : 88

الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب (217) ، مثيرة للنفس ، إذ أحسنت الربط بالسياق ، وأتقنت الوحدة العضوية بين أجزائه . وإن « ما يدريك » تحصر الذهن لإدراك محتوى الحق والميزان الذي أنزل الله به الكتاب ، والذي يضم حقيقة ثابتة وهي قرب الساعة ، وفي الإدراك يتروى الذهن ، وإذا بالآية تتناسق وتتلاحم .

ان الوحدة العضوية في الصيغة التعبيرية للقرآن تنبع من وحدة التناسق والإنسجام في المفردات والفكرة والصور ، وهي تحتاج إلى رؤية وتبصر لإدراك سلاسة نظم آي القرآن ، بأسلوبه الأخاذ ، وتسلسل معانيه . ان قوة السبك بين أجزاء الآية الواحدة ، والآيات المتعددة ، والسورة كلها ، تمثل بصورة عامة ما أعنيه بالوحدة العضوية في التعبير القرآني .

يقول تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم . اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ... الآية (218) » .

هذه آيتان ، نلاحظ في الأولى تقابلا بين الذين آمنوا والذين كفروا ، ومصير كل جماعة منهم ، والصفات التي يضفيها القرآن على كل من المجموعتين ، فقد وصف المؤمنين بالصديقين في قوله : « أولئك هم الصديقون » وتم الربط بالمقطع الأول « بأولئك » ووصف المجموعة الثانية بأصحاب الجحيم في قوله تعالى : « أولئك أصحاب الجحيم » . وتم الربط « بأولئك » أيضاً . إن في تكرار « أولئك » ثانية تأكيد واهتمام بالأمر المعني . إن وحدة التناسق في هذه الآية توفرت بحسن الربط ، ووحدة الإيقاع التي تجسمت في المجموعة الأولى والثانية .

ويبدو التناسق أوضح في الآية التي تليها والتي صدرت بقوله تعالى : « واعلموا ... » لقد توفر في الآية الأولى أسلوب يناسب المحتوى ، وهو عرض واقعي لكل من المؤمنين والكافرين ، وفي الآية الثانية كان الأسلوب مغايرا إذ طبع بأسلوب الخطاب المباشر بقوله تعالى : « واعلموا إنما الحياة

217) الشورى 42 : 17

218) الحديد 57 : 19 ، 20

الدنيا ... الآية » ، وفي هذا الأسلوب تعقيب لمغزى ما تقدم : وتأكيد لما وصف القرآن به المؤمنين ، فالحياة الدنيا تافهة ، وهي بمثابة نبات رواه غيث مبشر ، فلما نما واستقام عوده أصابته عاهة ، فاستحال حطاماً . والمؤمن الحق هو الذي يعير الاهتمام الأكبر لطاعة الله ، في دنياه الفانية . لقد تم التناسق بالربط « باعلموا » ، وذلك للفت النظر ، وتحريك الذهن ، والأخبار بالعلم اليقين ، إذ يعوزهم ذلك ، ليكون الإدراك مصيباً لحقيقة الدنيا ، فواقع المؤمنين في أخراهم ، وهم في جنة يحبرون — وواقع الكفار ، وهم في جهنم يصطلون .

إن تسلسل المعاني في القرآن ، والوحدة التي تجمع بينها في صيغة التعبير ، تعني بما هو منطقي ومهم ، ليترتب عنه وحدة متناسقة في التسلسل ، وفيه تكمن سر الوحدة العضوية . يقول تعالى : « إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين ، وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله (219) » .

هذه مجموعة من الآيات تصل إلى السبع ، عرضت في الأولى حال الأبرار وهم في النعيم ، وتم تأكيد المعنى « بأن » الثقيلة ، ولام التوكيد . « إن الأبرار لفي نعيم » ، وفي الثانية عرضت حال الفجار وهم في الجحيم وتم تأكيد المعنى « بأن » الثقيلة ، ولام التوكيد ، وصيغة المبالغة في « فجار » فعال ، « وإن الفجار لفي جحيم » ، ثم يتسلسل المعنى بالاستمرار في تفصيل واقع الفجار يوم الدين ، بقوله تعالى :

« يصلونها يوم الدين ... » ويؤكد القرآن التصلية بالفعل « يصلونها » نفسه وبعبارة تضاعف التأكيد : « وما هم عنها بغائبين » . وما دام يوم الدين يكفرون به ، ويكذبون بوقوعه ، احتاج إلى تأكيد أقوى ، فتسلسل المعنى بتفصيل يوم الدين وهوله ، وتأكيده بتكرار : « وما أدراك ما يوم الدين » مرتين ، والتشديد على التكرار بصيغة التأكيد ، وهي « وما أدراك » التي تفيد شدة ذلك اليوم وعنفه وعظمة هوله ، ثم يضيف القرآن صفة ليوم الدين — وتعدد الوصف يفيد بدوره أيضاً — بقوله تعالى : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » ، يوم تستلم النفس لأعمالها ، وما كسبته الأيدي والألسن والقلوب ، وهو « يوم الدين » ، يوم العزيز القدير ، الذي يملك حكمه

219) الانفطار 82 : 13 — 19

وقضاءه: «والأمر يومئذ لله»، فهو «بيد الله، لا يملكه يومئذ غيره، ولا ينازعه أحد (120)».

إنه نظرا لاهتمام السورة، بيوم الدين، فقد كرر «يوم» أربع مرات، في الآيات السالفة الذكر، وهو تعزيز وتأكيد لهول يوم القيامة. وهكذا تلتحم الأجزاء بعضها ببعض، مراعية في ذلك الأهم في الموضوع.

إن حسن الربط، وتوفر الوحدة العضوية بين أجزاء العبارات القرآنية، وقيام الصيغة التعبيرية بتجسيم هذه الخصائص، تعطي التعبير قوته، والتناسق مظاهره، والمعاني درجة الأهمية فيها، يقول تعالى: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ، وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، فَفِرُّوا إِلَى اللهِ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ، كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ، فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (121)».

ان بدء الآية بالسماء، فالأرض، فكل شيء، يلفت نظر القارىء إلى التسلسل المنطقي، فالسماء التي تظلنا، والأرض التي نفترشها، جمعتا كل الكائنات بينها، فكان كل شيء من زوجين، ومن ذلك الكل بنو آدم. وكل هذا نلمسه في حياتنا.

وهدف القرآن من ذلك التذكر والتدبر: «لعلكم تذكرون»؛ والآيات التي احتوت هذه المعاني، تجسم فيها الإنسجام والإتساق، وتم فيها تلاحم الأجزاء، وبرز فيها حسن التعقيب المثير في قوله تعالى: «وأنا لموسعون»، «فنعم الماهدون»، ثم يتم التناسق بينها وبين الآية التي تليها؛ وهي مصدرة بقوله تعالى: «ففروا...» بالخطاب المباشر، وما تحمله من جرس وايقاع الفر.. ولمن؟ للواحد القهّار.

ان «ففروا» تضفي على النفس حالا خاصة، لأنها عبارة عن ترجمة صادقة في ارتباط ابن آدم بخالقه، فقد خلق له السماء والأرض وكل

220) تفسير ابن عباس ص: 504
221) الذاريات 51: 47 — 58

شيء فيهما، ومن طبيعة المنطق ان ترجع كلها إلى خالقها. وهنا تتمثل أهمية: «ففروا» من حيث التناسق التام بالسياق: معنى ومغزى، واتصالا واتساقا بالصيغة التعبيرية. ويزداد التأكيد لهذا المعنى بقوله تعالى: «اني لكم منه نذير مبين»، بتقديم «لكم منه» على خبر ان وهو «نذير»، ووصف الأخير «بمبين». ويتم التناسق، وإحكام الربط بما سبق ذكره «بكذلك» التي تلي الآيات السالفة في قوله تعالى: «كذلك ما أتى الذين من قبلهم». هذا الانتقال يحدث نسقا فنيا، به سلاسة وتجاوب نفسي في أداء المعنى، وتنبيه الرسول بأن ما يقاسيه، سبق أن قاساه الرسل من قبله، ثم يوجه الخطاب إلى هؤلاء القساة، بتفظيع أعمالهم، وأنهم طغاة جبابرة بقوله تعالى: «أَتَوَاصَوْا بِهِ بل هم قوم طاغون». وهنا تحتاج نفسية الرسول إلى الاطمئنان، ويوصي بالإعراض وأنه غير ملوم في ذلك: «فتول عنهم فما أنت بملوم». والتذكير من جانب الرسول هو الغذاء الروحي لمعنويات المؤمن: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ». كل هذا يتم في وحدة من التناسق، وفي تسلسل منطقي في المعنى.

هذا السياق الذي يعبر عن محتواه كل الآيات السالفة يرتبط بقوله تعالى: «وما خلقت الإنس والجن الا ليعبدون». وكأن هذا المقطع لا يرتبط بما قبله، إلا أن شيئا من الإمعان يدرك الدارس به وحدة الإرتباط، ذلك أن الجن والإنس خلقوا في هذه الحياة، ووفرت لهم كل الأمور، وأهمها العقل — الطاقة الكبرى لتدبير شؤون الحياة — لكي يعبدوا الله، بأن يؤدوا كل واجباتهم ومسؤولياتهم نحو خالقهم ونفوسهم وعائلاتهم ومجتمعهم، وأفراد المجتمع الإنساني كله. وهذا هو محتوى قوله تعالى: «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون». وهو تعقيب تجسم فيه محتوى السياق.

ان القرآن — وهو يعمد دوما إلى الإثارة والتأثير، وتحريك منبهات النفس — اهتم بكل مظاهر التناسق، وبأسلوب العرض، ليبرز في جماله الفني الرائع، وليأخذ طريقه إلى النفس، بطواعية النفس وانفتاحها. وأسلوب العرض في القرآن يأخذ أشكالا متعددة، لاحبا في التعدد بل تبعا للموضوع، وعلى حسب متطلبات المغزى والهدف. فأسلوب الحوار والمجادلة والإستنطاق ولفت النظر، والتساؤل، والتنبيه والتدبر والتبصر، والتأكيد والوصف، والعرض العابر، والإيحاء، والتشنيع، والتهويل والتحدي، والعنف، والهدوء، والتبشير، والتقابل وغيرها من الأساليب، تبدو واضحة في آي القرآن، وكلها مسخرة للغرض الذي يهدف إليه

القرآن من خلال الآية وموضوعها .

ومن خلال الآيات التي استشهدت بها في هذه الرسالة تعكس حقيقة أسلوب القرآن ، واذكر بعضا آخر ، لأجسم فيها حقيقة التناسق في الصيغة التعبيرية للأسلوب . يقول تعالى : « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (222) » .

تعرض الآية قوم عاد واستكبارهم في الأرض بأسلوب الحوار غير المباشر ، والرد عليهم بما يدعونه نفسه ، فهم يرون أنهم أشد قوة ، ويكون الرد تعرية لحقيقتهم ، وهو مقترن بأسلوب التدبر والتبصر كما في قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » . فيعقب الرد التنصيص على سبب عتوهم واستكبارهم بقوله تعالى : « وكانوا بآياتنا يجحدون » .

ونلاحظ في هذا الأسلوب — أسلوب العرض العابر — وخزات نفسية ، تتخلله للإثارة والتدبر والتأثير . إن هذا الأسلوب أضفى على الصيغة التعبيرية وحدة من التناسق ازدادت به جمالا وروعة .

إن أسلوب اثارة النفس يأخذ شكله الملائم على حسب مقتضيات الآية . يقول تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (223) » .

ان المقطع الأول من الآية الأولى ورد مفردا : « من جاء . . . فله » ، وفي المقطع الثاني ورد جمعا ، وهو عائد على الأول : « وهم . . . آمنون » ، وفي الآية الثانية أفرادا وجمعا : « من جاء . . . فكبت وجوههم » ، وكذلك نلاحظ في المقطع الأخير من الآية الثانية أسلوب الخطاب المباشر ، وكأن الذين كبوا على وجوههم حاضرون أمامه : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » بدل أن يقال — تمشيا مع صيغة الماضي — : « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » . . . وذلك لإثارة النفس ، وتنبيه الذهن وبعث الحركة والحياة في عبارة القرآن .

222) فصلت 41 : 15

223) النمل 27 : 89 ، 90

من جمال أسلوب القرآن الذي يبعث القوة ، هو عرض الحقيقة بهدوء ، ولكنه هدوء قوي في معناه ، تتخلله المباغتة ، وذلك في أمثال الآيات التي تحمل حقيقة ربانية ، كوعد من الله ، ويكون ردا على تخرص المتخرصين ، كقوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (224) » . انهم أقسموا أن الله لا يبعث من يموت ، وقد نفى القرآن معتقدهم هذا ، وقامت « بلى » بنفي ذلك ، بحكم وظيفتها الفنية وهي : المباغتة النفسية. إن « بلى » تفيد الإثبات عند النحاة ، لأن نفي النفي اثبات . يقول الزركشي انها : « تكون ردا لنفي يقع قبلها ، أو أن تقع جوابا لاستفهام (225) » . وتعزز هذه المباغتة بالتنصيص على أن بعث الحياة في الأموات يوم القيامة كان « وعدا عليه حقا » ، وهذا التعبير يؤكد مهمة « بلى » في الآية ، وأن البعث حقيقة ، لا جدال فيه . ثم يأتي التعقيب في قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ليدع النفس حائرة ، وفي تناقض نفسي ، وذلك لتدرك في خضم حيرتها علمها القاصر أمام علم الله .

ولذلك يمكن أن نقول أن بالمقطع الأول من الآية جدلا نفسيا صامتا ، نستوحيه من قوله تعالى : « وأقسموا جهد أيمانهم » ، فالقسم الذي يصحبه جهد ، واستجماع القوى النفسية — يشير إلى نفس حائرة ، بداخلها صراع وجدل . ثم يعقبه رد هادئ ولكنه عنيف : « بلى ، وعدا عليه حقا » ، وتنتهي الآية بوضع النفس أمام حقيقتها : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

224) النحل 16 : 38

225) البرهان في علوم القرآن 4 : 261

الفصل الخامس

الإيقــــاع الموسيقــي في القـــرآن

الإيقـاع لغـة:

جـاء في لسان العرب(1) ما يأتي :

وَقَعتْ الدواب ووقَّعت: ربضت . ووَقَعت الإبل ووقَّعت (مشددة): اطمأنت بالأرض بعد الري . يبدو أن هذا هو المدلول الحسي الذي اشتقت منه لفظة الإيقاع ، ثم أصبحت تستعمل للحرب والمطر كما جاء في لسان العرب (1) . والوقعة والوقيعة : الحرب والقتال . وقيل المعركة . والجمع الوقائع . وقد وقع بهم وأوقع بهم في الحرب ، والمعنى واحد . وإذا وقع قوم بقوم قيل : واقعوهم وأوقعوا بهم إيقاعا .

ويقال سمعت وقع المطر وهو شدة ضربه الأرض إذا وبل . أو يقال سمعت الدواب وقعا ووقوعا .

ومن كل هذا يمكن القول : أن الإيقاع هو احداث صوت أو جرس خافت أو رفيع ، فالدواب ومنها الإبل عندما تربض تحدث صوتا ، والحركة التي تحدثها المعارك والأمطار تتسم بعلو الصوت ذي الإيقاع القوي الرفيع . ثم أخذ الإيقاع مفهوم الجرس الذي يحدثه اللحن . ولذلك جاء في لسان العرب (1) ما يأتي : والإيقاع : من إيقاع اللحن والغناء ، وهو أن يوقع الألحان ويبينها .

ومادام الإيقاع يحمل في جوهره صوتا هو الجرس والنغم ، وقد ورد كل منهما كثيرا في الفصل ، فمن المستحسن تعريف كل منهما على حسب ما جاء في لسان العرب .

أ ـ الجرس لغـــة :

جاء في لسان العرب (2) ما يأتي :

جرست الماشية الشجر والعشب ، تجرمه وتجرُسُه جرسا : لحسته.

---

1) لسان العـــرب مادة «وقع»
2) لسان العرب مادة «جرس»

وجرست البقرة ولدها جرسا : لحسته . وكذلك النحل : إذا أكلت الشجر للعسل .

وقيل : جرس الطائر وأجرس : صَوّتَ . ويقال سمعت جرس الطير إذا سمعت مناقيرها على شيء تأكلـه .

يبدو أن المفهوم الحسي آت من الدلالات السالفة الذكر ، والتي مفادها الصوت الخفيف والقوي . ومن هذا المفهوم اشتقت الدلالات الآتيـة :

أجرس الحادي إذا حدا للإبـل .

أجرس الحلي : سمع له صوت مثل صوت الجرس . وهو صوت جرسه .

جرست وتجرست : أي تكلمت بشيء وتنغمت به .

أما مصدر جرس فهو الجرس . وهو الصوت المجروس وقيل الصوت الخفي . وعن ابن سيده : الجرْس والجِرْس والجرَس : الأخيرة عن كراع : الحركة والصوت من كل ذي صوت . ومن هنا جاء قول العرب : جرْس الحرف : نغمته . . . .

ويبدو أن الجرس يأخذ معنى النغم أيضا .

ومن كل هذا يمكن أن نقول أن الجرس ليس هو مطلق الصوت : فللصوت جرس وهو صداه ، ونغمة : وهو الجرس في حدود الشيء المجروس

ب : النغـم لغة :

جاء في لسان العرب (3) ما يأتي :

نغم (فـلان) في الشراب : شرب منه قليلا كنغب .

من هذا المدلول الحسي قيل : سكت فلان فما نغم بحرف وما تنغم مثله ، وما نغم بكلمة .

النغـم : الكلام الخفي . والنغمة : الكلام الحسن وقيل هو الكلام الخفي : نغم ينغِمُ وينغَم .

النغمة : جرس للكلمة وحسن الصوت في القراءة وغيرها .

ويمكن أن نقول بعد كل هذا ان النغمة هي الجرس الذي يتنغم به ، أي : « الصوت المترنم به (4) » ، بحيث نتبع التسلسل الآتي : صوت ، فجرس ، فنغم ، ومن كل هذه العناصر يحصل الإيقاع .

* * *

3) لسان العرب ، مادة ، «نغم»

4) البناء الفني للقصيدة العربية ص : 22

ان الحديث عن الإيقاع الموسيقي يستوجب إلقاء هذا السؤال : هل اللغة العربية موسيقية ؟ وإذا كانت كذلك فما مقومات هذه الموسيقى ؟

الحقيقة أن أية لغة في العالم تحتوي على موسيقية خاصة بها ، تختلف بها عن غيرها ، وتنبع من طبيعة البيئة والإنسان المتكلم بها . وما دامت اللغة هي وليدة حاجة الإنسان ، وما دام الإنسان كائنا منتظما في جميع أجهزة كيانه ، فإن اللغة تنطبع بهذا الإنتظام الذي يصحبه ايقاع معين : « ان الإيقاع على فترات متساوية ظاهرة مألوفة في طبيعة الإنسان نفسه ، فبين ضربات القلب انتظام ، وبين وحدات التنفس انتظام وبين النوم واليقظة انتظام وهكذا (5) » . . . فمبدأ الإنتظام يحصل من حسن التوزيع ووحدة التناسق والإنسجام . ولزيادة التوضيح اذكر ما جاء في كتاب التعبير الموسيقي على لسان مؤلفه : « ولقد أدرك الباحثون وثوق الصلة بين الإيقاع الموسيقي وبين النظام الذي تسير عليه حركة الجسم والطبيعة فللجسم حركات ايقاعية سريعة كالتنفس ، بما فيه من شهيق وزفير أو حركات بطيئة نسبيا كتعاقب الجوع والشبع والنوم واليقظة ، وفي الطبيعة ايقاع ثنائي يتعاقب فيه الليل والنهار ، وايقاع رباعي تتعاقب فيه فصول السنة . ومن هنا قال كثير من الباحثين بأن للموسيقى اصلا عضويا أو طبيعيا ، ما دامت الحركة الإيقاعية فيها ترديدا لحركات مناظرة لها داخل الجسم الإنساني أو في الطبيعة الخارجية مما يؤدي إلى تكوين ما يمكن أن يسمى بالحاسة الإيقاعية لدى الإنسان . وليس ادل على ذلك من أن أول استجابة للطفل أو للبدائي بإزاء الموسيقى ، تكون استجابة إيقاعية ، تتمثل في نوع من التمايل أو الرقص البسيط من ايقـاع الأنغام (6) . . . » .

إن العربي بفطرته ميال إلى الإيقاع ، فصحراؤه واسعة ، مترامية الأطراف تبدو الطبيعة فيها جميلة الصورة ، أخاذة بمنظرها العجيب . وفي ظلال هذه الحياة للإنسان العربي ، تأخذ النفس العربية طابع الطرب : « فالنفس البدوية طروب في جوهرها . وجميع مطامحها وانفعالاتها واندفاعاتها انما تتجلى في تعبير موسيقى موزون ، هو بيت الشعر الذي سيكون مقياسه خطوة الجمل السريعة أو الطويلة ، وعلم العروض نفسه في جوهره بدوي ، إذ أن صورة العبقرية الأدبية قد انطبعت في الشعر (7) » .

5) فلسفة وفن ص : 210

6) التعبير الموسيقي ص : 20 ، 21

7) الظاهرة القرآنية ص : 176

ولصفة الطرب مغزاها في نص الأستاذ مالك بن عبد النبي ، إذ أنها تعكس صدى النفس الموسيقية ، وأصالة تموجات الطرب التي تستجيب لهـذه النفس. ويؤكد الدكتور زكي نجيب محمود هذه الظـاهرة ، ظاهرة الإيقاع الموسيقي بقوله : «واحسب أن هذا الإيقاع الفطري فينا هو ما يجعلنا نتوقعه في مدركاتها ، ونستريح إذا وجدناه ، ويصيبنا القلق إذا فقدناه ، من هنا كان الوزن في الشعر ، وكانت السيمتريه في العمارة وفي التصوير (8) » . ويوضح مبدأ السيمتريه الذي هو مبدأ الإيقاع بأنه : «يمكن اعتباره فرعا من مبدإ اشمل في فطرة الإنسان وطريقة تكوينه ، وذلك هو ميل الإنسان أن يرى وحدة في الشيء المدرك (9) » فالطبيعة اذن في عمق وسطحية معالمها ، والإنسان في عمق بداوته وأوج تحضره ، والمرحلة المتطورة التي يمر بها الكائن الحي ، وهو يصبو إلى تطلعات عقله البشرى، تطبع بوحدة تضم عناصر متلاحمة على غاية من الإنتظام والإتساق. والإنسان العربي يمثل هذا المبدأ لانفراد لغته العربية عن بقيـة اللغات السامية القديمة بالحياة وقابلية النمو والتطور ، ولم تتبدل من يوم انحدارها على لسان الجاهليين إلى يومنا هذا .

هذه اللغة التي وضع فيها الخليل بن احمد كتبا في النقط والشكل والنغم والعروض والشواهد والإيقاع (10) . وزخرت المصادر القديمة بالحديث عن مميزاتها في حروفها وأبنيتها وأوزانهـا وايحاء مفرداتها ودلالاتهـا وخصائصها ، كخصائص ابن جني الذي يعد أوفى مصدر لسمات اللغة العربيـة وخصائصها ، اضافة إلى كتب اللغة والمعاجم والموسوعات العلميـة والتاريخيـة والأدبيـة والشعرية — هذه اللغة التي تعبر عن فطرتها وفطرة الإنسان العربي ، قدم فيها اللغويون قديما وحديثا نماذج لموسيقيتهـا . يقول فيها الأستاذ مبارك : «ونرى أن ثمة أمثلة كثيرة في العربية تدل على التناسب الصوتي والتقابل الموسيقي في تركيب الكلمات وحروفها (11) » .

ثم يعلق على هذه الظاهرة بقوله : «ولكن هذه الملاحظات والأمثلة التي أوردها بعض اللغويين قديما وحديثا لا تكفي لإقامة نظرة عامة ، واستنباط قانون عام قبل توسيع أفق الملاحظة والإستقراء ، وهي على كل

8) فلسفة وفن ، ص : 210
9) فلسفة وفن ص : 211
10) كتاب العين : مقدمة المحقق : ص : 6
11) خصائص العربية للأستاذ مبارك ص : 24

حال تدل على ما في اللغة العربية من الخصائص الموسيقية في تركيب كلماتها وعلى ما بينها وبين الطبيعة من تقابل صوتي وتوافق في الجرس، وذلك أول دليل تقدمه لنا العربية على خاصتها الطبيعية وعلى أنها بنت الفطرة والطبيعة . . ونستطيع أن نقول في غير تردد أن للحرف في اللغة العربية ايحاء خاصا ، فهو ان لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وايحاء ، ويثير في النفس جوا يهيىء لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي به . (12) » .

وهذه الخصائص حددت موسيقية العربية : «ولهذا كان المجال في العربية واسعا لاستثمار الأدباء لهذه الخاصة الموسيقية في أدبهم من أي لغة أخرى . ويتفق فيهـا للفنان ما لا يتفق في لغة غيرها من الموازنة بين جرس الكلمات ونغمة المفردات من جهة ، والأحداث المصورة أو الأفكار المعبر عنهـا (13) » .

هذا الكلام يضعنا أمام حقيقة ، هي أن العربية تتميز عن غيرها من اللغات بزخامة موسيقيتها ، وخصوبة فطرة هذه الموسيقى النابعة من فطرة الحياة ، وفطرة الإنسان العربي الجاهلي . فحروفها وأصواتها : «واسعة الأفق ، كاملة في مدرجها الصوتي ، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج ، متميزة المخارج والصفات ، ثابتة الأصوات عبر القرون ، يتوارثها جيل بعد جيل ، متنوعة الوظائف . في بنية الكلمة ، لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى ، وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه ، مع تناسق بين أصوات اللغة ، وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة (14) » .

ان العربية لم تكتسب هذه الخصائص إلا لكون جميع ألفاظها : «ترجع إلى نماذج من الأوزان الموسيقيـة (15) » في وحدتها الحرفية والتركيبية ووحدة الانسجام والتوفيق في الجرس والنغمة والإيقاع ، وما يلائمها من تأليف في وحدة فنية ونفسية . وكما يقول الأستاذ مبارك : «ولو أنك حاولت نقل أي كلام عربي أو صفحة من كتاب الى رموز موسيقية وأوزان لوجدته يتركب من وحدات تتشابه وتختلف ، وتتكرر وتتناظر ، وتتألف من مجموعها قطعة موسيقيـة (15) » . يقول المستشرق وليم مارسي: «التركيب

12) خصائص العربية . ص : 24
13) المصـدر نفسه . ص : 24 ، 25
14) خصائص العربية ص : 25
15) المصـدر نفسه ص : 38

العربي غني بالوقع الموسيقي (16) ». وهذا يرجع إلى خصائص هذه اللغة في حروفها وألفاظها وعباراتها، وما تحمله من جرس وايقاع موسيقي، لأنها: «موزونة، يعتمد اللفظ الواحد من ألفاظها على بنية موسيقية سليمة، قل أن تناظرها فيها ألفاظ لغة أخرى، ثم ان حركة اللغة الذاتية المتمثلة في طواعية مفرداتها طواعية تندرج بها تحت قوانين صوتية مطردة، وتنطوي بها تحت قياسات منتظمة تتمشى مع مقاصد التعبير وتجاوب اتجاهات المعنى، دالة كلها على تقدم التكوين (17) ».

ان هذه الموسيقى في العربية ترجع كما ذكرنا إلى طبيعة الإنسان في تكوينه، والكون في انتظامه، وإلى فطرة البيئة العربية، وبساطة الإنسان العربي البعيدة عن التكلف وتعقدات الحياة التي: «لا تعبر عن أية حيرة روحية أو ميتافزيقية، وهي تجهل دقائق المنطق، وتجريد الفكر الفلسفي أو العلمي أو الديني (18) ».، وأن: «ثروتها اللفظية هي تلك التي تحقق حاجات الحياة البسيطة الخارجية أو الداخلية لبدوي لا لحضري (19) ».

وهنا يجدر أن نذكر رأيا وجيها للأستاذ مبارك في تعليله لموسيقية اللغة العربية، التي يرجعها إلى أمية العرب. يقول الأستاذ: «وفي رأيي أن ظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تعزى في أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين [illegible] الأدب أدب الأذن لا أدب العين، وحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، وأصبحت مرهفة، تستريح إلى كلام لحسن وقعه أو ايقاعه، وتأبى آخر لنبوه، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نشاز. وكما تمرن الآذان في بيئة الأمية، تمرن الألسنة أيضا، فتنطلق من عقالها، وقد اكتسبت صفة الذلاقة، فلا تعثر أو تزل أثناء النطق، وتتعاون الاذن مع اللسان في مثل تلك البيئة على إيثار العناصر الموسيقية من اللغة ونفي العناصر النابية والتخلص منها، ويؤدي هذا على مرور الأيام — وبشرط أن تظل الأمة في نهضتها الاجتماعية والحضارية — إلى انسجام في أصوات الكلام وحركاته

16) آراء في العربية ص: 37

17) مجلة كلية الآداب. جامعة فؤاد الأول. المجلد الرابع عشر. الجزء الأول. مايو سنة 1952. ص: 90. عنوان المقال «البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وتياراته الكبرى» بقلم الدكتور نجيب محمد البهبيتي.

18) الظاهرة القرآنية ص: 176

19) الظاهرة القرآنية ص: 176

ومقاطعه، ويقترب بذلك إلى نوع من الموسيقى أو الغناء (20) ».

هذا رأي وجيه اعتمده في تعليل موسيقى العربية التي ترجع في جوهرها إلى تحليل نفسي لصلة العرب ببيئتهم، وإلى طبيعة البيئة العربية، والإنسان العربي في صحرائه، وفطرة اللغة العربية الموزونة التي نوه الجاحظ بها في بعض مظاهرها عند تعليله لصعوبة ترجمة حكمة العرب في قوله: «ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن (21) ».

هذا التعليل الوجيه للأستاذ مبارك، الذي يؤكد فيه دور السماع العربي لتلقي صوت الطبيعة في وحدة من التركيب، لتعكس بوضوح الصلة المتينة بين السماع العربي والموسيقى، حيث أن الموسيقى: «تنقل بالأذن، وهي حاسة تعتمد على التعاقب الزمني (22) ». وعلى الرغم من أن الموسيقى ليست تقليدا لصوت الطبيعة، لعدم انتظام ذبذبتها، وانها ايحاء بعناصر الطبيعة، وليس تقليدا، فهي تهذبها وتصقلها ثم توحي بها من بعيد، ولا يتيسر لها أن تقلد إلا أصواتا طبيعية بسيطة في أحوال نادرة (23). — على الرغم من ذلك فإن هذا التهذيب والصقل تقوم به عملية التعبير للغة العربية في الإنسان العربي الجاهلي، فتصوغ نماذج موسيقية في قوالب من التركيب، تعبر عن محتوى النفس، لأن الموسيقى «تصور دائما انفعالات وأحاسيس عامـــة (24) ».

هذه الخصائص تمدنا بطبيعة وعقلية موسيقية، نهتز من أقل حركة أو إيقاع، وتعمل فينا الكلمات والمشاهد وحتى الإشارات ايما عمل. فهذه الحساسية الموسيقية النابعة من طبع موسيقي، ذي إيقاع متموج، تنقلنا إلى موسيقى القرآن التي ذهب فيها الأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي إلى انها تمثل اعجازه (25)، وذلك بحكم أن القرآن معجم تركيبي قبل أن يكون معجما لمفردات ذات دلالات مستقلة. والحديث عن موسيقى القرآن أكثر عمقا ووضوحا منه عن الكلام العربي عامة، باستثناء الشعر الذي يتميز بموسيقى الوزن والقافية.

20) دلالة الألفاظ ص: 195، 196

21) الحيوان: 75/1

22) التعبير الموسيقي ص: 13

23) التعبير الموسيقي ص: 10

24) المصدر نفسه ص: 12

25) اعجاز القرآن للرافعي. ص: 244 — تاريخ آداب العرب 255/2

لقد جمع القرآن بين موسيقى الشعر ، حيث نغمة الوزن والإهتزاز النفسي ، وموسيقى النثر ، حيث الإيقاع العميق الذي يحدثه دقة التوزيع وحسنه بين الحروف ذاتها والكلمة والعبارة والآية والسورة ، وموسيقى الحس ، حيث مشاركة الحواس لاهتزازات النفس ، وقوة ارهافها لتموجات الموسيقى أيا كان مصدرها ، وموسيقى الروح ، حيث النشوة الهادئة النابعة من مجموع أنواع الموسيقى التي سبق ذكرها . فالقرآن اكتمال لنماذج موسيقية حية في تراكيب خالدة للغة العرب . وما كان شغف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بموسيقى القرآن إلا تعبيرا عن حسه المرهف ، ودقة عمقه الفكري لموسيقاه ، وما يتحلى به سماعه من ادراك مرهف لموسيقى اللغة العربية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية هو تعبير صادق عن أن القرآن يمثل وحدة موسيقية لا تخضع لوزن الشعر ، بل لوزن الوجدان والنفس ، ذي الإنسجام الإيقاعي : يقول الأستاذ الرافعي : « فإنه انما يسمع ضربا خالصا من الموسيقى اللغوية في انسجامه واطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعا ، ونبرة نبرة ، كأنها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة (26) » .

والعرب عرفت الموسيقى في شعرها ، وفي جملها الموجزة القصيرة التي تنتهي بالسجعة ، فتحدث ايقاعا ، وعندما نزل القرآن ، اندهشت نفوسهم ، وبهتت عقولهم ، وذهب بعضهم إلى عده شعرا ، وبعضهم إلى عده سحرا ، حتى أن مسيلمة في محاكاته للقرآن كان يتكلف التعبير أيما تكلف ، ويصب اهتمامه على موسيقى العبارة ، وهو بذلك ينطق عن واقع الصدمة النفسية التي أثارتها موسيقى القرآن ، يقول في ذلك الأستاذ الرافعي : « فلما قرىء عليهم القرآن ، رأوا حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، ألحانا لغوية رائعة ، كأنما لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وانه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين في عجزهم ، حتى أن من عارضه كمسيلمة جنح في خرافاته إلى حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية انما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ؛ وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع (27) » .

---

26) تاريخ آداب العرب 222/2

27) اعجاز القرآن للرافعي ص: 243 — تاريخ آداب العرب. 224/2 ، 225

ومن مظاهر الإعجاز الموسيقي في القرآن عند الأستاذ الرافعي التجويد والترتيل الإيقاعي الذي قلما يتوفر في مطلق كلام العرب (28) . وهذه ظاهرة صحيحة إذا راعينا إحكام القراءة وطرق الأداء ، لكنها مجحفة إذا نظرنا إلى مطلق موسيقى ، دون مراعاة قيود معينة . وقد وردت أحاديث كثيرة تؤكد حسن الترتيل ، كما ورد في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا (29) » . جاء في فضائل القرآن : « حدثنا مسلم بن ابراهيم ، حدثنا جرير بن حازم الأزدي ، حدثنا قتادة قال : سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: « كان يمد مدا (30) » وحروف المد التي هي الألف والواو والياء الساكنة يسميها القراء المد الطبيعي الذي لا يتحقق حرف المد بدونه (31) . فالرسول كان يمد في تلاوته ، كما أنه كان يرجع في ذلك على حسب الحديث الوارد : حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة ، حدثنا أبو إياس قال : « سمعت عبد الله بن مغفل قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته أو جمله يسير به ، وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة لينة وهو يرجع (32) » . والترجيع هو الترديد في الصوت (32) . وحسن الصوت في تلاوة القرآن وردت فيه أحاديث كثيرة (33) تؤكده وتحث عليه ، شريطة أن يكون باعثه التدبر والخشوع والتفهم . ولقد : « كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين والحاق النون ، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك كما قال سيبويه : انهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا . وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع (34) » . وأغلب فواصل القرآن تنتهي بالنون أو الميم : « وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها (35) » ، وكذلك المد فهو الطبيعي في قرار الصوت (35) . أما بقية الحروف الأخرى التي تنتهي بها فواصل الآيات القرآنية فهي « متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه

---

28) نفس المصدرين السابقين

29) سورة المزمل 73 : 4

30) فضائل القرآن . ص 87

31) فضائل القرآن على هامش ص : 87.

32) فضائل القرآن ص : 88

33) المصدر نفسه ص : 64 — 71

34) الاتقان في علوم القرآن 105/2

35) تاريخ آداب العرب 227/2

وأليق بموضعه (36) ». انها تخضع كذلك لجو الآية ونوع العبارة ، والهدف النفسي للآية ، ليكون الوقع أشد وأبلـــغ .

ويجسم الأستاذ الرافعي التجويد* والترتيل الموسيقي في القرآن ، في انها حصلت نتيجة : «لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والتدقيق والتفشي والتكرير وغير ذلك . . (37) ».

إن مما يضفي على القرآن الطابع الموسيقي ، هو الاستهواء الصوتي في لغته ، الذي تخضع له النفوس اقرارا أو استجابة (38) . وان خصائصه الموسيقية ، وتساوق حروفه على أصول طبيعية مضبوطة من بلاغة النغم ، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وايجازا وابتداء وردا وإفرادا وتحريرا (39) . واستيعاب القرآن لتركيب النسق البليغ من حيث توفر الأصوات الثلاثة الضرورية لذلك : وهي صوت النفس وصوت العقل ، وصوت الحس ، والصوت الأخير أبلغهن شأنا (40) . وذلك لأنه يمثل الكمال اللغوي في تركيبه وفنه ونسقه ، وقد تمثل في القرآن ، اما الصوتان الآخران فقد لمسهما العرب في كلامهم وكلام بلغائهم (41) . وقد لخص الأستاذ الرافعي هذه النقطة بقوله : «ولو ذهبنا نبحث في أصول البلاغة والأساليب عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغات جميعا ، وهي في كل لغة تعد أصلا في بلاغتها لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي لا تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي : «الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي (42) ».

وعندما نضيف إلى هذه الخصائص الموسيقية الأصول الفنية في التعبير القرآني المتسم بدقة وضع كلماته وجمله ، والدقة في اختيارها وأدائها ، والإحكام في سبكها ونسقها ، ومتانة اتساق أجزائها ، مع ما لحروف الكلمة من توزيع حسن ، وترتيب دقيق ، واخراج سليم عند النطق ، وكأنها بمجموعها قد صيغت في : «جملة واحدة ، في نفس واحد ، وقد

37) المصدر نفسه 225/2 — اعجاز القرآن للرافعي ص : 244
38) المصدر نفسه 228/2
39) تاريخ آداب العرب 229/2
40) المصدر نفسه 230/2 ، 231 — اعجاز القرآن ص : 249 ، 250
41) المصدر نفسه 232/2
42) المصدر نفسه 235/2

أديرت معانيها على ألفاظها في لغات العرب المختلفة ، فلبستها مرة واحدة (43)» — عندما نضيف كل هذا إلى تلك الخصائص السالفة تتم في القرآن الصورة الكاملة لموسيقاه . وهذا يعني أن القرآن وحدة تركيبية متراصة متلاحمة ، في وحدة فنية رائعة ، أعطت صوت النفس والعقل والحس عصبها النفسي ، فاجتمعت في القرآن موسيقى الطبيعة مع موسيقى النفس في موسيقى الحرف والكلمة والجملة . يقول الأستاذ مبارك : « . . . وقد بلغت هذه الخاصة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع حيث تتناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق (44) ».

ان الموسيقى في ميدان النغم ، تميل إليها النفس ، وان لم تكن بلغة تفهمها ، لأنها تحمل في جوهرها عناصر دقيقة رقيقة ، يعسر على الموسيقار نفسه تحليل أجزائها ، وان لم يكن عسيرا عليه تبيان دقة التوزيع ، وأثر الموسيقى في النفس . ان موسيقى القرآن ، وان تجسمت من خلال ما ذكرناه ، إلا أن ماهية الإيقاع الموسيقي ، ودقائق تموجاته ، يترك للنفس ومدى إدراكها لخفاياه ، ويترك أيضا للحس النفسي للموسيقى . وهذا لا يمنع من عرض مظاهر الإيقاع الموسيقي في القرآن ، ومدى أثره في النفس . ونظرا للدقة التي تحتل ذبذبة الموسيقى وخفاياها ، قال الفلاسفة : «الموسيقى حكمة ، عجزت النفوس عن اظهارها في الألفاظ ، فأظهرتها الأصوات البسيطة ، فلما أدركتها عشقتها ، فاسمعوا من النفس حديثها (45) ».

وهذا المقطع الأخير : «فاسمعوا من النفس حديثها» يؤكد ما ذهبنا إليه سلفا . ولعل السلم الموسيقي الذي يتكون من مجموعة من الذبذبات ، منتظمة وثابتة ، تعطي الصوت الموسيقي رنته ونغمته . يقول الدكتور فؤاد زكريا : «والصوت الموسيقي عامة يتميز بانتظام ذبذباته وثباتها ، ولكن بين الصوت الواحد والصوت الذي يليه ارتفاعاً وانخفاضاً عدد كبير من الذبذبات . ومعنى ذلك أن الأصوات الموسيقية تتوالى بحيث تقف الأذن في مراكز معينة بين عدد كبير من الذبذبات التي تتدرج ببطء لا تميزه الأذن من تلقاء ذاتها ، ومن مجموع هذه المراكز المعينة التي تقف عندها الأذن يتكون ما يسمى بالسلم الموسيقي (46) ».

43) المصدر نفسه 237/2
44) خصائص العربية ص : 39
45) الموسيقى والغناء عند العرب ص : 141
46) التعبير الموسيقي ص : 21 ، 22

والصوت الموسيقي في القرآن هو الصيغة السليمة لدقة التلاؤم في تأليف الحروف ، وحسن تلاؤمها لمخارج نطقها ، وقد قسم الرماني تأليف الحروف إلى ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا (47) . ويحتل القرآن الوجه الثالث . ويذكر الرماني أن الفائدة في التلاؤم هي : «حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة (48) » .

ولغنى القرآن بالموسيقى ، أتناول بالتحليل بعض آيات في سور معينة على حسب الخطة التي سأبينها بعد قليل .

ويجدر هنا أن نذكر للإيقاع تعريفا ، ونبين وظيفته ومهمته . لقد عرف بأنه «الترديد المتواصل لنظام معين (49) » ، وان وظيفته هي ما أفصح عنها المفكر سيد قطب : بأنها استنفاد للطاقة الشعورية ، وهو جزء من دلالة التعبير كالدلالة المعنوية اللغوية (50) . ومهمته أنه ينقلنا من حال اعتيادية إلى حال تموج بالحركة والنغم ، وتمدنا بطاقة نفسية نعيش بها لحظات ممتازة ، وتهدينا إلى المغـزى .

وما دام الإيقاع يسهم في إحداثه السجع والفاصلة ، فلا بأس أن نتحدث قليلا عن السجع ، وموقف العرب منه ، ونشير إلى نغمة الوزن الشعرية في بعض الآيات القرآنية التي يمكن أن نوجزها بأن الادعاء بأن بالقرآن بحورا شعرية ، والتي أوضحها السيوطي (51) في اتقانه ، وذكر من البحور الشعرية في القرآن أربعة عشر بحرا مع الاستشهاد بالآيات — كان ذلك نتيجة الانسجام ودقة التناسق الفني في القرآن ، كما ينبه السيوطي على ذلك ، ويضيف الجاحظ (52) رأيه ، في أن تلك البحور هي من باب الصدفة وعفوية النثر الفني الرفيع في القرآن ، ويستشهد على ذلك في «بيانه» بكلام العامة الذي يقع فيه صدفة وزن لبحر من البحور الشعرية ، ولم يكن في ذلك تقصـد .

أما السجع فقد عرفه العرب قبل نزول القرآن ، وعلى ألسنة الكهنة ،

47) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص : 87
48) المصدر نفسه ص : 88
49) الفن والتربية ص: 21 — التعبير الموسيقي ص: 20
50) النقد الأدبي ص : 64
51) الاتقان في علوم القرآن 87/2
52) البيان والتبيين 288/2 وما بعدها

فساير طبعهم الموسيقي الذي يهزه الشعر بوزنه وقافيته . وعندما نزل القرآن ، وحمل معه موسيقى ذات روح لم تعهدها نفوس العرب ، واتسم بإيقاع يهز المشاعر ، لتنساب مع الحقيقة ، لا لتعيش في نشوة براعة التعبير والخيال ، كما هو في الشعر — عندما نزل القرآن انتابت العرب حيرة ، وتسرب إلى مسارب نفوسهم نغمة الروح الالهية بجلالها وهيبتها وقوة أثرها ، فادعى بعض الناس أن ليس في القرآن سجع ، وأن السجع ينسب للكهان ، وقالوا كيف يكون في القرآن سجع والسجع أسلوب الكهنة ؟ ويعلل الجاحظ سبب الكره بقوله : «وكان الذي كره الإسجاع بعينها وان كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، ان كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وان مع كل واحد منهم رئيا من الجن (53) » .

ويستمر الجاحظ في التوضيح بقوله : «قالوا : فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم (53) » ، ويستشهد على صحة ذلك بقوله : «. . . وكانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكون في تلك الخطب اسجاع كثيرة فلا ينهونهم (53) » .

ويَردُ حديث نبوي ، يستشهد به الكثيرون في النهي عن السجع ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم «أسجعاً كسجع الكُهّان (54) » بعد أن قضى على رجل في الجنين بغرة عبد أو أمة ، وبعد قول الرجل : أندي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ؟ (54) . . ويَرِدُ على من يعتمده دليلا على نهي السجع في القرآن ، هو أن الرسول دقيق في كلامه ، فلم يقل في هذه الرواية «أسجعا» ، ثم سكت ، بل نهى عن السجع المنسوب والمحاكي لأسلوب الكهنة فقط (54) ، ويؤيد هذا التخريج الطبيعي المستمد من منطق كلام الرسول رواية الأزهري في «تهذيبه» ، الذي ينسب إلى الرسول قوله : «اياكم وسجع الكهان (55) » . وفي هذا نهي صريح عن سجع الكهان لا عن مطلق السجع . إلا أن السجع لا يكون محمود إلا إذا خلا من التكلف والتعسف والصنعة ، وساير الطبع والغريزة ، وكاذ

53) البيان والتبيين 289/1 . الرئي : هو الذي يعتاد الإنسان من الجن ، يحبه ويؤالفـه .
54) الصناعتين ص: 261 — صبح الأعشى 281/2، لسان العرب مادة سجع . البرهان في علوم البيان ص 209
55) تهذيب اللغة 339/1

اللفظ فيه تابعا للمعنى لا العكس (56). ويستشهد أبو هلال العسكري على اجازة الرسول للسجع بكلامه عليه الصلاة والسلام في قوله: «اعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة»، وانما أراد «ملمة». وقوله عليه السلام: «ارجعن مأزورات غير مأجورات» وانما أراد «موزورات» من الوزر، فقال مأزورات لمكان مأجورات، قصدا للتوازن وصحة التسجيع (57). ويستطرد قائلا: «فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف (57)». ولذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: «إذا توفر حسن الإفادة في التسجيع، استجاب الكلام إلى الفضيلة (58)».

ان من الذين نفوا وجود السجع بالقرآن الرماني والباقلاني، وقد شددا في النهي عنه، لأنه عيب، والقرآن خلو من العيب، وان ما يسمى سجعا هو فاصلة، وفي الفاصلة بلاغة، حيث تخضع اللفظة فيه إلى المعنى وتكون تابعة لا متبوعة (59). وعرف الرماني الفاصلة بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن افهام المعاني، والفواصل بلاغة والاسجاع عيب (60)». ومن الذين أكدوا وجود السجع في القرآن الجاحظ وأبو هلال العسكري وعبد القادر الجرجاني وابن الأثير (61) وابن سنان الخفاجي (62) وأبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (63) والقلقشندي. أما المحدثون الذين أكدوا ما ذهب إليه القدماء من وجود السجع فالأستاذ أحمد صقر في مقدمة اعجاز الباقلاني حين يقول: «ولئن قال الباقلاني أن السجع عيب يجب نفيه في القرآن، فإني أقول: أن السجع من الميزات البلاغية التي يجدر بنا أن ننزه القرآن عن خلوه منها (64)»، والدكتور محمد زغلول سلام (65)، والدكتور

56) الصناعتين ص: 261 — صبح الأعشى 290/2
57) الصناعتين ص: 261
58) أسرار البلاغة ص: 11
59) اعجاز الباقلاني ص: 409 — ثلاث رسائل في اعجاز القرآن. ص 89
60) سر الفصاحة ص: 89
61) المثل السائر ص: 193
62) سر الفصاحة ص: 201 وما بعدها
63) البرهان في وجوه البيان ص: 209 وما بعدها
64) اعجاز الباقلاني. مقدمة المحقق ص: 87
65) أثر القرآن في تطور النقد العربي. ص: 273

عبد الحليم بلبع (66)، والأستاذ أنيس المقدسي (67)، والأستاذ علي الجندي وصحبه (68)، وغير هؤلاء من الجانبين في التأييد والنفي كثيرون، يعثر عليهم بالاستقراء، ولست هنا في حاجة إلى هذا الاستقراء، فله مكانه الخاص. والحقيقة، أنه ليس للمحدثين رأي جديد في هذا الموضوع، فإنهم سلكوا مسلك القدماء، ولم ينص بعضهم على ذلك عند عرضه للموضوع: وليس لي رأي سوى مشاركة القائلين بوجود السجع في القرآن، وانه ليس من فرق بين السجعة والفاصلة، وإذا فرض هذا الفرق، فإنه يرجع إلى تشبث القائلين بأن السجع عيب، والفاصلة بلاغة وهذا التشبث هو الذي دفعهم إلى تقديم تعريف وايضاح، ليتميز به احدهم من الثاني، وذلك لأن أصل السجع كما ورد في لسان العرب (69) هو من قول العرب: سجعت الناقة سجعا: مدت حنينها على جهة واحدة. وسجعت الحمامة إذا دعت وطربت في صوتها. وسجع الحمام يسجع سجعا: هدل على جهة واحدة. ومن هذا المعنى الحسي الطروب الذي يتجاوب صداه في صحراء العرب، ويستسيغه السماع العربي، حيث قرب الإبل إلى نفوسهم وحياتهم العامة، والحمام حيث الهدوء والوداعة والنغم. وهذا المعنى تستريح له النفس، وتخلعه على الشيء الذي تحبه. وليس أحب لقلوب العرب من القرآن، فهو رمز فخرهم.

ثم وردت في المعنى الآتي: «سجع يسجع سجعا وسجع تسجيعا: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن (69)».

أما معنى السجع المصطلح عليه في البلاغة العربية فهو تقفية الكلام من غير وزن (70). وقال ابن الأثير: هو «تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف احد (71)». ويقول ابن سنان الخفاجي: السجع تماثل الحروف في مقاطع الفصول (72).

66) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه. ص: 61
67) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ص: 55
68) أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام ص: 164 وما بعدها
69) لسان العرب: مادة سجع
70) صبح الأعشى 280/2
71) المثل السائر ص: 193
72) سر الفصاحة ص: 201

وعندما يلتئم الإيقاع الموسيقي للقرآن برنة السجعة ، تأخذ النغمة أبعادها ، من عمق الآية ، ومن حروف أواخرها ، وكلما كانت الأواخر أكثر ايقاعا كانت النفس أشد أثرا، والمعنى أكثر خلودا . ولذلك اهتم العرب بالخواتم . يقول ابن جني : « ألا ترى أن العناية في الشعر انما هي بالقوافي لأنها المقاطع ، وفي السجع كمثل ذلك . نعم ، وآخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها ، والعناية بها امس ، والحشد عليها أوفى وأهم ، وكذلك كلما تطرف الحرف في القافية ازدادوا عناية به ومحافظة على حكمه (73) » . والإيقاع الموسيقي صورة قبل أن يكون شيئا ماديا ، لأن عناصر الإيقاع هي الأنغام ، ولكي تكون لذيذة لا بد أن تكون مرتبة وموزعة على أحسن وجه ؛ وان كل نغمة تتوقف على بقية الأنغام ، فإذا تم الانسجام في سلم الإيقاع الموسيقي ، أخذ مجراه الطبيعي ، فمثله كمثل الموسيقى ، فان « الاساس في اللحن الموسيقي ترتيب أنغامه بدليل أن تغييرا ما في سلم الموسيقى ، يؤدي إلى تغير كل نغمة من الأنغام دون أن يحدث تغيرا في اللحن (74) » .

هذه نظرة سريعة في الإيقاع الموسيقي في لغة العرب ، والقرآن ، وما يتصل به من موضوعات .

ولكي يكون الإيقاع الموسيقي واضحا من خلال القرآن ، اعمد إلى توضيح الموضوعات الآتية :

أ — الإيقاع بالتكرار.
ب — الإيقاع بالصيغة.
جـ — الإيقاع بأسلوب العرض.
د — الإيقاع بالجرس والحركة.
هـ — التلون والتنوع في الإيقاع.
و — التناسق في الإيقاع.

أ — الإيقاع بالتكرار:

في القرآن تكرار طبيعي ، خال من التكلف ، وهو يساير مقتضيات التعبير الفني ، ونلحظه في أشكال متعددة ، تارة في آية كاملة ، وثانية في جزء

73) الخصائص 84/1

74) مباحث علم النفس الحديث ص : 61

من العبارة وثالثة في اجزاء العبارة وحروفها . ان التكرار بشتى أنواعه يحدث نوعا خاصا من الإيقاع ، تستلزمه العبارة ، لأغراض فنية ونفسية واجتماعية ودينية فتكرار الضمير المتصل « كم » في قوله تعالى : «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ، ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (75) » — يمد المغزى قوة في الجرس والإيحاء ، وتأكيدا للمعنى الوارد بها في حق الذين استهزؤوا بالرسل والكتب السماوية ، وإثارة عن طريق الخطاب المباشر . وان الإيقاع الذي تحدثه « كم » بجرسها الذي يغلق الشفتين ، يوحي بصد النفس ومباغتتها بأسلوب هادىء ، كما أنها تنفح بالإحتقار والمهانة واللامبالاة ، وان « كم » تحمل في ايقاعها نغمة مشوبة بالدمدمة والزمجرة ، وهذه النغمة تنعكس على النفس فتهزها هزا لتبكتها وتطرحها أرضا مغشيا عليها .

إن من دلائل اهتمام العبارة القرآنية بالإيقاع بهذه الآية ، ورود « ذلكم » في قوله تعالى : « ذلكم بأنكم اتخذتم .. الآية » جمعا ، وكان في الإمكان ورودها مفردة : « ذلك بأنكم اتخذتم .. » ولو أنا قرأناها هكذا ، لشعرنا بكسر في الإيقاع ، اضافة إلى أن ورودها جمعا يحقق غرضا فنيا : فيه التناسق في الصيغة التعبيرية ، ونفسيا فيه الإسهام مع تكرار « كم » للتأكيد والإثارة والتأثير .

ونلاحظ أيضا تكرار « نسي » مرتين : في الأولى بصيغة الخطاب المباشر « ننساكم » في الزمن الحاضر ، وفي الثانية بالصيغة نفسها في الزمن الماضي « نسيتم » . وكون الرد من الفعل نفسه يحدث في النفس ايقاعا يعتمد فيه على المعنى ، ومغزى الرد ، فيكون أشد وقعا ووخزا .

ويتصل بهذا التكرار تكرار الضمير المنفصل : « هو » في قوله تعالى : « فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (76) »

ان هذا التكرار في « هو » ، المصحوب بالخبر ، يفيد التأكيد ، ويحدث ايقاعا ، يستمد قوته من المعنى ، وهو ايقاع هادىء ، يتغلغل معناه ونغمته في داخل النفس . وكفى بالإيقاع في داخل النفس مؤثرا وفاعلا ! !

75) الجاثية 45 : 34 ، 35

76) الشورى 42 : 9

كذلك نلاحظ تكرار « ان » خمس مرات في آيتين في قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ ، وَأَنَّهُ يُحيي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ، وَأَنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ (77) » .

وفي قوله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ للإنسانِ إلا ما سعى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سوفَ يُرى ، ثُمَّ يُجْزاهُ الجزاءَ الأوفى ، وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى ، وأَنَّهُ هُوَ أَضحكَ وَأَبكى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحيا ، وَأَنَّهُ خلقَ الزَّوجَيْنِ الذَّكرَ والأُنثى ، مِنْ نُطْفَةٍ إذا تُمْنى ، وَأَنَّ عليه النَّشْأَةَ الأُخرى ، وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وَأَقنى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى وَأَنَّهُ أَهلكَ عاداً الأُولى (78) » .

ونجد في سورة الجن تكرار «أن» في بداية كل آية ، ابتداء من الآية الثالثة وهي قوله تعالى : « وَأَنَّهُ تعالى جدُّ رَبِّنا ما اتَّخذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً » إلى الآية رقم أربعة عشر (79) . وقد وردت فيها مفردة : « انه » وجمعا « أنا » و « انهم » . وفي القرآن الكثير من الآيات التي كررت فيها « ان » إفراد وجمعا ، وان الإيقاع الذي تحدثه داخل العبارة يستمد تغلغله داخل النفس - من قوة تأكيدها للمعنى ونوع الموضوع أيضا ، بحيث تشعرنا بضغط قوي من الفك الأعلى لشدقي الفم ، مشوب بنغمة ايقاعية ، تحمل انينا ، ينطوي على توبيخ خفي ، موجه إلى بني آدم ، حيث ضعف النفوس ، وسرعة التقلب ، وعدم التصديق والتسليم . جاء في معجم مقاييس اللغة : « ان » وأما الهمزة وَالنون مضاعفة فأصل واحد ، وهو صوت بتوجع . قال الخليل : يقول : أنَّ الرّجل يئنّ أنيناً وأنَّةً وأنّاً ، وذلك صوته بتوجع (80) .

كذلك ورد في سورة النمل « أمَّنْ » ، وقد صدرت بها الآية ، وكررت بتوال خمس مرات (81) . وايقاعها يشعرنا بضغط من علو يوحي بطأطأة الرأس ، لتدرك العين وتبصر ما يجري حواليها ، وليتأمل العقل

77) الحج 22 : 6 ، 7
78) النجم 53 : 39 — 50
79) الجن 72 : 3 — 14
80) معجم مقاييس اللغة : 30
81) النمل 27 : 60 — 64

وتدبر الحواس . وتستمد هذا المعنى من موضوع الآيات ، فالتكرار يرتبط ايقاعه دوما بالمعنى والمحتوى . وليتضح المعنى بصورة أكثر جلاء يحسن أن نذكر الآيات الخمس التي صدرت بـ « أمن » ، يقول تعالى : « أمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أإلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسي ، وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حاجِزاً أإلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ، أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ أإلهٌ مَعَ اللهِ قليلاً ما تَذَكَّرُونَ ، أَمَّنْ يَهْديكُمْ في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أإلهٌ مَعَ اللهِ ، تَعالى اللهُ عَمّا يُشْرِكُونَ ، أَمَّنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أإلهٌ مَعَ اللهِ ، قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ (82) » . ونلاحظ في الوقت نفسه ايقاعا يحدثه تكرار « أإله مع الله » بفتح في همزة الإستفهام وكسر في همزة « اله » ، وهما يحدثان نغمة تعلو وتنخفض ، يصحبهما ضغط من النغمة نفسها ، وكأنها بذلك توحي إلى التدبر في السماء وما فيها ، والتبصر والتأمل في الأرض وما يجري عليها . وبصورة عامة ، لا يخفى علينا ما يسود الإيقاع الذي ينبعث من الآيات السالفة . حيث الجلال والعظمة ، وحيث التوبيخ الذي يحدثه الإستفهام والتعقيب ، وحيث اثارة النفس ، وتحريك العقل الذي تحدثه الدعوة إلى التدبر والتأمل . إضافة إلى تكرار « بل » ثلاث مرات التي تحمل نغمة الاحتقار والاستصغار ، والرد العنيف المباغت المشوب بالجدل ونجد أيضا تكرار « ومن آياته » بتوال في سورة الروم ست مرات (83) ، وهي بذلك تثير ايقاعا خاصا ، يحمل معه نغمة الإعجاب بما تبدعه القدرة الإلهية ، ويوحي بالعظمة وقوة البرهان الإلهي لمخلوقاته الضعفاء ، وبأن واجبهم الإمعان والتأمل ، لعل النفس ترعوي وتهتدي . ويزيد في قوة هذا الإيقاع تكرار « ان في ذلك لآيات . . . » اربع مرات عقب الآيات السالفة ما عدا الخامسة ، وان اختلاف نوع الموجه لهم ، يعطي النغمة النفسية انفعالاتها وبعد أثرها . ولا بأس أن أذكر التعقيب دون ذكر

82) النمل 27 : 60 — 64
83) الروم 30 : 20 — 25

الآية كاملة . يقول تعالى :

« . . . إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكَّرُونَ » ، « . . . إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ للعالمينَ » ، « . . . إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لقومٍ يعقِلُونَ » .

ان من مهام التكرار التأكيد ، ولفت النظر ، وانصهارهما في نغمة ايقاعية تسود الآية كلها . يقول تعالى: « فللَّه الحمدُ رَبِّ السَّماوَاتِ وَرَبِّ الأرْضِ رَبِّ العالمينَ (84) » . . . ان ايقاع هذه العبارة يحدثه شيئان : التكرار في « رب » ، وحسن النسق في جلال من المعنى .

ان العطف في « ورب الأرض » وعدم العطف في « رب العالمين » يضع الآية في نسق تام ، وهذا النسق يستمد جماله وقوته من السبك والاحكام بين أجزاء الآية وجلال المعنى الذي يساير مغزى المحتوى . وان في تكرار « رب » نغمة وإيقاعا يتناسق والإيقاع العام للآية ، حيث أنه يحدث ضغطا على الشفاه ، وكأنه يشير إلى صلتنا بالأرض التي منها نشأنا ، وان الخالق يملك الكون كله بمن فيه من البشر . فالله رب السماوات والأرض رب العالمين . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية يحدث هذا الضغط الذي يستمد أبعاده من المعنى العام للآية — اهتزازا واثارة في النفس ، ذا نغمة خاصة ، يسودها الخنوع للواحد القهار : فالله يملك الوجود ، ويتصرف فيه ، ونحن على مسرحه دمى تتحرك .

إن الاستجابة النفسية في اقرار الحمد لله : « فلله الحمد » ، تطبع الإيقاع بنغمة نفسية قوية .

ومن التكرار أن نجد في الآية لفظة مكررة ، تحمل دقة في مغزاها ، وتحدث إيقاعا خاصا كقوله تعالى : « قُلْ يا أهْلَ الكتابِ لا تغلُوا في دِينِكُمْ غيرَ الحقِّ ، ولا تتَّبِعُوا أهْوَاءَ قومٍ قدْ ضلُّوا منْ قبلُ وأضلُّوا كثيرًا ، وَضلُّوا عنْ سواءِ السَّبيلِ (85) » .

ان تكرار « ضل » بصيغتها الثلاثية والرباعية ثلاث مرات داخل الآية ، وكل منها يحمل مغزى يختلف به عن الثاني ، جعل الإيقاع موزعا خير توزيع ، ومسايرا للجو العام للآية . وان حرف « الضاد » الذي يحدث ضغطا ، يعوج عن طريقه اللسان ويكاد يخرج من الحنك ، يوحي بضلال القوم وزيغهم عن الطريق السوي .

---

84) الجاثية 45 : 36

85) المائدة 5 : 77

ونلاحظ كذلك تكرار « ألَّف » ثلاث مرات في قوله تعالى: « وألَّفَ بينَ قُلُوبِهِمْ ، لوْ أنفقْتَ ما في الأرْضِ جميعاً ما ألَّفْتَ بينَ قُلُوبِهِمْ ، ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينَهُمْ ، إنَّهُ عزيزٌ حكيمٌ (86) » ؛ وذلك بعد قوله تعالى : « وَإنْ يُرِيدُوا أنْ يخدَعُوكَ فإنَّ حسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذي أيَّدَكَ بنصْرِه وَبالمُؤْمنينَ (87) » .

إن الإيقاع في هذه الآية يحدث ضغطا عن طريق « ألف » الذي يشعرنا بطواعية النفس في التآلف عندما يريد ذلك العلي القدير . وان هذا الضغط يستعين في إبراز ايحائه بالمعنى العام للآية .

ان الإيقاع يرتبط دوما بالمعنى ، لأن المعنى يحدده شكل العبارة وصيغتها ، ومن الشكل والصيغة يتولد الإيقاع الذي يحمل في جوهره الصلة العميقة بالمعنى .

أما أن يتكرر الفعل بصورة متتابعة ، فذلك كقوله تعالى : « وَمكرُوا مكرًا وَمكرْنا مكرًا ، وَهُمْ لا يشعُرُونَ (88) » .

مكر تدل على الاحتيال والخداع (89) .

ان تكرار الفعل « مكر » أربع مرات ، وإن أسلوب التحدي يأخذ رده العنيف من الفعل نفسه ؛ وان مكر الكافرين يتضاءل أمام مكر الله وان هذا التضاؤل خاف عنهم ، فالغباء بلد عقولهم وحواسهم ونفوسهم ؛ وهنا يأخذ قوله تعالى : « وهم لا يشعرون » مغزاه النفسي ، وتتبلور حقيقة ذاتهم . ان الإيقاع وهو يستمد نغمته من فعل المكر ، وما بالآية من مغزى نفسي ، ومن حسن التوزيع في تضاعف المفعول المطلق « مكرا » مرتين ، يحدث رنة ايقاعية ، ترددها النفس تلقائيا ، وكأنها في حال سؤال وجواب ، هم يمكرون والخالق يمكر ، وما أشد مكر الله على مكر القوم الكافرين . كذلك توحي اللفظة بنغمة صد النفس وانغلاقها وركوب الرأس وعناده . وهذا يفسر الطابع العام للآية .

والتكرار وهو يؤدي غرضه الفني والنفسي والاجتماعي والديني من خلال آي القرآن ، لكي يعطي آي القرآن ايقاعا ، يخضع لمحتويات

---

86) الانفال 8 : 63

87) الانفال 8 : 62

88) النمل 27 : 50

89) معجم مقاييس اللغة 5 : 345

أغراضه في أوسع معانيه، ولكي ينسجم المحتوى مع الأغراض في وحدة من الإيقاع الموسيقي، يبتدئ بالحرف ويكتمل في الآية، وما سبق ذكره من الإيقاع لم يكتمل في الآية بكاملها، ولذلك أختتم الموضوع بعرض موجـز لذلك.

لقد ورد في سورة المرسلات تكرار آية كاملة عشر مرات، هي قوله تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ»، واحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن في قوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وكل من هذين التكرارين يعبر في حد ذاته عن دقة صلة التكرار بالسياق، وانطباع مغزاه بطابعه، الأمر الذي يأخذ فيه الإيقاع نغمة خاصة — وان تعدد التكرار نفسه — ولتوضيح ذلك نعمد إلى ذكر مجموعة من الآيات، ولنبدأ بسورة المرسلات.

تبتدئ السورة بإيقاع عاصف، شديد الوقع، عنيف الضربات، في ايجاز على غاية من الإبداع، وفي زحمة من غزارة المعنى، وفي انسجام موسيقي كامل بين نغمات الفاء والراء والقاف والعين والتاء واللام والنون. يقول تعالى: «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا، عُذْرًا أَوْ نُذْرًا، إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ، فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (90)».

ان النفس لتهتز وتخرس أمام هذا الإيقاع المشبع بروح الهول والقوة المتناهية، فجل الآيات السالفة لا تتعدى الكلمتين في كل واحدة منها، وهاتان الكلمتان تحلان محل صاعقة أو قذيفة، أو قل ما شاءت لك المخيلة تصوره، فإنك لا تخطئ، وانما نخطئ ان حددنا أثر الكلمتين فيما تصورنا، فهما أبعد وأبعد..

ان أسلوب العرض المتنوع فيها الذي يبتدئ بلا تمهيد بقوله تعالى: «والمرسلات عرفا...» قسم يتبعه قسم، ويأتي المقسم عليه، ويحل محله اسم الموصول، ماهيته مجهولة، ويؤكد بأن الثقيلة وبلام التوكيد في قوله تعالى: «انما توعدون لواقع» أي: «ان الذين توعدونه من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه، وهو جواب القسم (91)». ثم يعقب هذه الآيات — الآية الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة — بأسلوب الشرط «بإذا»: «فإذا النجوم طمست. الخ»، وهو تعبير حقيقي، يحمل في طواياه صدق مجيء الساعة، وهول يومها، وإذا النجوم والسماء والجبال في حال من الهول والرعب والفزع، ويصبح البشر نسخة من ذلك، وتقف الروح خانعة مستسلمة للواحد القهار، ليجازيها عما كسبت الايدي والقلوب. ثم يأتي أسلوب السؤال والإجابة التلقائية: «لأي يوم أجلت، ليوم الفصل». ويؤكد بقوله تعالى: «وما أدراك ما يوم الفصل». وذكر هنا يوم الفصل دون غيره لأنه: «اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق (92)». ويختتم جميع ما سبق ذكره بقوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذبين». انها استجابة طبيعية لهول يوم الفصل، وشدة العذاب الذي يلاقونه، ثم تتويج لإيقاع السياق، لينصهر كله، وينحصر في الاهتزازات العنيفة التي تصيب النفس، وتعلوها نغمة الإيقاع: الويل.. الويل لمن؟ للمكذبين الذين كذبوا وعد الله، وعد الحق: «انما توعدون لواقع».

هذا الإيقاع الذي اختتم بقوله تعالى: «فويل يومئذ للمكذبين» يأخذ نغمة أخرى في قوله تعالى: «ان المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون، إنا كذلك نجزي المحسنين ويل يومئذ للمكذبين (93)».

انه ايقاع هادئ رزين، ذو نغمة رحمة وابتهاج نفسي، لكنه ينتهي بقوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذبين» ذي الإيقاع الحاد المهول، ان صلته بالسياق، تدع الإيقاع يجمع نغمة ذات لونين: الرحمة والويل، أي الانقباض النفسي، والانشراح النفسي. ان أسلوب التقابل في القرآن كثير، يعتمده القرآن لتقوية الإيضاح، وهو هنا، وفي هذا الإيقاع خاصة يحمل مغزى عميقا تدركه النفس في أعماقها مثلما يدرك الإنسان الفرق النفسي بين إيقاع موسيقي كئيب وايقاع موسيقي سار في لحظات متوالية.

(90) المرسلات. 77 : 1 — 15

(91) الكشاف 678/4

(92) الكشاف 678/4 — تفسير ابن عباس ص : 497

(93) المرسلات 77 : 41 — 45

أما سورة الرحمان ، وقد وردت فيها الآية «فبأيِّ آلاء رَبِّكُما تُكَذِّبان» احدى وثلاثين مرة ، فان نغمة ايقاعها تتنوع بتنوع السياق ويمتاز التكرار في سورة الرحمن فيه أنّ جلّه يأتي عقب آية قصيرة ، كان في الإمكان أن تكون تابعة لما بعدها ، وسورة الرحمان بوجه عام عرض لنعم الله على الجن والإنس حيث : «عدد الله عز وعلا آلاءه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه ، وهي نعمة الدين ، فقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها : وهو أنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحي الله رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثرا ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه اياه . ليعلم أنه انما خلق للدين ، وليحيط علما بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله ، وكأن الغرض من انشائه كان مقدما عليه وسابقا له ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير (94) » .

وحق أن يكون عقب كل نغمة آية تخاطب الروح والعقل (95) : وعند الزمخشري «أن الخطاب موجه للثقلين وهما الجن والإنس (96)» و «سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض (97)» — وهذا الإيجاز في الآية ، يدع منبهات النفس يقظة ، لتدرك نعم الله ، ولتحس بالإيقاع الذي يهزها بقوله تعالى «فبأي آلاء ربكما تكذبان» ، وليس بينها وبين السياق إلا آية قصيرة ، وهذا يعطي الإيقاع نغمته ، وسرعة تأثيره ، والنغمة اهتزازاتها النفسية . ان هذه النغمة يسودها تارة تهديد وتخويف كما في قوله تعالى : «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّها الثَّقَلانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان (98)» : اهتزاز عنيف ، مشوب بقوة في التوبيخ ذو ايقاع نفسي عميق . وتارة يسود النغمة نبرة من التأمل والتبصر كما في قوله تعالى : «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرام فَبِأَيِّ آلاءِ

94) الكشاف 443/4

95) وحي وبيان من لب القرآن ص : 27

96) الكشاف 445/4

97) الكشاف 448/4

98) الرحمان 55 : 31 ، 32

رَبِّكُما تُكَذِّبان (99)» . انها تحدث بالنفس ايقاعا مشوبا بالاستسلام ، والإشعار بنغمة الفناء . وتارة ثالثة يسود النغمة تهويل عنيف ، كما في قوله تعالى : «فَإِذا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كالدِّهان ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان (100)» . انها تحدث شرودا في الذهن ، تفقد الأعصاب . وتارة رابعة يسود النغمة روح من التحدي ، كما في قوله تعالى : «يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ فانْفُذُوا ، لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطان فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان (101)» . انها تحدث خلخلة في النفس ، وتحريكا للعقل ، حيث النفوذ لا يتم إلا بسلطان ، أي : بالقوة والقهر والغلبة ، وأنى لهم ذلك (102) . إلى غير ذلك من أنواع الإيقاع الذي يحدثه التكرار بقوله تعالى : «فبأي آلاء ربكما تكذبان» .

إنه على الرغم من هذا التنوع ، فإن هذا التكرار المتتابع ، من أول السورة إلى آخرها ، يكتسي نغمة يكاد يكون طابعها واحدا . وهذه النغمة الإيقاعية تأخذ شكلها عند فحص التكرار نطقا وجرسا وصيغة ومعنى .

ان الخطاب في « . . . ربكما تكذبان» يعود إلى الثقلين : الجن والإنس ، كما أشار إلى ذلك الزمخشري ، مستشهدا بقوله تعالى «سنفرغ لكم أيها الثقلان» ورقم هذه الآية واحد وثلاثون ، أي أن الإشارة في بداية السورة ، وعند ذكر «فبأي آلاء ربكما تكذبان» غامض ، ولهذا الغموض أثره في النفس والعقل ، حيث تأهب للنفس ، وتحرك العقل الذي يكبل حينا بعد حين في لحظات الانطلاق للتحرك . وعندما نفحص — في نفوسنا — نطقها وجرسها بتؤدة وامعان ، نشعر بضغط قوي في «أي» متجها إلى الحنجرة وبضغط في «رب» : «ربكما» ، وبنحصر بين الشفتين ، وبضغط في الدال المشددة في «تكذبان» ، ويكاد ينزلق . إلا انه في لحظة الانزلاق تجذبه حركة الكسر إلى الداخل . ثم نشعر بانفتاح اللهاة والشفتين عند النطق رويدا رويدا بـ «آلاء» و «كما» في ربكما ، و «بان» في تكذبان . وهذه الحال توحي بجرس وايقاع مشوبين بالتأنيب والتوبيخ ، وبنغمة تمتزج بالإهتزازات النفسية التي تحدثها معاني السورة . ان النغم التي تعرضها السورة ،

99) الرحمان 55 : 26 ، 27 ، 28

100) الرحمن 55 : 37 ، 38

101) الرحمان 55 : 33 ، 34

102) الكشاف 449/4

تدرك حقيقتها بالتدبر والتبصر ، وأنها عظيمة في حد ذاتها ، وبرهان على قدرة الخالق ، ولطفه بعباده ؛ ان تكذبان ، في « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ، توحي بجحود الإنسان وكفره ، وان التكرار في التنبيه على أمر ما ، يثير المشاعر ، وهو في سورة الرحمان ينبه النفس لتدرك انحراف فطرتها ، وصدق هذا الانحراف ، وانها لا تتميز من الحيوانات ، ان لم تكن الحيوانات أفضل منها لفقدانها العقل ، وتوفره في الذين وجه لهم الخطاب في قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

ان التناسق القائم بين معاني السورة من أولها إلى آخرها ، يلتزم فيها التكرار بالتتابع المنطقي ، ويخضع لنغمة السياق ، ثم ينفرد بالإيقاع عند تلاقي بعضها ببعض ، لتلج نغمته إلى النفس والعقل ، إلى النفس : لتنصهر في حقيقة واقع وجودها ، وإلى العقل : ليستجمع قواه فيتأمل ويتبصر . والشيء نفسه يسري على التكرار الذي سبق ذكره ، وعلى قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » .

ب – الإيقاع بالصيغة :

إن لصيغة التعبير من حيث الدقة وحسن الإختيار ، والإحكام وقوة السبك ، وجمال التناسق – الأثر في إحداث الإيقاع داخل العبارة ، وان مفردات العبارة خاصة التي تحمل دلالات تنسجم ودلالة العبارة بوجه عام – تكثف نغمة الإيقاع ، وتحيله إلى طابع موسيقي ، يتناسب ونوع تموجات الإيقاع داخل العبارة . ولذلك نجد صيغة « لأعذبنه » و « لأذبحنه » و « ليأتيني » في قوله تعالى : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (103) » ، وهي مؤكدة باللام والنون الثقيلة – تحدث جرسا وضغطا عند النطق بها ، وهي تشير بذلك إلى القوة والعنف اللذين يسودان جو الآية ، وتمدنا بإيقاع يمتزج مع أجراس الطرقة التي تحدثها المطرقة ، وينتهي بنغمة تتناسب مع قوة المعنى ومغزى المحتوى.

وأحيانا تشارك مجموعة من الصيغ ، ويتم بينها تناسق في التوزيع ، وتعزز بإيقاع بوساطة الضمائر المتصلة كما في قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

103) النمل 27 : 21

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (104) » .

ان صيغة « ليستخلفنهم » و « ليمكنن » و « ليبدلنهم » ، والتناسب في الجرس بين « ليستخلفنهم » و « استخلف » ، وانتهاء مفردات عديدة بالضمير المتصل « كم » مرة واحدة ، و « هم » ست مرات ، و « ني » في يعبدونني التي تتناسب و « بي » في « لا يشركون بي » ، وسلامة التناسق وحسن التوزيع بين « ذلك » و « أولئك » في قوله تعالى : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . كل هذا يسهم في تقديم ايقاع يتناسب وصيغة الآية ، بحيث نشعر ونحن نردد الآية أن نغمة الإثبات والإستخلاف تنبعث من الإيقاع ، وتؤكد المغـزى .

ان التراص في صيغة التعبير ، وتزاحم المعاني في الآية ، والجرس الذي ينبعث عند الترديد ، والضغط الذي ينصب على النفس من كل جانب ؛ ذلك الذي يكاد من أجله يتعثر اللسان ، وأن الحروف بحركاتها وهي تعلو وتنخفض ، ويمتد اللسان ويتقلص تبعا لعلوها وانخفاضها ، تحدث ايقاعا ؛ لو اقتصرنا عليه ، لاهتدينا إلى المعنى . وهذه الصورة العامة تتمثل في قوله تعالى : « كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً ، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (105) » .

ان حرف الكاف والقاف والخاء والعين والفاء والميم والهمز والهاء ، وانتشارها في هذه النهاية بتوزيع محكم ، تحدث ضغطا ، وحركة شبيهة بالتعثر في اللسان ، وان الجرس الذي تحدثه ، يتم في نغمة ايقاعية قوية ، تهز النفس ، وتطبع الآية بطابعها . وندرك هذا عند تلاوة الآية بتؤدة تارة وبسرعة تارة أخـرى .

ان صيغ المبالغة تحدث ايقاعا خاصا ، ذا جرس يتصل بالنطق والسماع ، ونغمة مشوبة بالقوة والعنف . فصيغة « كبارا » في قوله تعالى : « وَمَكَرُوا

104) النـور 24 : 55
105) التوبـة 9 : 69

مكرًا كُبَّارًا » (106) – التي « قرئت بالتخفيف (107) » . ومعنى الكبار : أكبر من الكبير والكُبَّار : أكبر من الكبار ، ونحوه طوال وطوّال (107) – ان هذه الصيغة وهي صفة للمكر ، تفيد بلاغة في المعنى ووقعا شديدا على النفس ، وايقاعا يشبع الفم انتفاخا وضغطا ، فتحس النفس وكأنها تنحدر إلى الأرض ، تعبيرا عن شدة مكر الكفار وعتوهم . وان تكرار الكاف ثلاث مرات يعطي نغمة الإيقاع تموجاتها . هذا ونفسه يرد في كل من « دَيَّارًا » و « كفَّارًا » في قوله تعالى : « وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » (108) . فوزن « ديارا » و « كفارا » فعّال ، وهي صيغة تفيد المبالغة ، وان ديارا « من الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال ما بالدار ديّار وديُور (109) » . والمعنى العام للآيتين قوي ، فإن دعاء نوح كان نابعا من صدق تجاريبه مع أهل الشرك ، وعندما ينطلق لسانه بالدعاء : بأن لا يذر الله على الأرض من الكافرين أحدا ، فإنهم لن يلدوا إلا من يحدث الفجور والكفر ، تنبعث من دعائه نغمة الصدق وقناعة في اليأس منهم ، فقلوبهم وعقولهم وحواسهم بور ، ومن كانت هذه صفته ، فلا خير يرتجى منه . ولذلك كان الإيقاع يتم في ضربات حادة ، تعززه نغمة الراء وحركته داخل الآية ، ويشعر المردد للآيتين بضغط قوي على اللسان وداخل الفم . انه – حقا – لدعاء نابع من القلب ، ولا بد للكلام النابع من القلب من ايقاع يتلاءم والصيغة التعبيرية لمحتواه .

انه أحيانا يحدث الإيقاعَ لفظٌ واحد ، بجرسه وقوة تصويره ، فيشخص الصورة بسرعة متناهية ، ويتم في ايقاع قوي وسريع ، وذلك كلفظة « زجرة » التي يتناسق ايقاعها و « بالساهرة » في قوله تعالى : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (110) » .

إن الآية في ايجاز متناه ، وروعة متناهية في قوة التصوير والتخييل ، ذلك أن « زجرة » بما تحدثه من وقع يهز النفس ، وايقاع موسيقي ، تتناغم تموجاته على سكون حرف التاء في كل من « واحدة » و « ساهرة » . ان

106) نــوح 71 : 22
107) الكشــاف 619/4
108) نــوح 71 : 26 ، 27
109) الكشــاف 4 : 641
110) النازعات 79 : 13 ، 14

الإيقاع في « زجرة » يحصر اللسان في الزاي المفتوحة والجيم الساكنة ، وهي تحمل نغمة تمس عمق النفس، فتوحي بسرعة الزج على جرس « زجرة »، وإذا هم بالساهرة ، على حين فجأة . ان الإيقاع ليأخذ ابعاده من محتوى الآية ، ولذلك لا بأس أن نذكر معنى الزجرة والساهرة . ان الزجرة تعني : « نفخة واحدة لا تثنى وهي نفخة البعث (111) » . وأتت « من قولهم زجر البعير إذا صاح عليه (112) ». ان سرعة النفخة وقوتها تعيد البشريــة أحيــاء على وجه الأرض بعد أن كانوا مطمورين في باطنهــا في أسرع من لمح البصر . وعبر القرآن عن ذلك بـ « إذا » التي تفيد المفاجأة في قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » . والساهرة هي : « الأرض البيضاء المستوية (112) » وقد فسرها ابن عباس بوجه الأرض ويقال أيضا أرض المحشر (112).

ان التعبير بالساهرة في هذه الآية يأخذ أبعاده بحكم صلته بالمعنى الحسي به، وقد نص عليه الزمخشري بقوله: « سميت – أي الساهرة – بذلك لأن السراب يجري فيها ، من قولهم : عين ساهرة جارية الماء (112) » . وفي هذا ايحاء بأن الأرض وما فيها سراب في سراب . وهكذا يأخذ الإيقاع نغمته من المعنى العام للآية ، ولا سيما من الزجرة والساهرة وأسلوب الصياغة .

ان الحروف لتحدث إيقاعا لا تلمسه في الكلام العربي عند تكاثفها ، وان هذا الإيقاع يتناغم بحكم حسن التوزيع ، والدقة في النطق والإخراج ونلمس هذا في قوله تعالى : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » (113) .

اننا نشعر عند النطق بتكاثف حرف الميم ، بخفة في بعضها كما في قوله تعالى : « بسلام منا » ، « ثم يمسهم منا عذاب أليم » ، وبثقل وسط يكاد يعسر عنده النطق ، ويعثر من أجله اللسان في قوله تعالى : « وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ » . إلا أن النطق الهادئ البطيء يجنبنا التعثر ، ولكن لا يجنبنا ما نشعر به من ثقل وضغط على الشفتين ، الذي يرمز بحق إلى النموذج الأدبي الرفيع في مقدرة القرآن على نظم الحروف

111) تفسير ابن عباس ص : 500
112) الكشــاف 694/4
113) هــود 11 : 48

ودقة توزيعها، ويشير كذلك إلى طاقة التكيف التي تملكها اللغة العربية، وسعة مقدرة العربي على النطق، واخراج الحروف من مخارجها الطبيعية وان تراكم بعضها على بعض بانتظام، وحسن توزيع.

ان الإيقاع الذي تحدثه الحروف تصحبه نغمة ذات جرس دوي، وغنة تعلو وتنخفض.

ج — الإيقاع بأساوب العرض القرآني:

ان ما يفتتن به دارسو القرآن، أسلوبه في العرض، تنوعه في اثارة النفس والمخيلة، وتحريك العقل، وبعث النشاط في الحواس. وان لهذا الأسلوب ايقاعا تختلف نغمته باختلاف تنوع الأسلوب. والقرآن يتخذ في أسلوب العرض أشكالا متعددة: فهو تارة يعرض الحقيقة عرضا علميا قصد الإيضاح والتبيان، وثانية يتخذ أسلوب الاستفهام أو الحوار أو الجدل أو الإستنطاق لمخاطبة النفس مباشرة، حتى تسير النفس وكأنها تخاطب نفسها بنفسها، فيكون التأثير أوقع وأشد، وثالثة يتخذ أسلوب التحريك والإثارة للتأمل والتدبر وحث النفس على التذكر والتروي وامعان النظر، في عرض يستمد معالمه من الحياة المادية أو من الطبيعة أو من حالات النفس البشرية؛ ورابعة يهتم بأسلوب التقابل بين العبارات والصور، وخامسة يتخذ أسلوب المباغتة والمفاجأة... وغير ذلك من الأساليب. وأسلوب القرآن صورة صادقة وحقيقة لشخصية القرآن الفنية والنفسية، وعلى لوحته الفنية والنفسية ينبعث الايقاع، ذو النغمة الموسيقية، المستمدة من وقوع الحرف والكلمة والعبارة والآية. وتتسم هذه النغمة الموسيقية بطابع الأسلوب. ولذلك نجد في القرآن كثيرا من اسلوب الخطاب، ولفت النظر وتبصير النفس بدقائق باطنها، وبالطبيعة والحياة، لعل الانسان يعي فيعتبر. ونستشهد على ذلك ببعض الآيات الواردة في سورة الواقعة. يقول تعالى: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون. افرايتم ما تمنون، االتم تخلقونه ام نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم في مالا تعلمون، ولقد علمتم النشاة الاولى فلولا تذكرون، أفرأيتم ما تحرثون، االتم تزرعونه ام نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون. بل نحن محرومون، أفرأيتم الماءالذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم (114)».

إن مخاطبة النفس بالاستفهام بـ «أفرأيتم» تارة، و«أأنتم» ثانية التي هي في الأولى تمس الحواس ولا سيما العين الباصرة في ميدان الحس، وفي الثانية تمس كل نفس بعقلها وحواسها وعاطفتها ومخيلتها. وهذا النوع من المخاطبة، يثير ايقاعا يتلاءم ومغزاه، ودرجة قوة محتوى الآية؛ وتسوده روح من التحريك والإثارة، مشوبة بالتوبيخ العنيف، والمباغتة؛ ووضع النفس امام حقيقتها لتدركها وتعمل بمقتضاها، وهذه طريقة نفسية؛ تجعل النفس مذبذبة، حائرة، تعرف في الأخير طريق الهداية من تلقاء نفسها، ولاتتبعه، والنفس اذا ادركت الحقيقة، وعرفتها، ولم تتبعها، تشعر — وان لم تبغ ذلك — بالحسرات والتأوهات، لو حللت، لعرفنا مصدرها، الذي يرجع إلى التعامي والتجاهل.

ان الايقاع لا بد أن ينطبع بهذا الصراع الداخلي للنفس، وانفعالاتها المكبوتة، فينجلي لنا في هذه الآيات وهو يحمل نغمة تأوهات النفس، يعززها انتهاء الفواصل بحرف النون الذى يوحي بالانين وانكسار النفس في جوهرها وهي لا تشعر. ونلمس اسلوب المقايسة ايضا في العبارات السالفة: «... أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون: الخ». وهذا الأسلوب يعطي الإيقاع تموجات خاصة، تستمدها من الاهتزازات النفسية المقترنة بالإبكات والخرس.

وكذلك نلمس في الإيقاع ضربات نفسية حادة، تدركها النفس، وتشاركها في ذلك حاسة السمع باسلوب التنبيه والتساؤل في «عم يتساءلون» واسلوب الرد العنيف المباغت: «كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون» وذلك في قوله تعالى: «عَمَّ يتساءلُونَ عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ الذى هُمْ فيه مُخْتَلِفُونَ، كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثم كَلاَّ سَيَعْلَمون (115)».

ان الإيقاع يحمل صفعات نفسية بوساطة «كلا.. ثم كلا» فتهتز لذلك النفس، ويتبع القرآن هذه الاهتزازات بالتساؤل الشخصي: «ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشا (116) ... الخ».

(114) الواقعة 56: 57 — 74

(115) النبأ 78: 1 — 5

(116) النبأ 78: 6 — 11

وذلك ليتم الايقاع النفسي بصدق النبرة، والنغمة الموسيقية بعمق المعنى ونلاحظ ايضا الالف الساكن على حسب الحروف التي قبلها كالدال والجيم والثاء والراء والشين ، وهي في وحدة ايقاعية متناسقة وان اختلفت الحروف.
ان أسلوب الخطاب المباشر ، المشوبّ بالتهديد العنيف ، الذي يدع المخيلة تتصور المستقبل حاضرا مجسدا متحركا كما في قوله تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المُكَذِّبُون لآكِلُونَ من شَجَرٍ من زَقُّوم، فما لِؤُونَ منها البطونَ فشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم (117) » إن هذا الأسلوب بروحه ونفسه يطغى على الآية ، ويمدها بقوة وعنف ، فيهز النفس ، لا فرحا وطربا ، بل فزعا وخوفا من شدة عذاب الله ، وما يناله الظالمون المكذبون .

ان الإيقاع الذي تحدثه لفظة « زَقُّوم » ، وهي تقف في عمق الحنجرة ، تحمل جرس الزقزقة تنتهي بمد وسكون في الميم ، والميم من حروف الشفة ، وذلك ايحاء بعدم استساغة النفس لهضمها : ولكنها من شدة حرقة الجوع ، تملأ به بطونها ، لتقاسي الشدائد ، ولتعيش حياة حرقة الجوع ووخز الزقوم. ويعمق هذا الإيقاع معنى زقوم الذي هو « شجرة نابتة في الجحيم (118)». إن زقم يدل على جنس من الاكل. قال الخليل الزقم: الفعل من أكل الزقوم . والازدقام: الابتلاع. وذكر ابن دريد : ان بعض العرب يقول تزقم فلان اللبن إذا أفرط في شربه (119) وهناك تقارب في الجرس بين هذا النوع من الأكل وبين (زقو) الذي يدل على صوت من الاصوات ، فالزقو مصدر زقا الديك يزقو. ويقال أن كل صائح زاق(119). كذلك نلاحظ التناسق بين خواتم الايات في حروفها الأخيرة، فهي تارة ميم ، وثانية نون ، وهما متقاربان ، حيث الغنة تكاد تكون واحدة ، وان شنشنة حرف الشين في قوله تعالى : « فشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم » ، وما تحمله الهيم من حركة تدع الفم مفتوحا، والشفة السفلى مرتخية إلى أسفل، وهي الحال نفسها التي تكون عليها الإبل ، حيث ان شرب الهيم بمعنى : « ما تشربه هي وهي الابل التي فيها الهيام ، وهو داء تشرب منه فلا تروى (120) » — تبقى الشفة السفلى مرتخية، تعبيرا عن شدة الظمأ الذي يشعر به الضالون المكذبون بعد أكلهم من شجرة الزقوم التي تضطرهم إلى شرب الحميم ، نتيجة ما تحدثه من

117) الواقعة 56 : 51 — 55
118) تفسير ابن عباس ص : 454
119) معجم مقاييس اللغة 16/3
120) الكشاف 463/4

عطش شديد .
إن هذا الإيقاع يلهب النفس للاحجام عن معصية الخالق ، وتعلوها قشعريرة يصحبها انغلاق نتيجة الخوف وصورة هلع النفس امام الخالق . وإن الإيقاع العام للآيات عامة يستمد دلالته من النغمة التي تحدثها الالفاظ ، والتناسب في حروف الفواصل : الميم والنون ، وجرس التناسق الفني بين الآيات جميعها ، وطابع الأسلوب العام حيث الاثارة والتحريك .

د — الإيقاع بالجرس والحركة :

إن مما يحدث الإيقاع داخل العبارة القرآنية ، ما تحمله العبارة من جرس وحركة ، تتعانقان لتجسم الصورة في إيقاع مثير، وفي انتظام موحد.. إن الحركة أو قل الحياة بمضمونها الحسي ، تظللها ما تتميز به عبارة القرآن من قوة ودقة في التصوير والتشخيص .. والجرس ينبع من التقاء الصيغة الفنية بمفرداتها الحية ، مع الوقع النفسي الذي يلتزم تحريك الوجدان بما فيه من انفعالات ، تنتج من جراء صلة النفس بالوجود الحسي ، الذي تنسجم فيه وحدة من الإيقاع ، هي نتيجة لنظام الكون البديع ، الذي تنعكس فيه صوت الطبيعة بجرسه وحركته. وإذا كان الجرس والحركة من سمات الطبيعة فلا بد أن يسود داخل الطبيعة ايقاع ينسجم ووحدة الكون ، والكائن الحي هو جزء من هذا الوجود ، وكلامه صدى لهذه النفس بانفعالاتها ومشاعرها وحوادثها ، ولابد أن يحمل هذا الصدى نغمة الحياة ورنتها وإيقاعها الموسيقي . وعبارات القرآن تجسم في شكلها القائم على الحركة والجرس صورة الحياة ، وبهذه الحركة والجرس ينبعث الايقاع الموسيقي داخل العبارات القرآنية .

فسورة القارعة وهي تصدر باللفظة نفسها في قوله تعالى: « القَارِعَةُ ، مَا القَارِعَةُ ، وما أدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ (121) » تحمل جرسا قويا ، وضربات حادة وما سميت بالقارعة إلا لأنها تقرع القلوب (122) . جاء في معجم مقاييس اللغة: قرع يعني ضرب الشيء ، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر ، وسميت بذلك لأنها تقرع الناس أي تضربهم بشدتها . والقارعة : القيامة ، لأنها تضرب وتصيب الناس باقراعها (122) . هذا المفهوم اللغوي يأخذ قوته وهوله من الصيغة الفنية للتعبير ، فالقارعة كررت ثلاث مرات بتأكيدات

121) القارعة 101 : 1 ، 2 ، 3
122) تفسير ابن عباس ص: 5171

مختلفه ، الأول من لفظة القارعة نفسها ومفهومها اللغوي ، والثاني بـ « ما » و« القارعة » ، والثالث بـ « ما ادراك » و « ما » و « القارعة » . ولعل سيد قطب يضفي على هذه التأكيدات مغزاها العميق إذ يقول : « لقد بدأ بالقاء الكلمة بظلها وجرسها الايحاء المدوى المرهوب ! ثم اعقبها سؤال الترهيب : ما ما القارعة ؟ فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل . ثم أجاب بسؤال التجهيل : وما أدراك ما القارعة ! فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور ! ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا : « يوم يكون الناس كَالفَرَاش المَبْثُوث وَ تَكُونُ الجبالُ كالعِهْن المَنْفُوش (123) » .

فقوة الجرس ، ومشاهد الصور المتحركة المهولة ، تحدث إيقاعا شديدا يمس النفس والأعصاب ، ويربك المخيلة وهي تحاول أن تتخيل ابعاد الصورة المهولة ، ليوم القارعة . وهذا الإيقاع نفسه يؤدى معنى التهويل والتعظيم ، ويعزز بقوة الحركة التي تسود العبارات التالية هي إجابة للتساؤل المتمثل في بداية السورة بقوله تعالى : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كالفَرَاش المَبْثُوث ، وتَكُونُ الجبالُ كالعِهْن المَنْفُوش » . ان هذا التشبيه الحسي يفصح عن مغزاه الزمخشري بقوله : « شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار (124) » . والعرب تمثل بالفراشة فيصدق مثلها : « أضعف من فراشة وأذل وأجهل (125) » . والتشبيه في القرآن مستمد قوته من صلته بالبيئة العربية ، وبما تواضع عليه العرب . والإيقاع الشديد في هذه السورة يوحي بتتابع الهول ، فمن هول يوم القارعة أن تصبح الجبال — على ضخامتها — كالعهن المنفوش ، و « هو الصوف المصبغ ألوانا ، لأنها (الجبال) الوان وبالمنفوش منه لتفرق اجزاءها (125) » ، فهي تستحيل هباء متطايرا لاحد له. وتستمر الآية في الإيحاء والإيقاع ، فتعرض حال الذين خفت موازينهم بقوله تعالى : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيه ، نَارٌ حَامِيَةٌ (126) » . ان ما نلمسه من تأكيد قوي في هذه الآيات يرجع إلى هول المفهوم اللغوي لها ، وإلى التأكيد بـ « وما أدراك » وبالوصف « نار حامية » . وفسر ابن عباس

---

123) القارعة 101 : 4 ، 5

124) الكشاف 789/4

125) الكشاف 790/4

126) القارعة 101 : 9 ، 10 ، 11

« فامه هاوية » بقوله : « جعل أمه مأواه ومصيره الهاوية. ويقال يهوي في النار على هامته (127) » ، وهي من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة : هوت أمه لأنه إذا هوى أى سقط وهلك ، فقد هوت أمه ثكلا وحزنا : فكأنه قيل « وأما من خفت موازينه فقد هلك (125) » وقيل هاوية من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوي أهل النار فيها مهوى بعيدا (125) » .

ويتساءل المرء لمَ قيل للمـــأوى أما ، فيجيب عن ذلك الزمخشري بقوله : « لأن الأم مأوى الولد ومفزعه (125) » . ويفسر قتادة « فامه هاوية : فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسا (125) » .

هذه صورة لحال الذين خفت موازينهم يوم الحساب ، وهي صورة تبعث القشعريرة في النفس ، فالإنسان يهوي على أم رأسه في قعر جهنم ، أو يفتش عن مأوى في أحضان أمه ، فلا يجد إلا احضان جهنم. على أي التفسيرين فالصورة مهولة ومرعبة . ثم إننا نجد الإيقاع النابع من الجرس والحركة يساير النغمة العامة للصورة ، فالنطق بالقارعة ، يشعر بالضغط على اللسان مرتين في الحنجرة حيث القاف والعين ، وتكرار القارعة ثلاث مرات يضاعف الضغط ، ويصل به إلى ثمان ، ويشير إلى انحباس النفس في هول يوم القارعة وكأن الروح في حال احتضار ، وقد بلغت الحناجر . فالقاف ينضغط على اللسان بالحنجرة ثم تخفف بالراء ، ثم تعاد إلى عمق الحنجرة بالانضغاط وكذلك شأن الإيقاع في خاتمة السورة : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيه ، نَارٌ حَامِيَةٌ » .

فالغنة في « يه » في الكلمات الثلاثة ، والانضغاط على الحنجرة مرتين في « هاوية » بالهاء والتاء المربوطة الموقوف على سكونها ، وفي « ماهيه » بالهاء والتاء الموقوف على سكونها والمسماة عند النحاة بهاء السكت ، إذ أصل العبارة « ما أدراك ما هي » وفي « حامية » بالحاء والتاء المربوطة والموقوف على سكونها . ونلحظ الإيقاع يتناسق ، ابتداء من أول السورة وانتهاء بآخرها ، وكأن هذا الالتقاء في التناسق الايقاعي يوحي بنتيجة الهول الذي ابتدأت به الصورة والنتيجة أن يهوي أهل الشرك والكفر على أم رؤوسهم في جهنم خالدين . كذلك يشير هذا التناسق إلى أن صورة الهول في البداية تلتئم بالهول نفسه أو هو أعظم في النهاية . وكل هذا يتم بايقاع على نغمة جو الموضوع .

ونلمس الإيقاع ينبع من الجرس والحركة في العديد من السور القصار

---

127) تفسير ابن عباس ص : 518

في القرآن، وفي العديد من الآيات المنثورة داخل كل سورة ، وذلك تبعا للموضوع ، وما يقتضيه من عناية كبيرة بالايقاع الموسيقي . فسورة الحاقة التي تبتديء بالتهويل في قوله تعالى : « الحاقة ماالحاقة ، وما أدراك ما الحاقة (128) » تعبر عن محتواها المهول المرعب، ويشعر النطق بضغط ثقيل على الحنجرة ، بحكم تلاقي حرف الحاء والقاف ، والفصل بينهما بالالف الساكن الذي اقتضى تشديدا على حرف القاف ، ويوحي وكأن قوة تجتذب شرايين العقل والمخ والدماغ لتنضغط على قوة تتصاعد من أسفل بالحاء . وكذلك يشعرنا التقاء الحاء والقاف ، وتشديد القاف بعد الف ساكن بزهق في الحنجرة ، وبحركة صوت يتسم بالخنق الشديد . ولعمري ، إنه إيقاع يفتت النفس ، ويستمد هذا التفتت قوته من قوة هول يوم الحاقة. إن هذا التوزيع الجيد في حروف كلمات القرآن ، ينطوي على إيقاع نفسي هادف مثير ومؤثر .

ولعل ذكر بعض الآيات متفرقة من سورة الحاقة تهدينا إلى أن الإيقاع النابع من جرس الحاقة وحركتها يعبر عامة عن جو السورة، المتسم بالتهويل والتخويف. يقول تعالى : «فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (130) » «فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية(131)» « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (132) » ، « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية ، ماأغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (133)».

هذا الإيقاع المشروب بالقوة والتهويل والعنف ، يتم في وحدة موسيقية متنوعة وينبع من الطابع العام للسورة : حيث قوة الجرس ، وعنف الحركة بصورها ومشاهدها وظلالها، وغزارة ايحاءاتها، تتكامل كلها شيئا فشيئا لتجسد

128) الحاقـــة 69 : 1 ، 2 ، 3
130) الحاقة 69 : 7
131) الحاقـة 69 : 10
132) الحـاقة 69 : 13 ــ 16
133) الحاقـة 69 : 25 ــ 61

صورة الحاقة وحقيقة يومها ، وهول الناس على مسرحها ، وهي تستعين في ذلك بتفنن في أسلوب العرض وتنوعه ، كأن يتخلل التعبير أسلوب المخاطبة في حالة العرض العادي ، وذلك ليحرك النفس والعقل ، ويثير الوجدان والمخيلة ، ويهزها جميعا بالايقاع الموسيقي بمضمونه النفسي الهادف . ان الجرس الذي تحدثه الالفاظ داخل العبارة ، وان الشنشنة التي تتردد في حرف الشين في قوله تعالى : «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب (134)». توحي بايقاعها الموسيقى ــ بالمعنى النفسي ، وهو أن النفس تحس بالمعنى ، وتجد فيه التعبير الحقيقي عن تلك الحركة التي يحدثها حرف الشين في ألفاظ العبارة . أن اجتماع الشين والقاف ، وتشديد القاف بعد ألف ساكن في « شاقوا » و « يشاقق » بدون تشديد ، وان تضاعف ايقاعها بتكرار القاف مرتين ، يلتئم مع حرف الشين في « ا » شديد » والقاف » في العقاب ». وعندما نردد الآية كاملة ، ونراعي هذا التوزيع ، نلحظ ضغطا على الحنجرة متتابعا ، الأمر الذي يوحي بالثقل على اللسان والنفس ، ويؤدي مغزاه العميق في مصير الذين يشاقون الله ورسوله . لقد تم هذا الإيقاع في بعض جوانبه بحسن التوزيع بين حروف مفردات العبارة كاملة ، ودقة تتابعها الفني في صيغة التعبير ، والنفسي من حيث المغزى والإيقاع الموسيقي .

كذلك نجد الحركة التي تشع في الآيات القرآنية والتي يصحبها جرس نابع من صيغة المفردات والتعبير ، تحدث ايقاعا ذا ترديد نفسي ، ونغمة مشبعة بالحركة والقوة والعنف كما في قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا (135) » .

ان نغمة الإيقاع قوية وشديدة في الآيات الاولى ، ثم تتسم بالرخاوة المنبعثة من قوله تعالى : « يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همسا » .

ان طابع الخنوع والخشوع والإذعان للخالق يسود هذه الآيات ، وينبعث منها ايقاع هو صدى لهذه النفوس الخانعة أمام القدرة الجبارة للعلي القدير ، ولا يبدو منها إلا حديث النفس حيث الهمس .

134) الأنفـــال 8 : 13
135) طـــه 20 : 105 ــ 108

ان الإيقاع الموسيقي يساير دوما الموضوع ، لا يسبق المعنى ، ولكنه يخضع للمحتوى وصيغة التعبير ، التي يراعي القرآن فيها استجاباتها من حيث الوقع ، ومدى أثرها في النفس ، وهنا يحتل الإيقاع الموسيقي مكانه ليتعاون مع العبارة في أداء المحتوى والغرض القرآني .

انا نجد في سورة طه ايقاعات مختلفة على حسب اختلاف الموضوع والمصدر كالجرس والصيغة وحسن النظم وقوة التصوير . . . وقد يغلب بعضها فيبدو أوضح من الآخر ، وفي الحقيقة هنالك تعاون وانسجام بين كل الخصائص القرآنية ومعالم الإيقاع الموسيقي في القرآن .

هـ - التلون والتنوع في الإيقــاع:

إن الإيقاع ينبع من داخل العبارة ، حيث السبك والدقة في الأداء ، وحسن الوصف والتركيب بين مفردات العبارة ، والإحكام المتجلي في تماسك الأجزاء وتناسقها ، ومن الشكل الخارجي للعبارة ، حيث الدقة في وضع الحركات التي تتناسب والحروف والنطق ، وسهولة المخرج ، بعيدة عن التنافر والتقل ، - وان كان هذا نفسه يحدث ايقاعا غير مقبول ، لأنه غير مساير لترتيب المعاني في النفس - . وعندما يتم التعاون في النطق والإخراج ، وينسجم وحقيقة أداء المعنى ، يبدو الإيقاع في صورة منتظمة ، لنطق العبارة ومغزاها ، ومتماشية والحركة والجرس اللذين ينبعثان من صيغة التعبير ، وقد التأمت فيها الأسس الفنية في محتواها النفسي ، ومظهرها الجمالي .

يقول تعالى : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (136) » . فالمهل التي اختتمت به الآية الأولى تحمل جرسا وايقاعا ونغمة تفرضه حركات الشكل ، وانتظام الحروف باللفظة ، بحيث نشعر ونحن نرددها على الألسن أن شفاهنا تنفتح قليلا لتنتفخ ، وكأنها بذلك ترمز إلى المعنى المهول النابع منها ، فالمهل يعني « دردي الزيت » ويقال كالفضة المذابة (137) » . وهذا يؤدي إلى أن الشفاه تحصر الكلمة ، فكأنها تعصرها عصرا ، ليخرج ما ركد فيها ، كدردي الزيت الذي يحتفظ بالقعر والقاع مكانا له ، بعد انتقاء الزيت منه ، صافيا نقيا .

ويقابل « المهل » لفظة « العهن » من حيث الجرس وحركة النطق والإيقاع ، وتقارب حرف اللام والنون .

136) المعـارج 70 : 8 ، 9

137) تفسير ابن عباس ص : 485 - الكشاف 609/4

وعند ترديد كل منهما ، نلاحظ الانخفاض إلى درجة الحنجرة في « العهن » ، والعلو إلى حد أطراف الشفاه في « المهل » .

وهذه النغمة تعطي المعنى مغزاه بالإيقاع ، ذلك أن حركة « المهل » التي أوضحت سلفا أبعادها ، تأخذ لفظة العهن أبعادها لأداء المعنى . فالعهن بمعنى « الصوف المندوف (138) » أي « كالصوف المصبوغ ألوانا ، لأن الجبال جدد بيض مختلف ألوانها وغرابيب سود . فإذا بست وطيرت في الجو اشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح (139) » .

ويخيل إلي وكأن الضغط الذي يحدثه النطق ، ويصل به إلى الحنجرة يرمز إلى تفتيته هباء منثورا .

هذا النوع من التقابل في الإيقاع يتماشى ومغزى المعنى الذي يؤديه كل من « المهل » و « العهن » ، ويلتقي كل منهما ونغمة الإيقاع بالعبارة ، ثم تلتقي الآيتان في ايقاع ذي تلون هادف .

ان التنوع والتلون في الإيقاع ينبعان من داخل معنى الآية ، ومـا تحدثه من جرس ، وهذا نلاحظه في السور القرآنية ، فهي مجموعة من الإيقاع المتنوع ، كل ايقاع يسيره المعنى والجرس . ففي سورة المعارج التي استشهدت سابقا بآيتين منها ، نلاحظ هذا التنوع ، لا بين آية وأخرى بل بين آيات وآيات . يقول تعالى : « يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (140) » .

ان صورة الهول التي تمثله الآيات ، وتبرز أبعاده في حال « المجرم » ، وهو يحاول - عبثا - أن يفتدي من عذاب الله بأقرب رحمه ، وأعز ما يملك ، وهو في حال صراع مع نفسه ، لمواجهة أعماله أمام خالقه ، ولهذا الصراع النفسي جرس ينبعث من العبارات ، فكأن الإيقاع الذي تحدثه : « بنيه » و « أخيه » و « تؤويه » ، « ثم ينجيه » بصيغتها الممددة : « ايه » ، التي توحي بحاجة المجرم إلى مأوى يؤويه ، وتشير إلى تأوهاته وهي تتصاعد بسرعة متناهية ، لتتبخر في الفضاء ، تحسرا وندما ، وهي بذلك تنطق عن نفس أحدق بها الخطر من كل جانب ، فاستحالت إلى نفس الخطر

138) تفسير ابن عبـاس ص : 485

139) الكشـاف 609/4

140) المعـارج 70 : 11 - 14

وأكثر . وان الانفعالات النفسية تنطبع في صيغة العبارة بالإيقاع النابع من المعنى ، ومن جرس مؤخرات الآيات وصيغتها ، ليلتئم الانفعال بالكلمة ، والكلمة بنغمة الإيقاع ، والإيقاع بالتصورات المستمدة من حياة الإنسان المملوءة مآسي وحســرات .

إن لكلمة النفس ايقاعا ، وان هذا الإيقاع يرتسم على الجملة ، وان النفس لتعيش لحظات وهي تتأمل في عبارات القرآن المشبعة بالإيقاع الهادف.

ان الآيات السالفة تتبعها آيات أخرى تختلف عنها في الايقاع — وان عبرت عن هول يوم القيامة — ، وتتفق معها في نبوع الإيقاع من المعنى والجرس ، وهو هنا منصب حول وصف جهنم ونارها بإيقاع نابع من جو العبارة وموضوعها ، وصيغة مفرداتها . يقول تعالى : «كَلَّا ؟! إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ، وَجَمَعَ فَأَوْعَى (141)»

إن المعنى يعطي الإيقاع رنته وغنته ، فـ «كلا» تفيد الردع ، ومباغتة النفس وصدها ، وفي هذا اهتزاز للنفس ، يصحبه ايقاع طويل وشديد ، وصورة مكشرة ، وصوت يتصاعد من أعماق الحنجرة إلى درجة الضبح والبح . وان «لظى» : «علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب . ويجوز أن يراد اللهب (142)» . ان جرسها يحدث حركة باللسان ، وكأنه يحترق بالنار ، ويستمد الإيقاع قوته من هذا المعنى المهول وجرسه . وان «نزاعة للشوى» ، وهي على وزن فعالة للمبالغة الحقيقية ، تفيد معنى : «قلاعة لأعضاء اليدين والرجلين وسائر الأعضاء ، ويقال حراقة للبدن (143)» . والشوى هي : «الأطراف . أو جمع شواة ، وهي جلدة الرأس تنزعها نزعا فتبتكها (144) ثم تعاد (142)» . ان هذه المعاني وهي تتصل بمفهومها الحسي تضع الإيقاع قويا ومهولا ومثيرا ولا سيما إذا وقفنا وقفة التأمل فيما توحيه «نزاعة للشوى» من صورة حسية، تقشعر لها النفوس البشرية ، وهذه الصورة تتمثل وكأن مخالب أسد جائع ، طوحت به الغابات ، وهو يفتش عن فريسة ، فلم يجدها . وبعد جولات شديدة ، وصيحات مدوية ، تهز الغابة وما فيها ، إذا به يجد فريسته ، فينقض عليها انقضاضا ، وتغوص مخالبه إلى الأعماق، لتنتشل ما يروي جوعه وظمأه . ونار جهنم التي وصفها

(141) المعـــارج 70 : 15 — 18

(142) الكشـاف 610/4

(143) تفسير ابن عباس ص : 485

(144) تبتكهــا أي تقطعها . هكذا وردت على هامش الكشاف 610/4

القرآن بأنها «نزاعة للشوى» أعمق وأشد ضراوة من الصورة الحسية الموحية.

ان لهــذه الصورة الأثر القوي في الإيقاع ، فان الآيات بمجموعها تحدث حركة تلقائية في الشفتين ، فتنفتحان ، لتوحي بحال النفس وهي تصطلي وتتلوى في نار جهنم، وتستغيث لتبدي تندمها، ولات حين مندم ! !.

ان حال المستغيث تسودها حركة مضطربة تنتهي باستسلام تلقائي في الأعضاء والأعصاب ، ولا تبدو منها عندئذ إلا حركة خفيفة على الشفتين ، تنفتح وتنقبض ، وتعيدها مرات ومرات ، وكأن قوة من الداخل وبأسفل النفس — ولعمري انها قوة التندم والتحسر — تفتحهــا ، لتعبر عن شدة ما تلاقيه النفس من عذاب .

ان هذا الإيقاع النابع من هذه الآيات اسهم في ابرازه نوع الموضوع والمعنى ، وما توحيه الصيغة من صور ، وما ينبعث من مفرداتهـا من جرس ، وما انتهت به مؤخراتهـا من نغمـة واحدة ، وغنة ساكنة في الظاء «لظى» ، والواو «للشوى» واللام «تولى» والعين «فاوعى» .

ويتبع هذا الإيقاع في سورة المعارج نفسها ايقاع من نوع ثالث يمثل هلع النفس ، ويحمل نغمة جرس حرف العين ، ويعبر عن هوية النفس البشرية في نفاقها وتلونها وسرعة مطلبها . يقول تعالى : «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (145)»

ان هذا الإيقاع يدع الحنجرة تبعث اللوعات والحسرات ، فهلوع بمعنى ضجور ، بخيل ، حريص ، ممسك (146) . وقد فسره الزمخشري معتمدا في ذلك على المفهوم الحسي بقوله : «والهلع : سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير من قولهم : ناقة هلوع سريعة السير (147)» . وأورد المعنى بقوله : «ان الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ، ورسوخهما فيه ، كأنه مجبول عليهما مطبوع ، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري (147)» .

ان صيغة «هلوع» على وزن فعول للمبالغة ، وهو يحمل جرسا ذا نغمة ايقاعية ، تتصل بعمق فطرة النفس البشرية ، وجبلتها على السرعة المتناهية ، وان نطقها يشعرنا بحركة الأمعاء وهي على وشك اخراج ما فيها ، وايصالهـا إلى الحنجرة ، وهذا يرمز إلى قوة سرعة الضغط على النفس من

(145) المعــارج 70 : 19 — 21

(146) تفسير ابن عباس ص : 485

(147) الكشــاف 612/4

الداخل ، وتستمد هذه السرعة من طبيعة الإنسان نفسه .

ويلتئم مع « هلوع » لفظة « جزوع » على الوزن نفسه ، تلك التي هي بمعنى « جازع لا يصبر (148) ». والجزع نقيض الصبر ، وهو انقطاع المنة عن حمل ما نزل (149). ولفظة « منوع » في قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً » . والخير بمعنى «المال والغنى (150)» أي : «منع حق الله من ماله ، ولا يشكر الله على تلك النعم (148) » .

ان وقفة دقيقة في « هلوع وجزوع ومنوع» تهدينا إلى معرفة سر التوزيع في الإيقاع ، ذلك أن الهاء في هلوع قريبة إلى الحنجرة ، تليها الجيم في جزوع وهي في وسط الحلق ، وتختم بالميم في « منوع » وهي قريبة للشفتين. كذلك نلاحظ الدقة في التوزيع داخل هذه الألفاظ ، فـ« لوع » في هلوع قريبة للوسط ، و « زوع » في جزوع بعيدة عن الوسط ، وتقترب منها « نوع » في منوع . هذه الدقة في التوزيع ، وما تحمله الآيات من معنى وما تثيره من اهتزازات نفسية ، تحدث ايقاعا ذا نغمة يتناسب والجو العام للعبارات القرآنية .

إن كل الإيقاع في المجموعات الثلاث من الآيات السالفة الذكر ، تجتمع كلها لأداء معنى مشترك ، هو هول يوم المحشر ويتبعها ايقاع رابع ينتهي بالنون ، ويشاركه حرف الميم . يقول تعالى : « إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (151) . . . الخ الآيـة » .

إن هذا الإيقاع يختلف عن السابق ذكره ، حتى من حيث الموضوع ؛ ولذلك كان الإيقاع هنا نابعا من الإستبشار والإبتهاج النفسي الذي يسود المعنى العام للآيات . وغنة الميم والنون متقاربتان وتكادان تلتحمان ؛ ولا سيما بعد النطق بهما خلال الآيات . ان التنوع والتلون في الإيقاع بالآيات القرآنية يحدث ليسهم في أداء المحتوى ، وليمس النفس — وأقرب شيء إلى تحريكها هو الإيقاع الموسيقي — ولكي يعطي الجرس والنغمة مغزاها ووظيفتها ، ويسير في وحدة من التناسق ، يشعر فيها القارىء بتلاحم الإيقاع

148) تفسير ابن عباس ص: 485
149) معجم مقاييس اللغة 453/1
150) الكشـاف 612/4
151) المعـارج 70 : 22 — 26

في الانتقال ، على الرغم من تلونها وتنوعها ، وذلك لأن المعنى يحكم ويسود.

و — التناسق في الإيقـاع:

لقد اتضح مما تقدم أن الإيقاع الذي يكمن في داخل آي القرآن وخارجها ، يتم في وحدة متناسقة عجيبة ، وأن التنوع في هذا الإيقاع لا يخرج عن كونه صورة حية لهذا التناسق ، ولو أجرينا استقراء لنوع الإيقاع في كل سورة ، لاتضح لنا أنه ايقاع قائم على أسس فنية ونفسية ، فنية من حيث توفر الشروط الجوهرية لسمو التعبير القرآني في حروفه وكلماته وتركيبه وجمله ، وفي دقة النظم وإحكامه وسبكه ؛ ونفسية من حيث أن الإيقاع ينبع من النفس ، وان عبارة القرآن صدى لترتيب المعنى بها ، واستجابة حقيقية لمحتواها ودقائق خفاياها ، وهي بذلك تنفعل وتتجاوب وتهتز وتحدث ايقاعا يتناسب ونوع الانفعال والتأثير والمحتوى . وإذا بني الإيقاع داخليا وخارجيا على هذين الأساسين فاحكم بأن وحدة من التناسق تجمع بين نغمات الترديد في الإيقاع ، وتطبع الذهن والنفس بوحدة طبيعية في الفكر والمنطق والتسلسل . . ان آي القرآن وسوره ، سواء قصيرة كانت أم طويلة ، تنتهي بنغمة في فواصلها ، وتتقارب هذه النغمات في الآي القصار خاصة ، وتؤدي ايقاعا تبعا لجو السورة ونوع الموضوع ، فهي قوية عنيفة شديدة في المكية ، وهادئة في قوة في المدنية . أما الآيات الطويلة فهي تعتمد في ايقاعها على نغمة الفواصل ، والنغمات التي تحدث داخلهـا .

ان وحدة التناسق التي تسود آي القرآن وسوره ، نلمسها في ايقاعه ، لأن الإيقاع يوحي بجو السورة والمعنى العام لها ، ويصح أن نقول العكس أيضا في أن محتوى السورة وجوها يوحي بتنوع الإيقاع أيضا ، بل نقول أكثر من هذا : ان السور القصار التي تبتدئ بايقاع واضح المعالم والدلالة والنغم ، تشير إلى المحتوى العام للسورة ، وإذا أجرينا مقايسة بين آي الصدارة وداخل السورة وخواتمها ، نجد ايقاعا متوازيا متناسقا ، يساير نوع ايقاع جو السورة قوة وعنفا وتهويلا أو العكس . فسورة « الهمزة » تبتدئ بإيقاع عنيف مهول ، يقول تعالى : « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (152)» و « ويل » هو : « شدة عذاب ويقال واد في جهنم من قيح ودم ويقال

152) الهمـزة 104 : 1

بجب في النار (153) ». هذا المعنى المهول الذي تحدثه كلمة « ويل » يوجه « لكل همزة » أي « مغتاب للناس من خلفهم (154) » و « لمزة » أي « طعان لعان فحاش في وجوههم (154) » ويقال لـمزة وكهمزة بمعنى طعنه (154). ونزول هذه الآية ، قيل أنها في حق الأخنس ابن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة . وقيل في أمية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضّه منه وطعنه في وجهه (155). ويقول الزمخشري : « ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه ، فان ذلك أزجر له وأنكى فيه (156) ». هذا المعنى يزداد هولا وعنفا في ايقاعه عند فحصنا للآية ، فكلمة « ويل » تضع اللسان في حركة خفيفة ، كأنه يتلوى ويحترق ، ويعزز هذه الحركة انفتاح الفم ، وصدور صوت يشير إلى الارتباك والاستسلام . وان حرف اللام يتكرر أربع مرات ويشتد ضغطه في « لكل » وفي الانتقال من تاء « همزة » إلى لام « لمزة » ثم تنتهي فواصل آيات السورة بحرف التاء . وإذا وقفنا في كل آية عند التلاوة ، حيث تسكين تاء الفاصلة ، نشعر بصوت يحمل أنينا ووقعا ، يستمده من عنف المحتوى وهوله وكلمة « ويل » ، وهذا الصوت ينطلق من « زه » و « ده » الذي يتكرر ست مرات و « مه » مرتين ويجسم هذا الصوت الأنين الذي ينبعث من الحنجرة ويكاد يلتقي في عمومه في « آه ، آه ، آه » .

ان هول الإيقاع النابع من الآية الأولى لسورة « الهمزة » ، تلتقي معها في العنف والهول نفسه في الآيات الآتية من السورة نفسها يقول تعالى : « كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ في الحُطَمَة ، وَمَا أَدْرَاكَ ما الحُطَمَةُ ، نَارُ الله المُوقَدَةُ ، الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَة ، إنَّها عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ ، في عَمَدٍ مُمَدَّدَة (157) » .

ان ايقاع « كلا » التي تفيد الردع والزجر ، ونغمة الاحتقار والمهانة التي تتضح من « لينبذن » ، وتعظيم شأن الحطمة بقوله تعالى « وما أدراك » ، وتأكيد وصف الحطمة وحال الهمزة اللمزة فيها ، وطبع التعبير الفني في الآيات بطابع التأكيد ، يضع السورة في وحدة متوازية من التناسق العميق ، في الإيقاع وصورته وأثره في النفس ، فهي لوحة فنية ، انطبع فيها الإيقاع ، ليحيلها إلى حياة متحركة ، تنعكس على النفس البشرية ، فتمي حقيقة وجودها في الدنيا والآخرة .

إن هذا النموذج في السور القرآنية كثير ، نلمسه في معظم السور القصار خاصة ، وان الإيقاع الذي يسودها ، وان تحكم فيه المحتوى — فإنه يسير في تناسق تام ، كذلك يعطي حسب التوزيع في الحروف ، وايجاز العبارة ، الإيقاع صورته ومعالمه . يقول تعالى : « وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً ، فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (158) ». ان ما تحدثه « ضبحا » : « وهي أصوات أنفاس الخيل إذا عدت ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة ، ولكنه صوت نفس (159) » و « قدحا » أي : « قادحات حاكات بحوافرها الحجارة (160) » ، فتنقدح منها شرارات نارية. و « صبحا » أي وقت الصبح ، و « نقعا » أي صياحا وترابا يعلو الرؤوس (161) » فان النقع « قيل فيه أنه الغبار وقيل أنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع وقيل الصياح (162) » . و « جمعا » أي جموع الأعداء عند الإغارة عليهم — ان ما تحدثه هذه الكلمات التي تنتهي بها الآيات من ايقاع يهز النفس ، مصدره بناء حروف هذه الكلمات ، والدقة في مخارجها والضغط المختلف الذي يحدثه الحرفان الأولان منها : « ضَبْ ، قَدْ ، صَبْ ، نَقْ ، جَمْ » ، والنغمة التي يحدثه الحرف الثالث وهو الحاء المكرر ثلاث مرات ، والعين المكرر مرتين . وان التناسق في هذا الإيقاع لينجلي بوضوح عند فحص نطقنا لها ، إذ يأخذ اللسان دوره ، فتعقبه الحنجرة. فـ « ضَبْ » تنتهي بضغط قوي على الشفتين ، و « قَدْ » تنتهي بضغط قوي داخل الفم ولا سيما في الحنك الأعلى ، وَ « صَبْ » تلتقي مع الأولى ، و « نَقْ » تلتقي مع الثانية مع اضافة ضغط على الحنجرة ، و « جَمْ » تلتقي مع الأولى ايضا ، ثم يتم الإيقاع كاملا عند النطق بالكلمات كلها ، فنلاحظ أن اللسان يضغط عليه ، ويبقى على حاله إلى أن تنطق الحنجرة

---

(153) تفسير ابن عباس ص : 519
(154) الكشاف 794/4
(155) الكشاف 795/4 — تفسير ابن عباس ص : 519
(156) الكشاف 795/4
(157) الهمزة 104 : 4 — 9

(158) العاديات 100 : 1 — 5
(159) التفسير الكبير 63/32
(160) الكشاف 787/4
(161) الكشاف 787/4
(162) التفسير الكبير 66/32

في جرس الحاء والعين ، دون أن يشاركها في ذلك اللسان ، وهي تحدث بذلك ما يشبه الضبح أو البح في الحنجـــرة .

ان الحركة التي تحدث داخل الفم ، يتناولها النطق مرتبة منتظمة ، وذلك لعمري هي وحدة التناسق في هذا الإيقاع . لذلك يشبه هذا الإيقاع شدة طرقات مطرقة الحداد ، وهو يرفعها إلى علو ، وينزلها إلى أسفل ، ويصوبها نحو قطعة من الحديد ، وهذا يوحي بالصورة العامة للمعارك التي خاضها العرب بخيولهم ببأس وشجاعة ، وصلابة في العقيدة . ولقداسة هذه المعارك أقسم الخالق بها ، تعظيما لشأنها ، وإكبارا لتلك الروح والنفس المسلمة . وعند ما نستمر في فحص بقية آيات السورة نجد الإيقاع فيها متناسقا أيضا ، يقول تعالى : « إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيـــرٌ (163) » .

ان حرف الدال في « كنود » الذي بمعنى كفور (163) بنعمة الله ، وفي « شهيد وشديد » ، تلتقي في نغمة واحدة ، وان كان الضغط في كنود أقوى منه في شهيد وشديد ، والضغط في شديد أقوى من شهيد ، نتيجة اجتماع الدالين ، بينهما ياء ساكنة ، بحيث يخف الضغط في شهيد ليلتقي التناسق في جميعها أي في الكلمات الثلاث . ثم نلاحظ في خواتم الآيات كلمة « القبور والصدور ، وخبير » — نلاحظ فيها تناوبا في النطق ، فالقاف في قبور ينبعث من الحلق . والصاد في صدور تحدث صوتا بين الشفتين ، وتنبعث وهي بعيدة عن الحلق ، ثم يتقاربان كثيرا في « بور » و « دور » لكل من قبور وصدور .

ان الضغط العام في قبور وصدور يتجه إلى علو ، وينتهي بانفتاح قليل في الشفتين مع شيء من الإنقباض . أما ضغط « خبير » فهو يتجه إلى أسفل بانفتاح كامل في الشفتين على طول عرضهـــا .

ان هذا الاختلاف في النطق والضغط ، ودقة التوزيع في حروف كلمات السورة كلها ، يجتمع في وحدة من التناسق ، ليؤدي ايقاعها الصورة العامة لمحتوى السورة . ولا ننسى هنا أن نذكر كلمة « بعثر » التي بمعنى « بعث . وقرئ : بحثر وبحث (164) » ، والتي تحدث شبه ثورة أو انفجار

163) العاديـات 100 : 6 — 11

164) الكشــاف 788/4

داخل الفم ، ويوحي نطقها بصلة جرس « بع » بجهاز الأمعاء ، حيث يشعر مرددها بشيء من الحركة تشبه حركة بداية التقيؤ . وهذا يؤكد أن قوة ايقاع السورة تمس جميع أجهزة كيان الإنسان ، وان لمسنا بعضها أوضح من بعض ، إلا أنها تشترك كلها عندما يصحب فحص الكلمات عمق في المعنى ، لأن هذا يمثل جانبا كبيرا لتجسيم حقيقة التناسق في الإيقاع .

ان التناسق في الإيقاع يتساوق وحس النفس ، هذا الحس الذي يستمد أنفاسه وروحه من قوة الإيحاء في كلمة القرآن . يقول تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (165) » . عسعس الليل وسعسعه إذا أدبر ، وقيل عسعس : إذا أقبل ظلامه (166) . والأخير أنسب لتناسقه مع الآية التي تليه وهي : « والصبح إذا تنفس » ، حيث التنفس يشير إلى بداية الصبح ، وعسعس يشير إلى إقبال الظلام . ان ايقاع « عسعس » يتناسق وحس النفس ، فإنها تشعر ضبابا يعم النفس ويترامى على أطراف الكون ، لينصهـــر في ليل داهـــم .

إن مما يزيد في قوة هذا الإيقاع والحس النفسي تكرار العين والسين مرتين ، الذي يوحي بمداهمة الليل ، ليقضي فترة ثم يدبر ويقشعر : « وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الظلام ، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو ايحاء عجيب ، واختيار للتعبير رائع (167) » . . ، ويحل محله النهار بإشراقة معالمه ونوره ، ويحمل معه الروح والنسيم ، فكأن قوله تعالى : « والصبح إذا تنفس » ، أي « إذا أقبل واستضاء (168) » : « والصبح حي يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي (169) » . « ورؤية الفجر تكاد تشعر قلب المتفتح انه بالفعل يتنفس (169) » . هكذا توحي لفظة « تنفس » ، وفي تنفسها تحمل ايقاعا هادئا يتغلغل في النفس ، ويرفعها إلى مستوى كائنات الطبيعة ، وهي تفوح بالروح والنسيم ، لتدع المخيلة تتصور قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » ، وكأن غمامة سوداء تطايرت وانقشعت ، ليحل محلها النور . وانه لتعبير يقول فيه سيد قطب : « وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها

165) سورة التكويـر 81 : 17 ، 18

166) الكشـــاف 711/4

167) في ظلال القـــرآن 66/30

168) تفسير ابن عباس ص : 503

169) في ظـــلال القرآن 66/30

التعبيرية لا تحتوي نظيرا لهذا التعبير في الصبح (169) » . فظلام الليل أدبر ، ونسيم الصباح أقبل ، والإقبال والادبار يتمان في صورة فنية متناسقة ، تشخص الليل وقد تاه بكلكله ، وتجد* تلاشي ظلامه بحلول نور النهار ، وتتم هذه الصورة الحسية التي تتعاقب عليها حياتنا في أسرع من لمح البصر .

وهكذا ساير الإيقاع القرآني الحس النفسي الذي يتطبع في النفس البشرية ، نتيجة ما تتمتع به الفاظ القرآن من قوة الدلالة في الإيحاء .

ان ما نلمسه في القرآن من تلون وتنوع في آخر حروف الفواصل يحدث هو أيضا تنوعا في الإيقاع ، يتم في وحدة من التناسق ، ويعبر عن الصورة الفنية لإيقاع القرآن . فسورة البقرة تحتوي على 281 آية ، انتهت فواصلها بحرف النون والميم والراء واللام والدال والباء والقاف . وكان لحرف النون 192 آية ، وللميم 54 ، وللراء 21 ، وللام واحد ، وللدال سبعة ، وللباء ستة ، وللقاف واحد .

ونلاحظ أن حرف النون أكثر من غيره ، يليه حرف الميم .

وسورة النساء التي تحتوي على 167 آية ، فيها سبعة عشر حرفا في أواخر فواصلها وزعت على حسب النسب الآتية : لحرف الميم 56 ، وللام 28 ، وللراء 33 ، وللنون 17 ، وللدال خمس ، وللفاء ست ، ولكل من الباء والظاء والتاء والقاف والتاء ثلاث ، ولكل من الضاد والطاد والعين اثنتان ، ولكل من الهمزة والغين والصاد واحدة . ولسورة آل عمران 200 آية، وزعت على حسب النسب الآتية: للنون 120، وللميم ثلاثون، وللراء ثلاث وعشرون، وللباء عشرة، وللدال تسع ، ولكل من اللام والهمز ثلاث ، ولكل من الطاد والقاف واحدة .

ولسورة المائدة 120 آية ، موزعة على حسب النسب الآتية : للنون ثمانون ، وللميم أربع وعشرون ، وللراء سبع ، وللباء أربع ، وللام ثلاث ، وللدال اثنتان . هذه أربع سور طوال من السور المدنية تليها سور قصار من النوع نفسه .

لسورة الرعد ثلاث وأربعون آية ، موزعة حروف فواصلها على حسب النسب الآتية : للباء خمسة عشر ، وللراء ثمان ، وللام سبع ، وللنون خمس وللدال أربع ، وللقاف ثلاث ، وللعين سبع .

ولسورة الرحمن ثمان وسبعون آية ، وزعت حروف فواصلها على الحروف الآتية مع نسبها : للنون تسع وستون ، وللميم سبع ، وللراء

اثنتـــان .

ولسورة محمد ثمان وثلاثون آية : لحرف الميم ست وثلاثون ، ولحرف الهاء الممدود اثنتـان .

ولسورة الإنسان احدى وثلاثون : للراء عشرون ، وللام تسع ، وللميم اثنتان . وللماعون سبع ، ولحرف النون ست ، ولحرف الميم واحدة .

أما السور المكية ، فلسورة الأعراف ست ومائتا آية ، لحرف النون ثلاث وتسعون ومائة ، وللميم عشر ، وللام اثنتان ، وللصاد واحدة.

ولسورة هود ثلاث وعشرون ومائة آية ، لحرف النون ست وخمسون، وللدال ثلاث وعشرون ، وللباء ثلاث عشر وللراء احدى عشرة ، وللميم خمس ، وللطاد أربع وللظاد ثلاث ، ولكل من اللام والزاي والذال اثنتان ، ولكل من القاف والصاد واحدة . ولسورة النحل ثمان وعشرون ومائة آية ، لحرف النون عشرة ومائة ، وللميم ست عشرة ، وللراء اثنتان .

ولسورة الاسراء احدى عشرة ومائه آية ، لحرف الراء 51 ، وللام 37 ، وللدال ست ، ولكل من الميم والعين أربع ، ولكل من الباء والنون والفاء اثنتان ، ولكل من الهاء والقاف والسين واحدة .

هذه أربع سور مكيـة طوال ، تليها سور قصار .

لسورة القلم اثنتان وخمسون آية ، لحرف النون اثنان وأربعون ، وللميـم عشـرة .

ولسورة القاف خمس وأربعون ، لحرف الدال سبع وعشرون ، وللباء سبع ، وللجيم خمس ، ولكل من الظاء والراء اثنتان ، ولكل من الصاد والطـاد واحـدة .

ولسورة المزمل عشرون ، لحرف اللام ست عشرة ، وللميم ثلاث ، وللباء واحـدة .

ولسورة الكافرون ست ، لحرف النون ثلاث ، وللدال اثنتان ، وللميم واحـدة .

هذه سور مكية ومدنية ، طويلة وقصيرة ، يختلف ايقاع حروف فواصلها باختلاف الموضوع ، وتبعا لصياغة التعبير . فالإيقاع يساير المحتوى ونظم الكلم ، وهو تابع لها . لذلك نجد حرف النون كثيرا في المكي والمدني ، ونجد السور الطوال تتعدد فيها أحيانا الحروف كما تجلى في بعض السور

السالفة ، وتقل في بعض السور الأخرى كسورة الشعراء التي تحتوي على 227 آية ، وتتوزع حروف فواصلها على ثلاثة حروف فقط ، لحرف النون فيها 193 ، وللميم ثلاثون ، وللام أربع ، وتتعدد حروف الفواصل حتى في السور القصار نسبيا ، كسورة الحج التي تحتوي على ثمان وسبعين ، لحرف الراء فيها خمس وعشرون ، وللدال خمس عشرة ، وللنون اثنتي عشرة ، وللقاف ست ، ولكل من الزاي والياء اثنتان ، ولكل من الضاد والظاء والهمز واحدة . ثم اننا نلمس تكرار الحرف الواحد في السورة كاملها كما هو واضح في سورة القمر ، حيث اختتمت فواصلها بحرف الراء خمسا وخمسين مرة ، والحرف نفسه يتكرر ثلاث مرات في كل من سورة العصر والكوثر التي تحتوي كل منهما على ثلاث آيات ونجد حرف الدال يتكرر أربع مرات في سورة الإخلاص التي تحتوي على أربع آيات ، وحرف السين ست مرات الذي انتهت به فواصل الآيات الست لسورة الناس . . . الخ .

إن النتيجة التي نخرج بها بعد دراستنا لخواتم الفواصل ، هي أن نوع الموضوع والتعبير يتحكم في الإيقاع ، وانه من الصعب القول أن الإيقاع في السور المكية يتميز بحروف معينة ، وفي السور المدنية كذلك ، بل أن الحروف مشتركة في السور المكية والمدنية على حد سواء ، وان الذي يميز نغمة الإيقاع الموضوع والمحتوى . الا أنه بصورة عامة ، يمكن القول — كما أشار الزركشي (170) والسيوطي (171) — بأن انتهاء الفواصل القرآنية بحروف المد واللين والحاق النون كثير ، والحكمة في ذلك «وجود التمكن من التطريب بذلك (170 ، 171) » .

والقرآن في هذا يساير طبيعة العرب في ترنمهم وانشادهم . قال سيبويه : «أما إذا ترنموا (أي العرب) فانهم يلحقون الألف والياء والواو

170) البرهان في علوم القرآن 68/1 ، 69

171) الإتقان في علوم القرآن 105/1

وما ينون وما لا ينون ، لأنهم أرادوا مد الصوت (172) » . وتلحق العرب المد في حروف الروي «لأن الشعر وضع للغناء والترنم ، فالحقوا كل حرف الذي حركته منه (172) » . وقد خصص سيبويه في ذلك بابا أسماه «باب وجوه القوافي في الإنشاد (173) » ، عرض فيه رأي العرب في الترنم والإنشاد والتغني .

172) كتاب سيبويه 298/2

173) المصدر نفسه 298/2 — 304

خاتمة

نلاحظ مما تقدم أن التحليل الفني لخصائص القرآن أوضح بجلاء مقدار ما يتمتع به النص القرآني من اشباع فني ، وغزارة في الإيحاء ، ودقة في التصوير ، وإحكام في الأداء ، ومتانة في السبك ، وسلاسة في النسق ، وإبداع في الإيقاع ، وجمال أخاذ في التركيب والنظم ، وروعة في الإيجاز ، وقوة في المعنى . . . وكل ذلك يجتمع لتحريك العقل ، واثارة منبهات النفس والوجدان والمخيلة . لذلك تراني أؤكد دوما مدى الإثارة والتأثير النابعين من النص القرآني .

والقرآن ، وهو نص أدبي خالد ، خلع على الأدب العربي صفة الخلود وعلى اللغة العربية سمو الأداة في النقل الأمين والصادق ، فتميزا من بقية آداب العالم . وهذه الظاهرة مفقودة في آداب الأمم الأخرى .

ان القرآن مشبع بالحياة ، والحياة حركة مستمرة ، ولا بد لأداة التعبير الفني أن تكشف – ما يمكنها – من هذا الإشباع بالتحليل ، لأن التحليل يهيئ الجو في كنف القرآن . وليس بكاف استجلاء خصائص أسلوب القرآن في قائمة ، تجمع عناصر محدودة ، وترك الإستشهاد عليها بآيات عديدة مبنية على أساس من الوحدة الفنية .

ان خصائص أسلوب القرآن نابعة من أسلوب كلام العرب ، وان الإكتفاء بتعداد الخصائص دون تحليل ، يعرّض الصورة الفنية في القرآن إلى الكثير من الغموض والإلتباس ، ذلك أن القرآن – وان نبعت أصوله من أساليب العرب – يختلف من حيث هو وثيقة نفسية لعصارة الحياة في خضم واقع حسي لثلاث وعشرين سنة .

ان التعبير الرفيع للنص القرآني تجاوز التعبير العام للعمل الأدبي ، وذلك لأن من شروط العمل الأدبي الخالد التجربة الشعورية الحيّة الموحية ؛ وهذه التجربة تأخذ أبعادها في القرآن بحيوية فائقة ، فالقرآن وثيقة

نفسية بكل ما تدنيه التجربة الشعورية والنفسية ، إذ تميزت تجاربه وفلسفته في كونها ثورة عملية، يبلورها واقع عملي ؟ وجسّد حقيقتها منهج وتعاليم ، يحمل في جوهره الثبات الزمني عبر الأزمنة للدنيا الفانية ، وعبر عن هذا الواقع الحرف والكلمة ، وأخذ التعبير القرآني الرفيع مسؤولية نقل المحتوى : فكرا وحضارة ، وأداته بصدق وأمان ، في صورة حية ، مشبعة بالحركة والإثارة والتأثير ، وكأنها الحياة المادية ذاتها ان لم نقل أكثر .

لقد نزل القرآن منجما ، وفي هذا التنجيم ، التعبير الحقيقي والصادق لماهية القرآن ، إذ حمل في جوهره خلاصة تجارب بشرية ، ضمنها تعاليم وأحكاما وتوجيهات، وصاغها في أسمى أسلوب كلام العرب وبلغائهم وتنوع هذا الأسلوب تبعا للموضوع ، فهو أسلوب علمي محكم ذو طابع أدبي في آيات التشريع والاحكام وعامة آي القرآن ، وهو أسلوب أدبي رفيع ، ذو طابع نفسي وجداني وعقلي في آيات الوعظ والارشاد ، وفي تذييل الآيات القرآنية ، وهو أسلوب أدبي شيق ، ذو نغمة مثيرة ومؤثرة، في عرض الحقائق والأحداث ، والحالات النفسية على شتى أنواعها، وفي عرض القصص وحياة الأمم والأفراد وتاريخها . وهو بهذا يعد الصيغة المثلى للتعبير والتركيب في اللغة العربية ونثرها الفني ، ويمد العقل العربي خاصة بمعالم جمالها وروعتها وابداعها ، ويبصره بأساليب كلام العرب ، وبتنوع خصب للأساليب: سواء أكانت علمية أم أدبية أم نفسية في شتى الموضوعات ومضامينها ، ويزخم وثراء في التجارب البشرية ، وبصورة رائعة في التزام الأداء الفني بصدق المحتوى وغرضه وهـــدفه .

انه لا بد لدارس القرآن أن يعتمد على الحس الفني ، قبل اعتماده على ما تعلمه من مصطلحات بلاغية ، وقواعد نحوية وصرفية والتزامات لغوية . . . ـــ ليستطيع أن يدرك شيئا من فن القـــرآن . ولئن اتفق الكثير من الباحثين على أن ابن المقفع أول ناثر فني ـــ على حسب ما تعنيه كلمة فن في الكتابة الفنية للنثر ـــ فإن القرآن يعد ـــ بحق ـــ النثر الفني الرفيع الخالد لكل الأجيال العربية القديمة والحديثة والصاعدة .

هذا ، ويمكن ملاحظة ما بالرسالة من جديد في أمرين :

1) إن هذه الرسالة محاولة جدية ومتواضعة ، التزمت فيها تطبيق ما أشار إليه القدامى وأكده المحدثون إلى ضرورة وأهمية دراسة القرآن دراسة أدبية ، تخضع للذوق العربي الأصيل ، وتعتمد على الحس الفني ، وهذا في حد ذاته يعد اتجاها جديدا في دراسة الكلام العربي : نثرا وشعرا ، عامة ، ودراسة القرآن خاصة .

2) أقمت هذه الدراسة على أساس الوحدة الفنية التي تتداعى فيها الخصائص للنص القرآن الواحدة تلو الأخرى ، في إطار فني ، أجمع القدامى والمحدثون على أهميته لدراسة القرآن .

وبعـــــد :

إن هذه الرسالة صورة مصغرة لظاهرة الإعجاز الفني في القرآن ، وان هذه الظاهرة بصورتها الموسعة لا تبرزها رسالة ، بل رسائل لا تحصى ، ومهما استطاع الدارس أن يدرك من فن القرآن ما يدرك ، فإنه عاجز عن استيعاب كل جوانبه ، لأن آي القرآن ـــ ان تلاقت بعضها في خصائصه الفنية ـــ تتميز الواحدة عن أختها ، وتملك فروقا دقيقة ، لو استقريناها لاقتصرنا على بعض من آي القرآن ، ولما اجترنا مرحلة أبعاده الشاسعة ، ولاستغرق جهدا لا يقف عند حدود العمر . . . أقول هذا لأن القرآن يمثل روح البيان وفطرة الذوق العربيين ، ووحدة الوجدان الإنساني ، وان الذوق العربي الفطري السليم هو الذي يدرك سحر القرآن ويعيش في نقاوته واصالة بيانه ، ولكي نقترب من فهم القرآن لا بد أن نعتمد على الشخصية والأصالة، ونساير أسس ميراثنا الحضاري والفني وما يلائمهما من معطيات الحياة المتطورة ، والحضارة الحديثة .

إن الإعجاز الفني يعتمد على بعث الحياة في الكلمة بله الحرف ، ويشخصها وكأنها الحياة التي تعيش على مسرحها ، فتنفعل النفس ، وتتجاوب ، وتستحيل المشاعر إلى قوة طاغية على كل الحواس ، فتعيش النفس عندئذ الحياة بأوسع وأعمق وأكثر خصوبة من الحياة المادية نفسها ، إذ أن حياة الفكر المستمدة من واقعنا الحسي ، ومتطلعات عقولنا ، وتخيلات مخيلاتنا ، أعذب وألذ وأمتع . انها حقيقة الحياة . والقرآن حريص على أن يبث فينا هذا النوع من الحياة، ولكن لمستوى معين من الناس ، وأن يبعث في عموم البشر نشوة الفكر ، والحياة والنفس ، والروح ، على حسب مؤهلاتهم . وهذا يحتاج إلى أداة فنية رائعة أمينة في النقل ، فاستمدت من واقع الإنسان العربي في كلامه وتعبيره وتفكيره وعقليته وأسلوبه وحياته ، ومن الكيان البشري بوجه عام، حيث فطرة الإنسان كإنسان ، وحيث تلتقي التجارب الإنسانية، وتتكرر نماذج منها ، وتأخذ صفة الديمومة في مدى الحياة .

إن الإعجاز الفني تمثلت فيه هذه العصارة من التجارب، وظيفت في أداة فنية رفيعة ، فجمع بين الاعجاز والفن ، بين استسلام العقل والفكر ، وسحر الأسلوب في صياغة الحياة في "أوج فنها ، وكانت الكلمة ، هي اللسان الناطق ، ولغتها ، هي العربية الفصيحة .

ان مجموع ما ذكرته في الرسالة لا يتعدى كونه صورة موجزة لما يحتويه القر آن من فن وروعة وجمال واعجاز .

أرجو من الله أن يوفقني فيما فهمت وكتبت واستنتجت، عليه توكلت ، وبـه استعيــن .

والله ولي التوفيــق .

فهرس المصـادر والمـراجع

1) آراء في العربية . عامر رشيدالسامرائي . مطبعة الإرشاد بغداد 1965.

2) الاتقان في علوم القرآن . جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر (ط 3 1370/1951).

3) اثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري. محمد محمد زغلول سلام تقديم محمد خلف الله أحمد . ط دار المعارف بمصر .

4) الاحساس بالجمال . تأليف جورج سانتيانا . ترجمة الدكتور مصطفى بدوي . مراجعة زكي محمود . ط . مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

5) الادب والمجتمع . تأليف محمد كمال الدين علي يوسف . مقدمة ودراسة يحي حقي . مطابع الدار القومية للطباعة والنشر 1962.

6) اسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجاني (471 هـ). تحقيق الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا . مطبعة محمد علي صبيح وأولاده . ط 6 مصر 1959.

7) الاسس الفنية للنقد الأدبي . الدكتور عبد الحميد يونس . مطبعة المعرفة ط 2 القاهرة 1966.

8) الأسس الجمالية في النقد العربي . تأليف عز الدين اسماعيل . ط دار الفكر العربي . مطبعة الاعتماد . ط : 1955.

9) الأسس المعنوية للادب تأليف عبد الفتاح الديدي . مطبعة المعرفة . ط 1 . 1966.

10) الأسلوب . تأليف أحمد الشائب. مطبعة السعادة . ط 6 مصر . 1966.

11) أصول التربية المثالية في أميل لجان جاك روسو . تأليف محمد عطية الابراشي . (لم تذكر الطبعة ولا التاريخ)

12) اطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام .
تأليف علي الجندي . محمود صالح سمك. محمد أبو الفضل ابراهيم
مكتبة الانجلو المصرية القاهرة . ط 1 . 1959.

13) اعجاز القرآن. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (404هـ) تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف . مصر 1954.

14) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية تأليف مصطفى صادق الرافعي . مطبعة الاستقامة ط 6 . القاهرة 1956.

15) البرهان في علوم القرآن للامام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (745 — 794) . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة دار إحياء الكتب العربية . مصر 1957.

16) البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين اسحاق ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب . تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي. مطبعة العاني . ط 1 بغداد 1967/1387.

17) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (817). تحقيق الأستاذ محمد علي النجار مطابع شركة الإعلانات الشرقية القاهرة 1963/1373.

18) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . السيد محمود شكري الالوسي البغدادي . تصحيح وشرح محمد بهجة الأثري. مطابع دار الكتاب العربي . مصر 1342هـ .

19) البناء الفني للقصيدة العربية . تأليف محمد عبد المنعم خفاجي . دار الطباعة المحمدية بالأزهر . ط 1 . القاهرة .

20) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255) تحقيق عبد السلام هرون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1948.

21) تأويل مشكل القرآن . أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (213 — 276) شرح وتحقيق السيد أحمد صقر . مطبعة دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه 1954 .

22) تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي . ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان مطبعة الاستقامة القاهرة . ج 2 : 1953 . ج 3 : 1954 .

23) تاريخ فكرة إعجاز القرآن . تأليف نعيم الحمصي . دمشق 1955.

(لم تذكر الطبعة)

24) تأملات في سلوك الإنسان . أو الحضارة الحديثة في الميزان . تأليف د . الكسيس كارل. د . محمد محمد القصاص . د. محمود قاسم . مكتبة مصر .

25) التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني (651) . تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي . مطبعة العاني . ط 1964/1383. بغداد

26) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن : تأليف ابن أبي الاصبع المصري (585 — 654). تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . مطابع شركة الإعلانات الشرقية . القاهرة 1383.

27) التسهيل لعلوم القرآن . محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (471) . مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى . ط 1 . مصر . 1355.

28) التصوير الفني في القرآن . سيد قطب . دار المعارف . القاهرة 1963 .

29) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي . أنيس المقدسي . طبعة دار العلم للملايين . ط 2 . بيروت . 1960.

30) التعبير الموسيقي . تأليف الدكتور فؤاد زكريا . دار مصر للطباعة . ط 1 : 1956.

31) تفسير غريب القرآن . أبو محمد بن عبد الله بن مسلم ابن قتيبة (213 — 276). تحقيق السيد أحمد صقر . دار إحياء الكتب العربية 1958/1378.

32) التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي (544 — 606). التزام عبد الرحمن محمد بميدان الجامع الأزهر بمصر . ط 1

33) التفسير البياني للقرآن الكريم . الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ . دار المعارف بمصر . ط 2 . 1966.

34) التفسير والمفسرون . الدكتور محمد حسين الذهبي . مطابع دار الكتاب العربي القاهرة . 1961/1481.

35) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى